سرديات بوحيّة في

زمن الثورة السورية

إذا أعجبك الكتاب فرجاءً حاول أن تشتري النسخ الورقية
الكتاب والناشرون العرب معترون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم ضمانٌ لاستمرارهم
من أقوال الرفيق الغير مناضل أبو عبدو البغل

بوح في المنفى

أحمد اليوسف

ميخائيل سعد

ABU ABDO ALBAGL

PAGES
سرد

5584

حقوق النسخ والتأليف © 2016 **منشورات صفحات(بيجز)** - تركيا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال, دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجّهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Sardeat Bawhia by *"Ahmad Yoosef - Mikhael Saad"*

Arabic copyright © 2016 **Safahat (Pages) Books.**

المؤلف: ميخائيل سعد - وأحمد يوسف
الطبعة الأولى: 2016 .
الغلاف والإخراج الفني: سامر القادري

ISBN: 978-9933-9160-6-0

PAGES

منشورات صفحات (بيجز)

تركيا / اسطنبول / العنوان البريدي:
Kariye Çk. No:5 / Ayvansaray Mh. 34087 Fatih / İstanbul, Turkey
تركيا / اسطنبول
www.pagesbookstorecafe.com / info@pagesbookstorecafe.com

سرديات بوحية

في زمن الثورة السورية

بوح في المنفى

ميخائيل سعد

أحمد اليوسف

سرد

PAGES

القسم الأول:
سرديات أحمد اليوسف

أمي المراسلة الإعلامية للسماء

لا أدري كيف أحسب أمي الجبانة على الثورة السورية. «يا ابني لا تحكي عليهن، بيقصفونا بعدها»، هكذا تقول لي كلما تحدثنا معاً. و«عليهن» هذه تعني بشار الأسد وجيوشه. حوّلت أمي قبو بيتنا إلى معبدٍ تقيم فيه، بعدما هجرت البيت خوفاً من قصف طائرات الجيش العربي السوري. «يا ابني، بتعرفني جبانة بخاف من الموت، ما بدي موت، بدي عيش!»، هكذا تقول لي، في مونولوجياتها القلقية الأرقية المملوءة خوفاً وفزعاً. أمي لا تحب الموت، لا في سبيل الله، ولا في سبيل الوطن، وتريد أن تعيش بقدر ما تستطيع. تدخل، في كل يومٍ، إلى قبوها الذي كان إسطبلاً سابقاً، وتصلي على عجلٍ، كونها أمية لا تحفظ من القرآن شيئاً؛ هي فقط تُوتوت وتتمتم في صلاةٍ أقرب إلى سقط العتب، كونها مجرد افتتاحيةٍ ضروريةٍ للدعاء، لتفتح بعدها يديها في دعاءٍ طويلٍ تتعب فيه الملائكة في تقاريرها الدعائية التفصيلية عن براميل النظام أخو الحفيانة: «ولك يا الله دبحنا ابن الحرام! قتل ولاد درعا وخرب حلب، ما بس حلب القديمة وحلب الجديدة كمان، لعن دين حلب ما خلى فيها واحد يوحّد ربه! ونحن دبحنا الخوف يا ربي، والله وتالله ما عاد نتحمل. قتل الناس في حمص وفي حماة وعندنا في الجبل. ولك ما خلى شي ما جربه، براميل وصواريخ وقتل وزحل وعفس وتعذيب! والله العظيم ويبلاني العمى إذا عم إكذب، إبادة عمقلك إبادة! صغير مع كبير، نسوان مع زلم، وأنا يا ربي ما عاد تشيلني رجلاي! دخيلك يا الله كف شره عنا ابن الحرام أخو الحفيانة، لا بيخاف الله ولا محمد، ونازل بهالناس قصف! دخيل اسمك يا الله والله ما عاد أتحمل، طلّع شوف عيوني طاروا، وصار معي رجفان عم أرجف ليل ونهار. زلمتي ساكن فوق وأنا ساكنة تحت. هوي قلبه قوي ما بيسأل، بس انا بتعرفني قطيعة بخاف من الرعد فكيف من براميل البارود. والله ما عاد رجلي تحملني، خلصنا منه يا الله بجاه اليتامى، بجاه كل مين إلو عندك جاه». وهكذا لا تنام أمي الجبانة، المراسلة الإعلامية إلى السماء، ولا تدع الملائكة تنام بسبب تقاريرها الدعائية اليومية.

الطفولة والاستبداد

ليست الطفولة نقيضاً للرشد كما قد يظن البعض. ولا هي نقصٌ في النضج، بما أن النضج ليس نقصاً في الطفولة. أنا لم أعش، في حياتي، الطفولة نقصاً، بل فيضاً من الفضول والطاقة والخيال. فليست الطفولة سوى الفيض. واستثناءً كانت طفولتي، تماماً كما كل البشر. ولي في ذاكرتي مخزونٌ من الأمثلة الحية من غنىً واقعي المعاش. ففي ظهيرةٍ صيفيةٍ، ومن على سطح بيت جدي مصطفى السليم، كنا أنا وابن خالي نعيش فيض حبنا للعب. وليس أحب على الأطفال من اغتيال الوقت لعباً. رأينا جدي من فتحةٍ من على سطح بيته الطيني، مستلقياً على ظهره. لم يترك من لباسه إلا ما خف منه. تأكدنا أنه قد أغمض عينيه فاتحاً فمه قبل أن ينزل كل منا سرواله ليمطره بوابلٍ من البول. لم نكن نريد له الأذية، كنا فقط نريد أن نلعب. لجدي صوتٌ مرعبٌ جعلنا نطير هرباً. وفي جلسته التحقيقية معنا، وسؤاله عن طبيعة ما ألقينا عليه، لم يكن لدينا من إجابةٍ، إلى أن قدم هو خياراتٍ لنا. «أكان شخاخاً؟» فهززنا رؤوسنا بالنفي. «أكان ماءً؟» فهززنا رؤوسنا بالإيجاب. وأدرك هو من هزات رؤوسنا المرعوبة الباحثة عن خلاصٍ وحسب، بأنه كان بولاً، فقال ضاحكاً: «لا تعيدوها مرةً أخرى، حتى لو كان ماءً». وحين سألت جدي الآخر، الشامت بما حصل لجدي مصطفى، عن قول أمي بأنني سأذهب إلى النار عقاباً على فعلتي هذه، أجاب:» لا تصدق الجدبة أمك، الأطفال لا يذهبون إلى النار».

فللأطفال رخصةٌ وُلدت معهم، ضمنتها لهم كل الشرائع والأديان. والطفولة أحياناً نهجٌ وثقافةٌ واعتقادٌ وطبيعةٌ تنبري الأخلاق للدفاع عنها. فيروى عن المسيح قوله عن الأطفال: «لمثل هؤلاء ملكوت الله». كما يتناقل إرثنا الديني قول نبي الإسلام، رسول الرشد: «اتقوا الله بالضعيفين المرأة والطفل». وللطفولة خصوصيةٌ في ثقافتنا تصيغ نفسها ضمن ثناءات مجازية: «الأطفال ملائكة الجنة». وأحياناً تأخذ شكل مجازاتٍ دنيويةٍ، ملؤها المداعبة، كأن يقال: «في طيزه مئة عفريت!». والطفولة في فيضها اللعبي قد تغدو ثقافةً تربويةً تحررية

خلاقةً كتلك التي تحدث عنها شلر في تربيته الجمالية. واللعب روح الطفولة. ولو ملك الأطفال دولةً لنصوا فقرةً واحدةً تختزل مبادئ دستورهم الطفولي مفادها: «كلٌّ يلعب على هواه». وثقافة اللعب هذه هي ثقافةٌ تحرريةٌ لا تحتملها أي سلطةٍ استبداديةٍ. وخير مثال على سلطةٍ ما فتئت تحارب الطفولة هي سلطة البعث. فلم تكتف هذه السلطة عبر تاريخها التدجيني المجيد بتفريغ اللعب من مضامينه، بل جعلت من الأطفال أنفسهم موضوع ابتزازٍ. فكل من يحتج على قمع نظامه، مصيره ومصير أطفاله الموت. وإذا كان جدي متسامحاً مع من بال عليه، فنظام البعث المتخوم بالرجولية النضالية لا يغفر خطأً من هذا القبيل. لأطفال درعا سبقٌ بانتهاك المحظور بأن بالوا على النظام غناءً، فأنشدوا مطالبين بإسقاطه من عليائه، فاقتلع لهم أظافرهم. ولم يشفع لهم قولهم: «لم نكن نقصد ما نقول، كنا فقط نلعب». وحين بالغ الأطفال في لعبهم، كما فعل حمزة الخطيب، قطع النظام له، في عصابٍ ساديٍّ، عضوه الذكري. لعب الأطفال واستبداد النظام ضدان لا يلتقيان. يحتّم هذا التضاد منا موقفاً أخلاقياً مفاده: إما مع الطفولة وإما مع نظامٍ يصادر عليها. إن الطفولة براءةٌ، وقتل طفلٍ ليس بمثابة قتل إنسان بريءٍ فقط، بل بمنزلة قتل البراءة ذاتها. من هنا لا يلام فقط من يساند نظاماً يمعن قتلاً بالطفولة، بل اللوم هو على كل من يسكت عنه. إن السكوت عن قتل الطفولة جريمةٌ.

* * *

الممانعة والتعليم في زمن البعث

يقول فيكتور هيجو: «افتح مدرسةً تغلق سجناً». وقد ينطبق ذلك على كل المدارس إلا على مدارسنا في زمن البعث؛ فهي السجن ذاته. وكانت تجربتي الخاصة بالتدريس استثناءً يتيماً يؤكد القاعدة. ففي سنة ١٩٩٤ قادتني زيارةٌ خاصةٌ إلى الرقة - مدينة مولدي - إلى أن أصبح أستاذاً، وأنا الخارج للتو من الثانوية العامة. كانت مدرستي التي أسستها، أنا نفسي، في مكانٍ خارج الجغرافيا والتاريخ، في قلب البادية السورية. وكنت فيها المدرس الوحيد والمدير والمستخدم، في الوقت نفسه. وكان من مهامي الأستاذوية تعليم الأطفال، والتبصير بالفنجان، وقراءة الكف، وكتابة الحجب. وكان علي، بالإضافة إلى ذلك، أن أتأقلم مع عمليات التنقل المستمرة من مكانٍ تشرق فيه الشمس من الغرب إلى مكانٍ تشرق فيه من الشمال. وأحفظ من تجربتي العجائبية، بوصفي أستاذاً رحّالةً، قصتين سأحتفظ بهما سراً حميماً لن أبوح به لأحد؛ لأنه لا يمكن لعاقل أن يصدق أنه في يوم من أيام الشتاء أتت مها راكضةً وهي تقول: «يا أستاذ تعال الكل ينتظرك». ومها هذه كانت إحدى تلميذاتي، وهي أخت خميس. سحبتني من يدي على عجالةٍ، كأنها تسحب دايةً باتجاه عملية توليدٍ مفاجئةٍ. كان أغلب أهل القبيلة في بيت هزاع أبو خميس. وكان أبو خميس منتفخاً فخراً كديكٍ روميٍّ، بينما كان خميس جالساً في وسط البيت، محاصَراً بالناس من كل الجهات كمحاصرة سحرة فرعون لموسى. وكان ممسكاً بورقةٍ قيل إنها رسالةٌ أتت من الخليج. الجو بدا شبيهاً بطقسٍ من طقوس استدعاء الأرواح. ولو كُتب لهوميروس اليوناني الحياة لسطَّر في هذه الواقعة أفضل ملاحمه. قال أبو خميس لابنه: «اقرأ يا بني»، طالباً من خميس أن يقرأ للمرة الخامسة الرسالة ذاتها. وأخذ خميس يقرأ، وكأنه يرتل قرآناً. لا شيء في الرسالة مهمٌّ، كل ما فيها كان سلاماتٍ وذكر أسماء وتفاصيل «لا معنى لها». الحدث المهم في هذه القصة هو فعل القراءة ذاته. ففك الحرف معجزةٌ لا يدرك قيمتها إلا الراسخون في الأمية. هذه كانت ثمرة جهودي المضنية خلال شهور من التدريس، في باديةٍ لا نعرف فيها من عطلةٍ وطنيةٍ، ولا نميز فيها بين جمعة

وسبت. وهكذا أصبح أخيراً للقبيلة من يقرأ لها رسائلها.

والقصة الثانية مفادها أنه جرت العادة أن يبقى رجلٌ في القبيلة، إذا خرج الرجال لطلب ماءٍ أو للبحث عن مرعى جديدٍ. لم يكن هذا إلا بسبب الخوفِ من غزو عناصر المخابرات الذين كانوا يقومون بغزوات أمنية يسمونها «الزيارة» يبيعون خلالها كتباً لأناسٍ لا يقرؤون. كان حظي أنني كنت رجل البيت في إحدى تلك الغزوات الأمنية. أتوا حاملين كتاباً عن فكر القائد الفذ. حاولت ألا أدفع ثمنه متحجّجاً بأعذارٍ غير مقنعةٍ، مفادها أنه لا أحد في القبيلة يعرف القراءة. وحين قيل لي: «بيتعلموا»، سارعت بالرد بأنه لا نقود لدينا. انتهى سجالنا اللامتكافئ بأن أخذ حامل كتاب «فكر سيد الوطن» بالتهديد والوعيد؛ فتدخلت أم متعب كي تحلّ خلافنا. وكانت أم متعب تلك عجوزاً ثقيلة الحركة لم يتبق من غابر عزها، بعدما أن أصاب أهلها وباء الفقر، سوى بعض ثيابها الجميلة القديمة ورقي الأميرة في الكلام والتعبير. لم يكترث حماة الوطن للباقتها، فكل ما كان يهمهم هو مالها. استعجلها قائد حملتهم بطلب المال قائلاً: «خلصينا!». أخرجت أم متعب من جيبها خرقة مطرزة وملفوفة بخيط من حرير. بدأت بفكه ويداها ترتجفان، مطلقةً كلمة «يا رب!» وكأنها تستجدي عوناً إلهياً. أخرجت قطعتين ورقيتين من فئة الخمسمئة ليرة. والفقراء، حتى نقودهم تشبههم. فقد كانت الأوراق المالية قديمةً متلفةً مرقّعةً بلصيقاتٍ وكأنها كفنٌ. لم يتردد زعيمهم في أخذ النقود والرحيل، وهو يهمهم بكلمات تذمرٍ وامتعاضٍ. عندما سردنا القصة لحفيدها محمد (أبو جاسم) والذي لا يعرف القراءة والكتابة، حمل الكتاب قائلاً: «هذا الكتاب لي». ولم يمض أكثر من شهر حتى انتشرت صفحات كتاب «قائدنا المفدى» في جميع الأماكن التي قضى فيها أبو جاسم حاجته.

* * *

المعارضة السورية وسعالها الوطني

لم يكن لدى أمي الوقت الكافي لتوزّع حنانها الأمومي بالقسطاس على جميع أطفالها، وهم كثر. ولم يكن لأبي أن يعيش أبوته إلا في هامشٍ ضيقٍ من وقت فراغه، وهو الذي أجبرته الظروف على أن يشتغل في عملين متوازيين: شرطي وفلاح. ولم أكن شخصاً موهوباً ولا مجدّاً ولا ذكيّاً كي أستطيع المطالبة بحقوقي الحنانيّة. لجأت مضطراً إلى خبثي الطفولي وإلى مخيلتي الخصبة: تصنعت المرض. واخترت مرضاً لا يحتاج إلى برهانٍ أو إثباتٍ، اذ لا مصداقية لطفلٍ استنفد كل أساليب اللف والدوران: إنه السعال. ويكفي برهاناً عليه أن تسعل. انطلت الحيلة على أمي كالعادة، فأخذت تهلول وتولول قائلة: «الولد رح يصيبه فتاقة أو تنزل له قيلة، خده للطبيب قبل أن يموت». أخذني أبي بناءً على توصية أمي، والتي كانت بمثابة فرمانٍ غير قابل للطعن. ذهبنا معاً إلى مدينة اسمها أريحا. كان ذلك يوم سبتٍ. وكانت أريحا في بازارها السبتي أشبه ما تكون بالمدن التي تحدث عنها سندباد؛ الناس يأتون اليها من كل فجٍ عميقٍ. كلٌّ يحاول بيع بضاعته من خضارٍ ولباسٍ وأوانٍ منزليةٍ. أخذني أبي بدايةً إلى المطعم، لنأكل أول مرة طبخاً لم تحضّره أمي. ودخلنا في أحاديث ونقاشاتٍ عن أشياء تهمّني وعن أشياء أخرى تهمّني أيضاً، فأبي لا يتحدث عن الأشياء التي تهمّه. كان نقاشاً كيفما اتفق. وليس أجمل من حديثٍ ونقاشٍ بين أبٍ وابنٍ. ختمنا جلستنا بقطعةٍ من الشعيبيات والتي ما إن أكلتها حتى دخلت في ملكوت من اللذة والغبطة. خرجنا بعد ذلك باتجاه الطبيب، فسألت أبي عما سيفعل الطبيب معي، أنا المريض، فأجاب بأنه فقط سيضربني إبرة. لم يكن شيءٌ في الكون يشكّل لي رعباً كما تشكّله إبرة الطبيب. أخبرته بأنني قد شفيت وتوقفت عن السعال، وحتى عن التنفس، كي أبرهن بأني شفيت، ولكن الأوان كان قد فات. لم أسعل بعد إبرة الطبيب الفظيعة في حياتي قط.

ولست خير من تَصَنَّعَ شيئاً ليس فيه. فللمعارضة السورية باعٌ وسبقٌ في ذلك.

فكما إذا سألت عاهرةً عن أهمّ شيءٍ بالنسبة إليها في الحياة فتجيبك بكل وثوقٍ بالقول: «شرفي وسمعتي». فكذلك معارضتنا الموقرة في هيئتها ومجلسها تصنعوا شفاءً، ووضعوا جواباً لسؤالٍ لم يطرحه أحدٌ، وشعاراً لم يدَّعه أحدٌ قبلهم: الوطنية. فهجروا بيوتهم، وسكنوا التلفاز، ليبرهنوا عبر سعالهم الوطني على وطنيتهم. نقلتهم وطنيتهم تلك من عاصمةٍ إلى عاصمةٍ، ومن بازار إلى بازار. فزاروا بفضل وطنيتهم المربحة هذه ضيع أوروبا وبازاراتها، وغيروا بفضلها بدلاتهم القديمة ببدلات جديدة، وعفشهم بعفش جديد، وغيروا حتى بدلات أسنانهم. وبدؤوا يكحّون أو يسعلون حلولاً سياسيةً لا شيء فيها سوى الوطنية. ولم يستطيعوا أن يوحّدوا سوقهم الوطني، لأنهم لا يملكون من المشاريع سوى المناكفة والمزايدة والمضاربة الوطنية. لا تبنى الأوطان إلا بأناسٍ وطنيين ممارسةً لا خطاباً. لهذا، فإن الحق، كل الحق، علينا نحن المنهمكين المستنزَفين بإسقاط نظام القتل. فلقد شغلنا قبح نظام الممانعة عنهم وعن وضع حدٍّ لاستفحال سعالهم الوطني. كان علينا منذ البداية أن نضربهم بلا أدنى تردد حقنةً ثوريةً في العضل.

* * *

المعارضة السورية والخلافات الكدشية

كان لأبي في غابر عهده كديشان: كديشٌ وكديشةٌ. وفي نضاله اليومي لكسب رزقه، كان يعاني من خلافات الكديشين العبثية. فصراعهما الصباحي يستنزف قواه وقواهما في الوقت نفسه فيذهب إلى العمل متعباً. وفي حين أن الفِلاحة تحتاج إلى توافقٍ وإلى صفوفٍ موحَّدةٍ، كان الكديشان يستنفد بعضهما الآخر في خلافاتٍ إيديولوجيةٍ ترفيةٍ لا شأن لأبي بها. فحين يذهب كديشٌ إلى اليسار، يذهب الآخر إلى اليمين، وتنتهي دائماً حفلة الحراثة هذه بعمليات لبطٍ وعضٍّ وعنفصةٍ، تذهب معها جهود أبي في مهبّ الريح. ولو كان لهذين الكديشين فرصة الخروج على محطة «العربية» أو «الجزيرة» لأشبعانا رفساً ولبطاً لفظيين. قيل لأبي إن عهد الحراثة بالكدش وبحكومة الكدشيّة قد ولى وأكل الدهر عليه وشبع؛ ما عليك إلا أن تحرث بحكومة تكنوقراط تعفيك من المماحكات الخنفوشارية الكدشية. فما كان من أبي إلا أن قرّر دخول عالم الحداثة، فاشترى تراكتوراً. لم نسمع بعدها أبي يشكو من ألم المفاصل والرجلين واليدين. أصبح الحرث بعدها بلا ضجيج. وحين سئل أبي بكم يبيع تراكتوره، أجاب بعد التفاته يمنةً ويسرةً: «ببيع مرتي وما ببيعه».

* * *

المعارضة السورية ومجالس الفشك

حكت لي جدتي، رحمها الله، أنه كان قديماً في القرية ما يسمى «مجالس فِشْك»، حيث تجتمع النسوة لتصنع الجلة، وهي فضلات الحيوانات، ويخزنها للشتاء وقوداً للتدفئة. كان تجميع الفشك ومجالسه مناسبة تلتقي فيها نسوة القرية، ليناقشن فيها كل المستجدات: من ولدت، ومن هي حامل في طريقها إلى الولادة، ومن انخطبت، ومن تزوجت، ومن يذاع أنها في حالة غرام وحولها قيل وقال. كان هناك صراعٌ أحياناً على من فشكه أكثر وأفضل. وكانت تحضر خلافات الضرائر، والحماة والكنة. وكان مجلس الفشك نفسه فرصة لقاء وتعارف حيكت فيها الكثير من المؤامرات النسائية على الرجال. كم هو شبيهٌ مجلس الفشك هذا بمجالس المعارضة السورية ومنتدياتها ومؤتمراتها!

*　　*　　*

أعراضنا ونخوة أشقائنا العرب

في إحدى عملياتها المخابراتية التربوية، في زمن مراهقتي، فتشت أمي جيوب بنطالي بحجة غسله. كانت المفاجأة أنها وجدت رسالةً معطّرةً مزينةً برسوم أزهارٍ وقلب حبٍّ. دفعها حدسها الأنثوي، المستند إلى خبرةٍ طويلة الأمد مع خطايا زوجها ومغامراته اللامحسوبة، إلى الإسراع بطلب قراءتها من قبل أخي، كونها أمية لا تعرف القراءة. الرسالة ذهبت من أخٍ إلى أخٍ، ومن أختٍ إلى أختٍ، لتكون فضيحتي كبيرةً، بسبب جهل أمي بالقراءة. وكانت الرسالة من عاشقةٍ ضربها حبٌّ جبليٌّ بلغ منها القلب والرئتين. والحب في جبلنا ليس محرَّماً، وليس مباحاً، إنه ما يُغضّ الطرف عنه وحسب. وعلى الرغم من أن الرسالة مملوءةٌ بالمبالغات التي يتحول فيها العاشق إلى رائد فضاء لا ينزل من سمائه إلى الأرض، قبل أن يزرع كل الكواكب الأخرى كرزاً ورماناً، فإنّ أمي أخذت على محمل الجد تهديد تلك الفتاة، التي تموت حباً بي، من أنها إن لم ترني في أقرب وقتٍ، فستنتحر. وقد سبق لهذه العاشقة نفسها أن انتحرت مئات المرات على أوراقٍ معطرةٍ.

قاد اكتشاف هذه الرسالة إلى عمليات دهمٍ لكتبي ودفاتري وثيابي، ليُكشف عن بلاوٍ غراميةٍ لا تحصى. لم تبدأ أمي معي بالتحقيق، وإنما بدأت بالإدانة: «جنس عاطل»، هكذا بدأت. والجنس العاطل هذا هو كل الرجال. «يخرب بيتك أعطل من أبوك طلعت»، إدانةٌ أخرى قبل بدء المحاكمة، والتي تنتهي بعد ذلك بالتحقيق. «أعراض الناس ليست لعبة»، كانت هذه مقدماتها الأخلاقية، لتقول بعد ذلك: «يلعن أبو شرفك، مفكر المسألة لعبة؟». لم تكتفِ أمي بعمليات الجلد الأخلاقية، بل زجت بزلمة البيت، أبي، في عملية الإصلاح التربوي. لم يكن أبي كثير الكلام. فبعد أن قال لي بأنني رجلٌ عاقلٌ وواعٍ، وأنني لا أحتاج لمن يصلح سلوكي، وأنه كله ثقة بأنني سأصلح ما ارتكبت من أخطاء بمفردي، أضاف جملته الأخيرة: «يا إبني، ابن الأصل ما بيلعب بأعراض الناس».

واليوم نسمع عن نخوة أشقائنا العرب، وخصوصاً الأخوة الخليجيون، الذين دفعتهم نخوتهم الفحولية لأن يعرضوا الزواج على نساءٍ لاجئاتٍ هارباتٍ من بطش نظام الموت، قيل لهن ولأهلهن بأنه إذا متم، فاطمئنوا على الأقل أنهن في عهدة رجالٍ يسترون عليهن. لم يخطر لأهل النخوة هؤلاء أن يسعوا إلى تأمين مكانٍ يستر نساءنا وأهل نسائنا. فكّروا فقط بكرمهم الفحولي القادر على احتضان نساء الأرض كلها في سبيل السترة. أستعير لغة أمي لأقول لهؤلاء: «أعراضنا ليست لعبةً، روحوا العبوا بعيداً عنا، يلعن أبو شرفكن عرصات».

* * *

الثورة السورية ومحنة أمٍّ

كانت أمي تبرر تسليمها وقبولها لمصائب الدهر بالقول: «المكتوب ما منه هروب». وفي تسليمها هذا بقضاء الله وقدره في موت الأقارب كانت تواسي نفسها بالقول: «يا ابني حتى النبي محمد مات، فكلنا رح نموت». الموت جزءٌ من الحياة ولا مهرب منه إذاً. ويعرِّف بعض المشتغلين بالفلسفة حياتنا، نحن البشر، بأنها وجودٌ للموت. ويبدو الموت أحياناً بأنه واحدٌ، يتساوى فيه البشر على اختلافهم. فهو، مهما تعددت أسبابه، نزعٌ للروح عن جسدها. الموت واحدٌ وكلها ميتة، هكذا تواجه ثقافة التسليم قهر الموت لنا. وفي الحقيقة «موتٌ عن موت يختلف». فهناك من يموت على سفرٍ. وهناك من يموت في غربةٍ يحملها معه إلى قبره. وهناك من يموت على انتظارٍ، محاطاً بأهله، وهناك من يموت وحيداً بلا وداعٍ أو وصيةٍ. وليس أصعب في الحياة من أن تموت، سوى أن تحيا موتك. وقلة هم من يحيون موتهم. من هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون موتهم كانت أم أحمد برجس.

وأم أحمد هذه امرأةٌ بسيطةٌ مفرِطةٌ في بساطتها. فرض عليها الدهر، الذي لا مهرب من حكمه، أن تكون استثناءً، ليس في تاريخ بلدة موحسن في دير الزور وحدها، بل في تاريخنا البشري الحافل بالمأساوية. فقد فقدت أولادها الثلاث فداءً لثورةٍ قالوا فيها: «الموت ولا المذلة». وأم أحمد هي الوحيدة من أهلها من رفض النزوح أو الهروب من بيته، لتبقى تواجه عبثية الدهر الذي حمل إليها قَتَلة أولادها الثلاث. لقد عادوا في عملية مداهمةٍ أخرى فلم يجدوا في البيت سوى هذه الأم الثكلى، ليطلبوا منها إبريقاً من الشاي، فقدمته لهم. قال لها ابنها أحمد فيما بعد:» لقد قتلوا أخوتي! كان عليك أن تقدمي لهم سمّاً لا شاياً!». كان ردها محيراً في فهمه: «إنهم أولادٌ جاهلون لما يفعلون، فلا ذنب لهم، من قتل أولادي فلذة كبدي، وسلب روحي مني هو الذي أرسلهم». من الصعب التمييز في لغة الأم بين المجاز والحقيقة. فلسنا نحن الرجال سوى قطعة مسلوخة عن جوف أمٍّ:

إننا حقا فلذة أكبادهن. ولسنا سوى روح أمهاتنا، تماماً كما كان أبناء أم أحمد روحها. لقد قرأت عن المسيح قوله: «من ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر». ولكن لم أسمع أبداً في حياتي أن نبياً أو إلهاً قال: «من قتل أبناءك، قدم له الشاي». وقرأت أقوالاً توصي بأن «أحب لأخيك ما تحب لنفسك»، ولكني لم أقرأ أو أسمع أن أحداً قال: «أحب لعدوك ما تحب لنفسك». لقد جعل القتلة أم أحمد تعيش في كل يوم موتها. تعيشه في زوايا البيت التي نام فيها أبناؤها في طفولتهم. فهنا مشوا، وهنا ناموا، وهنا كبروا على عجلٍ. وهنا ولدوا، وهنا ماتوا قتلاً، دونما وجه حقٍ. وتحتاج القيم النبيلة لمُثلٍ ترفع من سلوكنا، ولرموزٍ مشخّصةٍ، تجسّد تلك المُثل. ولأول مرة أسمع عن تشخيصٍ تجاوز في مثاليته كل المثل. فما زالت أم أحمد، بالرغم من محنة موتها اليومي، رمزاً للسماح ينبض في صدرها قلب أمٍّ.

* * *

الثورة والاحتجاج لعناً

لم يكن هناك في قريتي، أيام طفولتي، من هو أسرع مني ركضاً. ساعدتني هذه الميزة على أن أكون أفضل من لعب كرة القدم من أبناء جيلي. كنت أباهي بالقول مستفزاً خصومي: «رح لاعبكم اليوم برجل واحدة». كانت انتصاراتي تدفع بصديقي الخصم اللدود لأن يوسعني ضرباً ودعكاً ورفساً في عمليةٍ انتقاميةٍ ثأريةٍ لهزيمته. وكلما زاد دعسه لي زاد تهديدي له بالقتل وبالفرم وبالمسح عن الوجود. لم يكن يقابل تهديدي إلا بالضحك الساخر، لإدراكه التام أنني عاجز عن قتل نملةٍ، فكيف سيكون باستطاعتي أن أجعل من لحمه كبةً حلبيةً كما كنت أهدده. وفي مرةٍ من المرات أنهى طقسه الثأري بضربي ضربةً لئيمةً على الخصيتين، فغابت الدنيا كلها، ولم يبق منها ومني سوى الألم. فجمعت ما تبقى لدي من قوى الاحتجاج وما بقي من أوكسجين في رئتي، والذي لم يكن كافياً إلا للفظ كلمتين، خرجتا دفعةً واحدةً، وهما: «يلعن أمك». وعدت للبيت، كعادتي في نهاية كل مباراةٍ، بثيابٍ وسخةٍ ممزقةٍ، وكأني خارجٌ من منجم فحمٍ، وبجروحٍ تتوزع على جسدي، وكأنني عائدٌ للتو من حرب حزيران.

لم يرق لأمي مسبتي لأمّ صديقي، وهي المتطرفة والعنيفة في نبذها للعنف، حتى ولو كان لفظياً. بدأت عملية جلدها الأخلاقي لي، مستدعية قيمها الريفية الصارمة، جاعلةً منها قيماً كونيةً تنص على منع المسبة تحت أي ظرفٍ كان، وفي أي زمانٍ كان. جحظت عيناي فجأةً، وامتلأت أذناي طنيناً، وشعرت بخطر يتهدد وجودي الأخلاقي وكياني المعنوي. وبدت لي محاضرات أمي كأنها مجزرةٌ وعملية إبادةٍ جماعيةٍ لقيمي الأخلاقية الاحتجاجية. رفضي الغريزي لعملية الإخصاء المعنوي تلك جعلني بدايةً ألتفت إلى الباب لأتأكد من أنه مفتوحٌ قبل أن أتورّط وأعبّر عن رأيي فيما قالته أمي. أخذت مسافة أمانٍ تجعل من رأسي خارج متناول يديها، كي لا تنتف لي شعري، وتشمط لي أذني. وضعت يدي في خصري في وضعية المتحدي، وكأني سألقي خطاب فتح الأندلس أو تحرير فلسطين. وقبل أن أشرّع

الخيط وأطلق قدمي للريح هرباً، صرخت قائلاً: «إذا ضربك أنت فلا تسبيه، أما إذا ضربني أنا في المرة القادمة، فسألعن أمه على أبيه».

* * *

ثورة حمار يوسف العيداوي

كان لجدي يوسف اليوسف، الملقب بالعيداوي، حمارٌ يكسب قوت يومه من عرق جبينه. لم يسبق لجدي أن أخَّر عنه أجره اليومي من تبنٍ وشعيرٍ. وعاش هذا الحمار كريماً راضياً بحياةٍ متواضعةٍ تسودها المودة والحميمية الخالصة مع جدي الذي وهبه اسماً ومسكناً وعملاً.

دامت عيشة الأمن والأمان هذه إلى أن اشترى جارنا حمارة (أنثى الحمار)، سلبت قلب حمار جدي، وملك حبها كيانه وجوارحه. فللحمير قلبٌ وعواطف تعشق بها الجَمال والفتنة، مثلنا نحن البشر. والحب في جبل الزاوية، حتى للحمير، لا يكون نصف جنون، فإما جنون كامل أو لا يكون. أصبح حمار جدي الولهان يقضي جلّ يومه عند عشيقته، فلا يدعها تأكل أو تشرب، مما زاد في نحولها لكون الحب لا يكفي وحده قوتاً. أزعج مهرجانه الغرامي اليومي جيران جدي، فاشتكوا منه وشكوه. فما كان من جدي إلا أن وضعه رهن الإقامة الجبرية، مربوطاً في وسط ساحة البيت. توقف الحمار عن الأكل والشرب، معلناً احتجاجه السلمي، وهذا ما يسميه البشر عادةً بالإضراب. تلا ذلك بتصعيد هتافي حيث ملأ الدنيا نهيقاً. أزعج نهيقه الجيران والخلان والقريب والبعيد، فنصح البعض جدي بأن يحبسه في الإسطبل، حبساً انفرادياً، لليلةٍ واحدةٍ، قد تنسيه حبه، وهذا ما فعل. فما كان من الحمار إلا أن ضاعف نهيقه دونما انقطاع. وقبل حلول الصباح سكت فجأةً عن النهيق. أسرع جدي ليطمئن عليه، فوجده جثةً هامدةً لا نبض فيها ولا نفس. قيل إنه انتحر، وقيل إن الحب قتله، فالحب قاتل أكثر من السرطان، وقيل إن الظلم تجاوز عتبة التحمل فانفجر. ولو كان للحمير قدرة على الكتابة لكتب حمار جدي وصيةً، كلها لعناتٌ على الظلم والظالمين.

أصبح هذا الحمار أسطورة ورمزاً احتجاجياً تضرب به الأمثال. وأصبح كل عاشق يطلب بالحب وصلاً يهدد أهله قائلاً: «اطلبوا يد حبيبتي من أهلها بالحلال،

وإلا سيحصل لي ما حصل لجحش يوسف العيدواي». وكل من تجاوز اضطهاد أهله له عتبة التحمل يهدد قائلاً: «إن لم تتوقفوا سأفعل مثلما فعل جحش يوسف العيداوي». لا تقبل الحمير الظلم إذا تجاوز عتبة تحملها في صدها عن حبها أو في الاعتداء على أطفالها. فتوقفوا يا سادتي، احتراماً لرمزية حمار جدي الاحتجاجية، عن تشبيه كل من ناصر نظام الاضطهاد بالحمير.

* * *

طهوري وثورة طفولتي

كانت أول ثورةٍ لي ما بين الرابعة والخامسة من عمري. قدِم مطهر الأطفال إلى بيتنا في مدينة الرقة، فأخفاني أخي يوسف الذي يكبرني بست سنوات، خلف باب البيت. كرر أخي تنبيهه لي بعدم خروجي مهما كانت الأسباب. لم أجب أخي بأي كلمة. فقط هززت رأسي بالموافقة. لعبة التخفي كانت لعبتي المفضلة. لم أكن أعتقد أن المسألة جديةٌ. وحدهم الكبار من تبلغ بهم السذاجة حدّ الجدّ. لم أكن أميز كثيراً بين الجدّ واللعب. صرخت أمي طالبةً مني الحضور. لم أرد على دعوات أمي للقدوم إليها. اكتفيت فقط بالنظر إلى أخي، كي أطمئنه بأنه يمكنه أن يعتمد عليّ. التحق أبي بأمي طالباً حضوري. لم أستجب أيضاً لدعوات أبي. بقيت بجوار أخي الممسك بيدي. فجأة صرخت أمي قائلةً: «لمين هالموزة؟ هي موزة أحمد، لا تاكلوها، هي موزته». فخرجت أجري كالغزال باتجاه أمي. «أين الموزة؟ هي موزتي»، هكذا رحت أصرخ على سذاجتي. كنت أموت حباً بالموز، وهذه كانت نقطة ضعفي. أعطوني موزةً، ومددوني على الأرض قائلين: «طلع على الحمامة في السقف». وفي لمح البصر أخرج المطهّر مقصه، وقطع ما جاء لقطعه. صرخت صرخةً مدويةً وددت فيها أن تصل من الرقة إلى جبل الزاوية. أعلنتها ثورةً. بدأت ثورتي الاحتجاجية بإعلان الإضراب عن الطعام. تطور الاحتجاج فاستعملت كل السبل السلمية منها والعنفية. أمطرت أهلي بكل الحجارة التي وجدتها. وقمت بالتشهير بكل السبل التي أملكها. لم تكن عملية التشهير تحتاج لجهدٍ مني. فلم أكن أرتدي بنطالاً وكل ما كان علي فعله هو أن أرفع جلابيتي قائلاً لكل طفلةٍ أو طفلٍ ألقاه: «شايف كيف قصوه؟». لم يكن ثمة قوانين أخلاقية تضبط سلوكي، حتى سنّت أمي أولها قائلةً: «عيب ما بصير هيك». لم يطل صراعنا وأزمتنا، إذ سرعان ما جلسنا أنا وأبي إلى طاولة الحوار، وجهاً لوجهٍ، وبدون أي وسيطٍ. لم تلغِ كلمة (يا ابني)، التي بدأ بها أبي حديثه، الندية بيننا. بدأ أبي الحوار ببوحه لي بأنه هو أيضاً خبِر عملية الطهور هذه. انهمرت عليه أسئلتي عن «متى، وكيف، ومن فعل هذا؟» و»لماذا؟». قدّم لي

تبريراً لعملية الطهور هذه مفاده: إنها سنة جدنا ابراهيم الخليل وعلينا اتباعها. لم أكن أعلم إلى حينها أنّ لي جدّاً ثالثاً. ضحك أبي من ردي بدون أي تعليقٍ، حين قلت: «مليح اللي ما قطع لسانه!».

وختام حوارنا كان أن لعب أبي بشعري، ودغدغني في كل مكان، فكان ضحكنا مبشراً بصلحنا وانتهاء الأزمة التي عصفت بعلاقتنا. لقد تعلّم أبي أنه يجب أن يأخذ رأيي في الأمور التي تهمني، وكان غالباً ما يفعل ذلك بعد صلحنا المعهود. وغيّرت أمي كذلك سلوكها، من نهج شد الشعر وفرك الأذن، إلى نهج الإصغاء قدر الإمكان، فأصبحت تجيب على أسئلتي الوجودية، ومنها، على سبيل المثال، سؤالي عن كيف ولدت، حيث قدمت لي إجابةً معقولةً أرضت فضولي حينها، ومفادها أنهم وجدوني في بطيخةٍ اشتروها. فسرت لي إجابتها حبي الكبير للبطيخ وتعلّقي الشديد به. وأصبحت أمي تغني لي في كل ليلة أغنية لا تعرف غيرها: «يالله تنام يالله تنام لادبحلك طير الحمام». لم تذبح طبعاً لا طير حمام ولا طير بط. كانت فقط تكذب علي كي أنام. كنت جدّ محظوظ بوالدَي، فقد تحملا احتجاجاتي المتكررة بعد ذلك دونما ممانعةٍ أو مقاومةٍ، إلى أن بلغا عتبة الشيخوخة، فأصبح الاحتجاج معكوساً.

* * *

الحياة قولٌ والصمت موتٌ

لم أعرف جدي يوسف اليوسف الملقب بالعيداوي إلا شيخاً عجوزاً، غطى رأسه شعرٌ أبيض، وخلا فمه من الأسنان. كان جدي يحب العطر لدرجة أنه أوصى بأن يسكب منه على قبره. وكان حبه للجمال يجعله يمضي وقتاً بترتيب قمبازه المطرّز وبتمشيط لحيته. كان جدي كثير الكلام لا يسكت إلا في حالة مرضٍ أو تعبٍ. كان يقول: ليست حياتنا سوى قول وكلام. وكان إذا ما مر صديق له في القرية لا يتركه حتى يشرب عنده كأساً من الشاي ينسيه من خلاله أهله، فيقيم عنده شهراً أو شهرين. «الحياة بلا صديق مثل أكل الهوا»، هكذا كان يقول. إذا كان لديك ابنٌ تفتخر به فستفتخر به أمام صديقٍ، وإذا عايشت فرحاً فستعيشه مع صديقٍ، وإذا أصابتك مصيبةٌ فيخففها حضور ومساندة صديقٍ. الحياة بلا صديقٍ هي حياةٌ بلا معنى. كان جدي كلما مات عجوزٌ من سنه يبكي حتى يكاد يفقد وعيه. في هذا كان يقول: «كلهم راحوا يا ابني لم يبق أحدٌ».

«ما عاد يعمل عندي شيء غير اللسان»، هكذا كان يبرر كثرة كلامه. وهو رجل جيد الحديث وحسن المعشر؛ فمع النساء هو شاعرٌ، ومع الأطفال هو حكواتيٌ لا توجد قصة إلا ويعرفها، ومع الرجال حكيمٌ اكتسب الحكمة من تجارب حياته. «الكلام هو كل ما لدي»، هكذا كان يوجز حياته التي عاشها سرداً. من حكمه: «البشاشة نصف الكرم». ولرجل مثل جدي، فقيرٍ لحد الطفر، كانت البشاشة هي الكرم كله، بدون زيادةٍ أو نقصانٍ. كان في كل عيدٍ يسقط مريضاً مستنفداً كرمه الكلامي الذي لا ينضب. في السياسة كان قليل الكلام لا يقول سوى جملةٍ واحدةٍ: «يلعن أبو هالدولة». فبعدما ابتلع العسكر الدولة، لم يعد هناك الكثير ليقال. لم يمت جدي إلا وقد ملأ بيته الطيني بالأحاديث عن ذكريات نصفها، وربما أكثر، مختلقٌ، حيث لا شاهد على كلام شيخ مثله، بعدما مات كل من عاصره. كان جدي في سيرته يمثّل جبل الزاوية في قيله وقاله، في ماضيه وحاضره. فلم يكن ثمة معنى لحياتنا إلى أن بدأنا نقولها سرداً، رفضاً واحتجاجاً في

ثورةٍ تؤكّد، في كل شهيدٍ ومعه، كلام جدي القائل «ليست الحياة سوى كلام، وليس الصمت سوى الموت». «لا معنى للحياة إلا بصديق»، جملة خبرنا عمق فحواها مع كل شهيد فقدناه في ساحاتٍ كان يصرخ فيها: «سورية بدها حرية». معك حق يا جدي ليست الحياة سوى قولٍ وصديقٍ، وإلا كانت مثل «أكل الهوا».

* * *

عيد في المقابر الجماعية

كانت جدتي عليا الشيخ يوسف ترتدي ثيابها على عجلٍ، في كل عيدٍ، وتضع حذاءها في زنارها، وتذهب حافيةً إلى جبَّانة (مقبرة) القرية. كانت تقف على قبر عمتي ريمة التي ماتت في عز صباها. كانت ريمة بحسب رواية جدتي أكثر نساء جبل الزاوية فهماً ورقةً وكرماً، وكانت أجمل نساء القرية والجبل، بل أجمل نساء الدنيا: أجمل حتى من هيلين طروادة. تبدأ معايدتها عادةً بإلقاء السلام، تليه بسرد أخبار القرية في تفاصيلها: من مات، ومن تزوج، ومن ولد له أولادٌ جددٌ، وأخبار جدي وعاداته الصارمة، والبقرة التي بيعت، والكديش الذي مات مرضاً، وأخبار القريب والبعيد. تراها تارةً تتحدث بصوتٍ عالٍ مع حركات يديها، جلوساً ثم قياماً. تبكي تارةً، وتضحك تارةً. ومن حينٍ لآخر، تلامس تربة القبر، وكأنها تداعب شعر طفلٍ نائمٍ. بقيت جدتي على عادتها هذه في كل عيد إلى آخر يومٍ في حياتها، لتدفن حين فارقتها روحها بجوار ابنتها ريمة.

في حاضرنا المأساوي وفي زمن المانعة، أصبح لموتانا مقابر جماعية تضم أحياناً عائلاتٍ بكاملها وجيراناً وأصحاباً ماتوا على زعل. ترى بعد محنة مجازرنا الجماعية، كم عليا ستجتمع، في كل عيدٍ، على قبرٍ واحدٍ؟

* * *

نزوحٌ وشتاءٌ بلا صوبا

كان لتركيب الصوبا (المدفأة) في كل شتاءٍ طقسٌ خاصٌّ. أبي هو خير من ركَّب صوبا. يبدأ تركيب الصوبا دائماً بموال عتابا، تماماً كما تدخل العروس بيت زوجها. «سامع هديرها؟ ولا صوت كروان»، هكذا يبدأ أبي احتفاله (الحفاوي) بصوبتنا الموقرة التي غيّر أبي كل شيءٍ فيها ولم يغيّرها. عايشتْ هذه الصوبا الأصيلة، كما يصفها أبي، كل طفولتي. «أصيلة هالصوبا، متل أمك، بتقيم مليح»، هكذا يوجز أبي غزله المزدوج بأمي وبالصوبا، في الوقت نفسه. كأجة طالعة وكأجة نازلة وما في أطيب من خبز التنور المسخن على الصوبا، خصوصاً إذا كان مدهوناً بزيتٍ أصليٍّ، ليس كزيت تجار حلب المغشوش. أبي يحب كل شيءٍ أصليٍّ. إبريق شايٍ يتلوه إبريق شاي آخر، والصوبا محشوة بالبطاطا، والكل حولها مشغول ما بين أكل الزبيب وقصص أمي التربوية الفاشلة التي تنتهي دائما بجملة: «وهيك صار فيه يا ابني لأنه كان يعذب أمه». نحاصر الصوبا كل مساءٍ على قصصٍ وعلى ضحكات طفلٍ مع أغنية «يا باح يا باح»، وعلى قطٍّ يمسح وجهه مبشراً بقدوم ضيفٍ جديدٍ. هكذا كان شتاؤنا في جبل الزاوية، حيث يسمى البرد زمهريراً. فكيف ستكون طقوس أهلي الشتوية القادمة في فصول نزوحهم اللامنتهي ما بين جحيمٍ قصفٍ وزمهريرٍ؟

* * *

في حضرة غياب الأم

لم تكن وفاة جدتي أم أبي مفاجأةً. فقد كانت عجوزاً هدّها المرض. فقدت بصرها وغارت عيناها، وأصبحت عاجزةً عن الحركة في أيامها الأخيرة. كان الكل في انتظار موتها وخلاصها من ألم الانتظار وقسوة الاحتضار. لم يسبق لي أن رأيت دموع أبي. سبق لي أن رأيته في حالة غضبٍ وانفعالٍ. فاجأنا رب البيت، والدي، والذي لم نر له دمعةً في حياتنا المغموسة بالشقاء، على الرغم من كل المحن التي عشناها، بانحنائه على ركبتيه ليضم والدته التي فارقتها روحها للتو، وليصرخ أمامنا وأمام أحفاده الحاضرين قائلاً لأمه التي أصبح نصفها جثةً هامدةً، ونصفها الآخر في عالم الغيب والشهادة: «أنا صرت يتيم يا أمي!». لا يملك الإنسان في حياته سوى أم واحدة. ربما هذا ما يعطي لفقدانها طعم الفاجعة عجوزاً كانت أم صبيةً.

في فقداننا لأمهاتنا اليوم، ضحية قصفٍ لا يترك من الأشلاء ما يمكن أن نضمه، يقهر هول الفاجعة فينا صرخة اليتم التي صرخها والدي في حضرة وداعه الأخير لأمه: بيته الأول ما قبل الولادة والحنان المجاني الذي نسميه بالأمومة. الرحمة لكل الأمهات.

* * *

ذكرى من بلاد الأرز

أغواني ابن خالي بالسفر إلى لبنان، فسافرنا. قال لي نملأ جيوبنا نقوداً ثم نعود. كان ذلك في سنة ١٩٩٢. وصلنا قبل غروب الشمس. لم يكن البيت قصراً، كما وعدني ابن خالي، بل بقايا غرفةٍ على وشك السقوط، وعلى سطحها كان جيشٌ من الأكراد السوريين، كسربٍ من الطيور في استراحة مهاجر. لم يحملوا الكثير معهم من سورية. حملوا مؤونتهم وصور أطفالهم وبطاقاتهم الشخصية، ليثبتوا أنهم يتمتعون حتى الثمالة بالجنسية العربية السورية. مكثنا عندهم ثلاثة أيام، سعينا خلالها في أصقاع الأرض بحثاً عن عملٍ. أتتنا في اليوم الثالث سيارةٌ، لتقودنا إلى مكانٍ في أقصى الجنوب. وصلنا في آخر الليل، لندخل بنايةً قيد الإعمار. بصعوبة استطعنا أن نميز الأشياء في ظلمة الليل الداكنة. «رائحة بشر»، هكذا قال ابن خالي. ورائحة البشر هذه كانت روائح البول وأشياء اخرى. نمنا تعباً، بعد صراعٍ مريرٍ مع البعوض. وفي الصباح حملونا في ناقلاتٍ إلى مكان العمل، لتبدأ مسيرة تحولي القسرية من طفلٍ إلى رجلٍ. أعطوني مهدَّة لكسر الصخور. أخذت شهيقاً يتلوه شهيقٌ، في تحضيري لنفسي لحمل مهدةٍ أثقل مني. قال لي المشرف علينا: «شو بدك تبيض؟» كان الناس أكثر جديةً مما تصورت، وكان العمل أكثر صعوبةً مما تخيلت. تحجّجت بقضاء الحاجة عشرات المرات، ومع هذا كان اليوم أطول من كل أبديات الشقاء التي عشتها سابقاً. وحين عدنا إلى البيت، تقدّم أبو قاسم، صاحب القصر الذي نعمل لأجله، وقال لمن يشرف علينا: «أمي بحاجة لشغّيل لهدم بيتنا القديم. ابعث لها واحداً من القبضايات». استغل معلم الشغل الفرصة ليتخلص مني قائلاً: «رح نبعتلها أحمد». في اليوم التالي ذهبت لأهدّ - أول مرة في حياتي- بيتاً. أخذت أدور حوله وكأنني في حجٍ أو في عمرةٍ، متسائلاً: كيف سأهدّ هذا الهرم؟ خرجت أم محمد وابنها الأصغر، ليشرحا لي طبيعة العمل. قال ابنها: «أنا سأساعدك». وقالت الحاجة أم محمد: «أنت ما أفطرت بعد؟ الشغل ما رح يهرب، خلينا ناكل بالأول». وجدتها فرصة للتهرب من العمل. قلت لنفسي: »أملأ معدتي

على الأقل قبل أن يفصلوني». جلبت الحجة المناقيش والفطائر، وجلسنا نأكل معاً. سألتني: «لغتك العربية تقيلة أنت من وين؟». قلت لها بأنني من الرقة وأتكلم الرقاوية. طلبت مني أن أقول بعض الجمل الرقاوية، فتلفظت جملاً انكليزيةً لا معنى لها. واعتبرت نفسي محظوظاً لأنها لم تسمع أغاني البيتلز، ولم تشاهد أفلام الكاوبوي في حياتها، وإلا لكانت اكتشفت كذبي. دفعها فضولها لتسأل أكثر وأكثر، فاستمريت في الكذب. جعلت نفسي يتيماً بلا أمٍّ، ومعيلاً وحيداً لإخوتي، بعد أن ضاعفت من عددهم. أخذت هي من حين لآخر تحدثني عن حياتها وأولادها ومحن حملها وولادتها وعن أشياء كثيرةٍ أخرى. كانت تنهي جملها بالقول «ومتل ما بتعرف»، وكأنني علامة بالحبل وأنا الذي لم يكن يعلم إلى حينها أن للنساء دورةً شهريةً. أنقذني فضول أم محمد وطيبتها من مشقة العمل عبر استراحاتٍ كانت أطول من العمل نفسه. قالت لي في حديثها عن حروب لبنان الأهلية: «ما في أسوأ من اللبنانيين على بعضهم، يا ابني قتلوا بعض على الهوية!». قلت لها بأنه لدينا من هو أسوأ، من يقتل دونما أي سؤالٍ عن هويةٍ، فقد يقتل، إذا احتاج، مدناً بكاملها، وليس أفراداً فحسب. وكان في ذهني حماة ومجزرتها. كانت كلما مرت جارة من جاراتها تقول: «الشاب بيحكي رقاوي». كان العمل يحتاج يومين فقط، فأمضيت فيه أسبوعين من المناقيش والفطائر والقصص المختلقة، بين من يتهرب من العمل وعجوز تتهرب من وحدتها. عندما عدت إلى البيت في آخر يومٍ من مهمة الهدم قال لي المعلم: «كل هاد بده هدم بيت؟» فرددت بوثوقية القبضاي: «ليش هاد بيت هاد؟ هاد حي بكامله!».

* * *

قماطٌ وغمضة عينٍ وحلمٌ لم يكتمل

ملاصقة للتواليت الخارجي والذي لم نكن نملك سواه، بنت أمي تنوراً تجتمع عليه نسوة الحارة لتناقش، بحجته، كل المؤامرات النسائية. وفي ذات مرةٍ، بينما كنت أقضي حاجتي جالساً جلوس القرفصاء، استرقت السمع لحديث دار بين أمي وزوجة خالي، سميرة، التي ولدت حديثاً مولوداً جديداً أسمته علاء، على اسم أخيه الذي توفي بعد فترةٍ وجيزةٍ من ولادته. قالت سميرة: «اشتريت قماطين جدد لألف فيهن علاء». ومع تنهيدةٍ يصعب ترجمة معناها، أضافت: «ايمتى رح يكبر علاء وأشوفه شب متل كل الشباب؟». أيقظ هذا السؤال كل الملكات البلاغية لدى أمي التي أجابت: «الولاد بيكبروا بسرعة. خدي مثلاً هالحردون أحمد. أمس كان طفل صغير يعملها تحته خمسين مرة في اليوم. حيكت له بإيدي قماط مطرز لفيته فيه وكان الملعون في كل مرة أنضفه وأريحنه وأعطره وأجهزه للنوم، يعملها تحته، فأضطر أفكه وأرجع ألفه بالشرشف لأنه القماط ما بيلبق له. كانت فردات طبونته متل كاجة محمرة، لولا البودرة لاحترقت حرق. كبر بعدها وما خلا بيضة إلا وسرقها وباعها حتى بيضات القَفة!. وما سلمت منه حتى مونة الحنطة اللي باع نصها ليشتري فطبول ولباس رياضة جديد. ما كان يحب البالة مع أنها أرخص ومجربة. يا خيتي أشو بدي قلك لقلك؟ الولاد تعب بتعب. بكرا بيكبر متل هالحردون أبو قواميس وما بيعجبه العجب.

بتقوليله لأخطبلك حياة، رقصتها بتاخد العقل، بقلك قصيرة. بخطبلك سمر، عيونها بتجنن، بقلك بتحكي كتير. لا تخافي بكرا بيكبر من دون ما تحسي عليه. غمضي عين وفتحي عين وما بتشوفيه إلا زلمي بطولك ومد إيديكي». علقت سميرة على شطحات أمي الصوفية بالقول: «هو بس يكبر، وخليه يسرق البيضات والقفة معهن».

كبر علاء وباعت أمه لأجله ما فوقها وما تحتها. وفي سن الثامنة عشر سيق علاء لخدمة الوطن، ضمن جيشٍ قيل إنه سيحرر فلسطين. ومع بداية الثورة السورية

في درعا رفض علاء أن يمانع في أهله، فهرب مع الهاربين قاصداً أمه، فبلغته رصاصةٌ لم تخطئه، استقرت في أحشائه. لم تنجح محاولات صحبه أن يكون آخر ما ينطق به علاء هو الشهادتين، فلم يستطع أن يلفظ مع أنفاسه الأخيرة سوى كلمة يتيمة هي: «يا أمي!». رأيته في فيديو على الأنترنيت ملفوفاً بكفنٍ شبيه بالقماط، يحضنه خالي ويعمده بقبلاتٍ يوزعها على جسده كيفما اتفق. لم يُلقِ خالي في وداعه خطبةً سياسيةً أو وطنيةً، فقط أوصاه، قبل أن يدفنه بجوار أخيه، بالقول: «يا ابني دير بالك على أخوك، هو جنبك». هكذا كانت خاتمة حياة علاء الدين السليم، ما بين قماط طفولته وكفن شهادته، ما بين رحم أمه وحفرة قبره. لم تكن حياته سوى غمضة عينٍ وحلم أمٍّ انقضى على عجلٍ.

* * *

الحب في زمن الطوارئ

أتت بعطرها الفرنسي وبثيابها الإيطالية، وأتيت أنا بثيابٍ من صناعةٍ وطنيةٍ. ابتعدنا عن عيون العسس وهم كثر في جامعة تشرين في اللاذقية. اخترت زاويةً بعيدةً عن البلوغ، وقلت لنفسي: «هنا حتى الجن الأزرق لن يجدنا». وما إن بدأت أعمدها شعراً غزلياً، حتى نزل علينا كالقدر المستعجل عنصر أمنٍ يصرخ، في حالةٍ هستيريةٍ: «هويتك، هات هويتك». فقلت كمن يحاول نزع تهمة خيانة الوطن ووهن عزيمة الأمة: «إننا مجرد أصدقاءٍ نناقش أمور الدراسة». أصرّ هو على طلب الهوية، فاضطررت إلى الاعتراف بأنها عندهم، في الفرع، إذ سبق لي أن تعديت حدود الوطنية بخلوةٍ غراميةٍ، لا يسمح بها قانون الطوارئ. قال هو: «رح ناخدك إنت وإياها لكان». فتدخلت هي بالتعريف عن نفسها كابنة ضابطٍ مشهورٍ ومسؤولٍ مهمٍ. وأخذت تهدده، وهو يتذلل ويتوسل. قالت له بصيغةٍ آمرةٍ مهينةٍ: «روح جبله هويته». فذهب راكضاً، وكأنه هاربٌ من جبهة الجولان. وبلمح البصر جلب الهوية وأعطاها إياها. قلّبت هي الهوية وبتنهيدة يأس قالت: «كأنه هالهوية زارت أكثر من فرع؟». لم أجب بأي كلمةٍ. فسألتني كمن يستجوب متهماً: «مع مين كنت حتى أخذوا منك الهوية؟». قلت ورأسي للأرض: «مع مجرد صديقة نناقش أمور الدراسة». ختمت جلستنا، المشحونة بالانفعال والغضب، بالقول: «لكان خلي مجرد صديقتك ترجعلك الهوية مني». يا إلهي، كم كنت أكره، في زمن الطوارئ وحب الطوارئ، هويتي!

* * *

تجربة صمتٍ

كنت وابن خالي عبد الكريم السليم روحاً في جسدين. فقد عشنا طفولةً تشاركنا فيها كل الحماقات، من سرقة البيض إلى تعطيل أقفال أبواب المدرسة. وفي هذه الأخيرة نلنا وسام الشقاوة بامتيازٍ. لم ننم يوماً على زعلٍ. وفي يومٍ من أيام خدمتنا الإلزامية في ثكنات ميليشيا طلائع البعث، والتي كانت تسمى مدرسةً، أتى المدير صارخاً: «الأستاذ غادر المدرسة بسبب المرض». تلا ذلك التصريح المبهج فرمانٌ كان غير متوقعٍ؛ قال المدير بصيغةٍ آمرةٍ ناهيةٍ: «من هلق للحظة الانصراف ما بدي أسمع همسة أو نفس». لم يكن لي تجربةٌ سابقةٌ مع الصمت. أكثر مدةٍ صَمت عشتها كانت لدقيقةٍ قيل إنها على روح الشهداء. الصمت لحصةٍ دراسيةٍ كاملةٍ هو شيءٌ أصعب من أن أتحمّله، حتى لو كان على روح أمي. أخذت أبلع أنفاسي كضفدعٍ يتهيأ لابتلاع ذبابةٍ. امتلأت رئتي رغبةً بالصراخ. وما إن رنّ جرس الانصراف، وأصبحنا في الممر باتجاه باب الخروج، حتى أطلقت صرخةً مدويةً، كطائرةٍ نفّاثةٍ فتحت جدار الصوت. كنت بعيداً جداً عن متناول يد المدير الذي التفت فوجد ابن خالي بجانبه، فصفعه على خده بضربةٍ ملؤها الحقد والضغينة. تلقيت تلك الصفعة، وكأن قنبلةً نوويةً قد انفجرت في صدري. أعلن عبد الكريم حالة زعلٍ أفقدتني أعصابي. لم أكن أطيق تحمل رفضه للكلام معي. حاولت إغواءه بمجلةٍ رياضيةٍ، فتجاهلني.

قدمت اعتذاراً تلو الاعتذار، بدون أي فائدةٍ. فخطرت ببالي فكرةٌ جهنميةٌ مفادها: الانتقام. قلت له سننتقم من المدير. بدت على وجهه ملامح الاهتمام، فأضفت:» منحطله الحبر على الكرسي». لم تعجبه الفكرة، وبقي على صمته. شعرت أن الأمر يحتاج إلى شيء أكثر إثارةً، فقلت: «منكتبله مسبات على الحيطان». لم يكن في ضيعتي من صحيفةٍ للنشر سوى الحيطان. لم تشده الفكرة، فأضفت: «منثقبله دولاب ماتوره». فرد بحماسةٍ واندفاعٍ: «الاثنين، الدولابين معاً». وهذا ما فعلناه. وبعد محنة الصمت هذه، عشنا مسيرة نضالنا الطفولي

بدون أي زعلٍ، حتى افترقنا بعد كبر، فقبلنا على مضضٍ فطام صداقتنا الغني بالمشاغبة والمشاكسة.

* * *

ثقافة كره النظر والتحديق والبحلقة بالعينين

بعد ان أنهينا عملية قلع المسامير ودقّها في أقفال أبواب المدرسة، سألني ابن خالي: «هل أنت متأكد من أنهم لن يستطيعوا فتحها؟». فأجبت لأطمئنه بالقول إن مدير المدرسة لا يعرف كيف يفتح فمه، فكيف تريده أن يفتح الأقفال؟ كانت السنة الخامسة ابتدائي من أصعب السنوات وأطولها، وما من حيلةٍ لنيل قسطٍ من العطلة سوى القيام بعمليةٍ تخريبيةٍ. انتهت العملية بنجاحٍ، فقررنا الهرب. وما إن امتطينا السور، حتى تفاجأنا بوجود كلبٍ نائمٍ خلف السور. قال ابن خالي: «فقط لا تنظر في عينيه، وكل شيءٍ سيكون على ما يرام». من عيوبي، أنني لا أقاوم إغواء عمل ما ينهاني عنه الآخرون. قرأت على عجل ما أحفظه من سورة الكرسي: ربعها أو أكثر بقليل، ثم قفزت. استفاق الكلب على كسله ونظر إلي نظرة لامبالاةٍ. قلت لنفسي: لا تنظر إلى عينيه، فنظرت. تأمّلني قليلاً، فأثارت نظراتي حنقه، فنهض ليخيفني، فاستمررت بالتحديق في عينيه. بدأ بالنباح، وكأنه يهددني، كي أنزل عيني عنه، فلم أفعل؛ فنفذ تهديده بالهجوم عليّ. لم يكن لي من موهبةٍ في صغري، سوى تظاهري بالغباء، وسرعتي بالجري، فجريت كغزالٍ أطلق رجليه للرياح. ولست الوحيد من كان ضحية عبثيته التي جعلته يفعل ما لا ينبغي فعله. ولست الوحيد أيضاً من كان ضحية جسارة التحديق والبحلقة. فقد سمعت مرةً نصائح أم محمد توجهها لابنتها التي ضربها زوجها فحرنت عند أهلها. مجهزةً ابنتها لمحنة الرجوع إلى بعلها، كما جرت العادة بعد كل حرنةٍ، وبعد كل عملية ضربٍ، قالت أم محمد: «يا ابنتي، لا ترفعي صوتك بحضوره، ولا تضعي عينيك في عينيه، وأظهري له خضوعك كي تأمني شره. هم الرجال يا ابنتي هكذا: إيدهم والضرب». لم يسبق لي أن سمعت فهماً للرجال بهذا العمق. ولو سمع الإغريق طرح أم محمد، لغيروا فهمهم وتعريفهم للإنسان (الرجل) من حيوانٍ عاقلٍ إلى حيوانٍ يضرب زوجته. ولتحولت الفلسفة من لغوٍ كلاميٍ إلى علمٍ دقيقٍ.

ولي شخصياً تجربةٌ أخرى مع التحديق، وقد حصلت لي أثناء رجوعي من رحلةٍ

سندباديةٍ إلى دولةٍ اسمها لبنان. فبعد عبورنا الأمن من حاجز الجمارك، فاجأنا، في منتصف الطريق حاجزٌ أمنيٌ آخر. طلب الضابط المسؤول من أحد الاشخاص أن يرفع يديه بالهواء ليفتشه فرفع كل راكبي الباص، دفعةً واحدةً، أيديهم بالهواء، وكأنهم يتهيؤون للطيران. هناك من كاد أن ينسلخ إبطه من شدة رفعه ليديه. حين أتى ليفتشني رحت أحدق في عينيه دونما سببٍ محدّدٍ، ربما لأنه كان علي ألا افعل ذلك، ففعلت. ثار غضبه فجأةً، وأخذ يصرخ قائلاً: «نزل عيونك ولا عكروت». لم أفعل ما طلب مني، فدفعني بيدٍ واحدةٍ، فسقطت أرضاً محدقاً وممحلقاً في عينيه. أخذ كل ما قد اشتريت من كؤوسٍ للشاي ومن فناجين للقهوة وألقاها أرضاً، فتكسرت ليطلق هو ضحكةً هستيريةً أشبه بِعرَضٍ من أعراض البلاهة. استمررت بالتحديق، فأهملني لسببٍ لا أعلمه. حين صعدنا إلى الباص أجمع الجميع على جنوني. وكل أخذ يروي عن أساطير تعذيبٍ حدثت نتيجة نظرات تحديقٍ وحسب. من هذه الأساطير ما حصل للشوفير أبو خالد. «أبو خالد قدك عشر مرات»، هكذا بدأ راوي القصة يسرد لي. «طوله وعرضه سوا، وكرشه ولا كرش صباح فخري. مسحوا الأرض فيه مسحاً، وحلقوا له شاربه». هكذا ختم الراوي، لتسمع كل من كان في الباص يردد قائلاً: «يا لطيف، يالطيف!». وإلى يومنا هذا، لا يزال عقلي الباطني، الذي يعمل بالتوازي مع عقلي الاجتماعي الامتثالي، يتساءل عن الرابط الذي يجمع ما بين كلبٍ يعض ورجلٍ يضرب زوجته، وضابط أمنٍ سوريٍ يمانع في دراويش بلده.

* * *

قبضاي الضيعة

يحكى عن قبضاي جبل الزاوية، الذي ورث القبضاوية عن أبيه، أنه فوجئ ذات مرةٍ، أثناء رحلة صيدٍ، بضبعةٍ، فسقط مغمياً عليه رعباً وبال على نفسه. وعندما رآه حراسه حملوه إلى ساحة القرية. التفّ الناس حوله منتظرين شيخ الضيعة الذي جاء متأخراً على بغلته العجوز والتي لم يغيرها بسبب بخله، إذ قيل إنه أبخل من بابا الفاتيكان. شهق الشيخ شهقة الملدوغ حين رأى القبضاي في حالته المزرية، ثم هرش لحيته حكاً، وأغمض عينيه الصغيرتين وكأنه يستدعي وحياً، ثم قال: «يا سادة القرية، من كبرى اليقينيات الكونية حقيقةٌ تواترها النقل، وأثبتها العقل، ولا ينكرها إلا جاحدٌ أو متآمرٌ. تقول هذه الحقيقة يا سادتي إن الضباع إذا بالت على شخصٍ جعلته سهل الاصطياد مطواعاً بالانقياد، تلهو الضباع به كما تشاء. وإن في حدث اليوم لعبرة وبشرى ورسالةً خالدةً سطّرتها ممانعة قبضاي القرية الذي بقي صامداً كالقلعة في أرضه، فلم يتزحزح عنها شبراً واحداً. ولعمري إنك يا قبضاي قريتنا خير من حمل رسالةً عجز عنها الأولون ألا وهي رسالة الممانعة». وأخذ الشيخ يردد هذه الكلمة رافع اليدين دائراً في مكانه، وكأنه في حالة وجدٍ صوفيةٍ، أو كمن يرقص في مولدٍ نبوي. وأصبحت قصة بول الضباع بعد ذلك أسطورةً تتناقلها الأجيال. وأصبحت الممانعة إرثاً ثقافياً ونهجاً سياسياً، كأن يضربك رب عملك، فتضرب أنت زوجتك انتقاماً منه. أو كأن يذلك طيران عدوٍ محلقٍ فوق قصرك، فترسل طيرانك أنت ليدك بيوت شعبك انتقاماً من ذلك العدو. وحده مجنون جبل الزاوية من طعن بنهج الممانعة. فقد كان لكلّ قريةٍ في جبل الزاوية مجنونها، ولكل مجنونٍ قريته. شق المجنون طريقه بين الناس باتجاه القبضاي، وحين رآه غارقا في بول ممانعته حتى أذنيه، قال ساخراً: «أكل هذا لأنه مانَع؟ ماذا كنتم ستفعلون لو أنه قاوم؟». انتفض كل الحاضرين دفاعاً عن قبضاي القرية، ضدّ من أوهن عزيمته. وعلا صراخ أهل اليمين وأهل اليسار، من هم دعاة قوميةٍ أو قوميةٍ مضادةٍ، ومن هم دعاة جدليةٍ ماديةٍ أو شعراء ثابتٍ ومتحولٍ. وكان أفصحهم شيخ القرية الذي أخذ يطحّ

وينحّ ويشدّ ويرخي حتى كاد أن تخرج منه ريح (يضرط بالعامية). اقترب المجنون منه قائلاً: «علي الطلاق يا شيخنا سعيد لم يقاوم، لو قاوم لكان طمركم خراه من أدنى أقدامكم إلى هنا»، مشيراً إلى لحية شيخ القبضاي.

* * *

مسرحي الفرشيّ ومسارح المعارضة

لم يكن في قريتي مسرحٌ أو حتى مركزٌ ثقافيٌ. وكي لا تروح مواهبي التمثيلية هدراً، أسّست بنفسي مسرحاً خاصاً أسميته مسرح الفرشة. ولم يكن في بيتنا، ولا حتى في القرية كلها، سريرٌ للنوم. كنا ننام على فراشٍ ممدودةٍ على الأرض. فرشتي أنا كانت صناعةً محليةً، وهي عبارة عن كيس قماشٍ محشوٍ بثيابٍ ممزقةٍ غير قابلةٍ للاستخدام؛ وتجد أحياناً في داخلها أشياء دُحشت بالغلط، كمقصٍ أو كشحاطة أمي، أو حتى دفتر العائلة. وأجزم أن مسرحي هذا سيدخل يوماً الموسوعات العالمية. والاسكتش الوحيد الذي دأبت على تمثيله كان التظاهر بالمرض. فللتهرب من واجباتي المدرسية كنت ألجأ إلى عمليةٍ تمثيليةٍ أبالغ فيها، في سبيل الإقناع، إلى حد التظاهر بالاحتضار. ومن الأشياء التي كانت تزعجني هي تطمينات أمي القائلة بأنه لا أحد يموت من الزكام أو السعال. تطويراً لسيناريو التمارض والاحتضار المفتعل، استقصيت عن أمراضٍ خطيرةٍ قاتلةٍ. قال ابن خالي إن مرض أبو خريوط هو من أخطر الأمراض. «هل هو قاتلٌ مميتٌ؟»، هكذا سألته، فأجابني بأن كلّ الناس تموت من هذا المرض. أخذت أركض طوال اليوم، كي أعود منهكاً للبيت، وتوقفت عن الأكل تحضيراً لعرضي المسائي. وما إن وصلت البيت، حتى صعدت مسرحي الفرشي لأبدأ العرض بالعنين والأنين والتأوه المرضي. ومن خصوصيات مسرحي أنه يشرك الجمهور أو بالأحرى يورطه ويقسره على المشاركة بدون أي دعوةٍ سابقةٍ. بدأت أمي تتحسس جسمي من رأسي حتى قدمي. لم تجد سخونةً ولا أي معلمٍ من معالم المرض. سألتني ما بك؟ ما وجعك؟ قلت لها: «معي أبو خربوط». فصححت لي بالقول: «أبو خريوط؟ أين أصابك؟». وفي الحقيقة إلى الآن لا أعرف مكاناً لهذا المرض، فأجبتها بأنه في كل مكانٍ، وبلهجة المعترض أضفت: «من كبري أنا ليش؟ أبو خريوط لما بصيب واحد مثلي صغير، يصيبه كله!».

لم يكن حوارنا المسرحي طويلاً. تعرف أمي بخبرتها الطويلة مرضي الحقيقي ألا وهو التهرب من المسؤولية المتجسّدة في الواجبات المدرسية. سألتني: «هل

لديك وظيفةٌ لم تكتبها؟»، فأجبت: «واحدة فقط». أخوتي هم عادةً من يكتب لي الوظائف، ولكنهم بلغوا حد اليأس، فرفضوا المساعدة، قائلين: «دعيه يموت يومين لعله يتربى بعدها». قررت أمي الأمية كتابة الوظيفة بنفسها. أخذت شهيقاً وزفيراً، وساد صمتٌ، وكأنها ستكتب دستوراً جديداً للبلاد. أعطيتها الدفتر والكتاب وحددت لها الصفحة التي عليها كتابتها. فانكبت هي على الكتاب والدفتر، ترسم الكلمات رسماً، كونها لا تميز بين حرفٍ وآخر، وكأنها تزوّر عملةً. قالت حين انتهت: «بكرا الأستاذ رح يعطيك جيد هالقد». للتقديرات عند أمي أحجام وأوزانٌ.

ذهل المدرس في اليوم التالي حين وجد أني قد كتبت الوظيفة، وذهل أكثر حين وجد وظيفتي صورة طبق الاصل عن الكتاب. لقد كتبت أمي حتى رقم الصفحة. سألني والاندهاش في عينيه: «هل أنت من كتب الوظيفة؟». وبينما كان يكفي الإجابة بنعم، أخذت أقسم أيماناً، برأس أمي وبصلاة أبي بأنه أنا من كتبها. أضاف هو معلّقاً قبل أن يرسم كلمة «جيد» على دفتري: «إما أنك عبقريٌّ معجزةٌ، أو أنها محض مصادفةٍ». لم يكن الجيد بحجم توقعات أمي، ولكنه كان مشجّعاً لها على كتابة وظائفي التالية. ولو كتب لأمي أن تصاحبني في مسيرتي الدراسية، من جبل الزاوية إلى اللاذقية ثم إلى دمشق ففرنسا وكندا، لكانت حصلت على شهادة دكتوراة في الفلسفة، وبتقدير جيد جداً «إكسترا لارج».

ولم أجد منافساً لمسرحي الفرشي سوى مسارح المعارضة المتنقلة من عاصمةٍ إلى أخرى. وبينما لم أكن أمتلك من أساليب التظاهر والتصنع سوى الأنين والعنين، فقد تجاوزوا هم كلّ المبالغات عبر شطحهم الوطني نحيباً ولطماً وزعيقاً. وبينما يسطّر الشارع السوري واجباته النضالية على أفضل شكلٍ ممكنٍ في مواجهتهم الجحيمية مع براميل النظام، يتنافس ممثلو المعارضة على تقديراتٍ سياسيةٍ وماديةٍ محسوسةٍ، جلها بالعملة الصعبة. وثمة فارقٌ جوهريٌّ ما بين «أبو خريوطي» الطفولي و«أبو خريوطهم» الوطني، ما بين مسرحي الفرشيّ ومسرحهم المتنقل،

هو أنني لم أدّعِ يوماً تمثيل أحدٍ، وأن مسرحي الفرشيّ لا زال قابعاً في زاويةٍ من بيتنا كونه ملكَ أمي التي صنعته، والذي لا أستطيع النوم عليه إلا بإذنها.

* * *

مزحة طفلٍ وجدية وطنٍ

طرح الأستاذ علينا السؤال الذي تعوَّد أن يطرحه على تلاميذ في سنّنا: ماذا تطمح أن يكون عملك عندما تكبر؟ هناك من أجاب بأنه يطمح أن يكون طبيباً وآخر مهندساً وأخرى صيدلانيةً. عندما جاء دوري، أنا الذي يمقت العمل، أجبت بأني أود أن أصبح نبياً. انتهز الأستاذ الفرصة كي ينتقم مني ومن مشاغباتي، فقال: «النبوة ليست عملاً، والأنبياء لا يتهربون من واجبٍ أو مسؤوليةٍ». لم يكن هذا فهمي للنبوة، فانتابني شعور الخيبة. أضاف الأستاذ وكله شماتةٌ: «النبي لا يسرق»، ملمّحاً إلى فضح أمي لي بسبب سرقتي للبيض ولمؤونة القمح، وبيعها مقابل فوتبول وقميص رياضة. وأضاف مطبقاً علي ليزيدني يأساً: «النبي يقول الحقيقة ولا يكذب أبداً». والحق يقال أنني لم أقل حقيقةً واحدةً في عمري كله. حتى في استدعائي لذكرياتي، أعاود اختلاقها، خالطاً بين الحقيقة والخيال. ولم أحب يوماً الحقيقة، لأنني لم أعشها إلا اعترافاً بذنبٍ. ولم يكن لي في طفولتي حسابٌ بنكيٌ، لا لي ولا لمن خلّفني، ولولا حسابي الذي لا ينضب من المخيلة والكذب لكان عليّ أن أعيش كل طفولتي رهن حقيقةٍ مفادها: لست سوى فقير ابن فقير. الحقيقة هي الشيء الأخير الذي يمكن أن أؤمن به أو أن أقوله ما دام لي قدرةٌ على خلق أو اختلاق البديل. أعطاني الأستاذ فرصةً أخرى لأختار مهنةً مستقبليةً أعتاش منها طلباً للسترة وقبولاً بالمقسوم، فأجبت بأني سأكون رئيساً. تغير فجأةً شكله، وكأنني طالبته بدينٍ مستحقٍ. قال أستاذنا في خصال الرئيس ما لم يقله في النبي، من فهمٍ وجبروتٍ وعزيمةٍ وكرهه للمزح، وأهله، وحبه للجد، وحسمه بالقرار، والحكم بيدٍ من حديدٍ. كان يشير، وهو يعد الخصال والمناقب الإعجازية، إلى صورةٍ معلقةٍ على جدار القاعة، وهي للرئيس الفذّ والقائد الملهم. لم يعطني بعدها فرصةً أخرى، بل غيّر الموضوع إلى شيءٍ أكثر أهميةً. وفي نهاية الدوام، جاء مدير مدرستنا قائلاً: «الكل ينصرف إلا أنتم هنا». والأنتم هذه كانت تعود عليّ وعلى عشرة من زملائي. جمعونا في ساحة المدرسة بجريمة توزيع مناشير ممنوعةٍ. لم نكن نعي ما كتب فيها، وكل ما هنالك

أنه استهوتنا فيها ألوانها فلعبنا بها. فللأطفال حسٌّ جماليٌّ مرهفٌ في إدراكهم للألوان، وهو حسٌّ نفقده مع الكبر. قال خالد هشوم، وهو من أعطانا المناشير: «لا تفسدوا عليّ، بيقطعوا راسي». كانت الخطة ألف تقول بأن نكتفي بالبكاء دونما جوابٍ عن أي سؤالٍ. لم يكن هناك طبعاً وجودٌ لخطةٍ اسمها باء. عندما جاء دوري بالتحقيق بكيت حتى قبل أن يسألوني عن اسمي. سمعتهم يتكلمون عن لينين، فاعتقدت أنه لقبٌ لواحدٍ من مشاغبي الصفوف المتقدمة. كلما سألوني عن شيءٍ ازددت بكاءً، فأطلقوا سراحي بعد فركة أذنٍ، قائلين جملاً نصفها فصحى ونصفها عاميةٌ: «هذه أشياء لا مزح فيها، إذا بتلعب هيك لعبة مرة تانية منخلع رقبتك، خذ كتبك وانصرف». كلهم جديون، يمقتون المزح ويكرهون اللعب. خرجت كامل الأعضاء، لا ينقصني سوى طفولتي. وعندما وصلت الصف انتزعت صورة الرئيس وجعكتها جعكاً في جيبي مع نبضات قلبٍ كاد أن ينفجر خوفاً. ولو علمت أمي بفعلتي تلك لأصابتها سكتةٌ قلبيةٌ ولعشت يتيماً ما تبقى لي من حياةٍ. وما إن وصلت البيت حتى ذهبت جرياً إلى التواليت الذي لا زال إلى يومنا هذا بلا سقفٍ. فرشت الصورة على الأرض، ونزعت سروالي بسحبةٍ واحدةٍ، ووضعت يداً في خاصرتي، واليد الثانية في مكانٍ آخر، وكأني أمسك بريشة رسامٍ. وقبل أن أمطر صورة الأب الخالد بالبول، توجهت له بالقول، مع هزات رأسٍ وعضةٍ على الشفاه: «ما بتحب المزح ماه؟ أنا بوريك الجد يا أبو صنديحة».

* * *

من نضالاتي الطفولية في سبيل العيدية: عيدك مبارك

لا يأتي العيد كل يومٍ ولا كل شهرٍ. كان علينا ان ننتظره سنةً كاملةً كي يعود. لم يجلب أبي في حياته إلى دارنا من أشياء جديدةٍ سوى أمي، وكل شيءٍ عداها كان يجلبه من البالة. تبرر أمي دائماً تبضع أبي من البالة بالقول: «هي بضاعة مجربة ورخيصة». وضع أبي كيس ثياب العيد في وسط البيت فانقضضنا عليه كقطيعٍ من الذئاب تنقض على جثة ثورٍ. كانت الثياب مرتبةً كيفما اتفق، خلط فيها الكبير بالصغير. ولم يعذب أبي نفسه باختيار القياسات لأن لديه أطفالاً من كل المقاسات. ولي أنا دائماً مشكلة مع المقاسات. أبي كان ينعت قياسي بالمحير. وحل مشكلة المقاسات كان إشكالياً أكثر من المشكلة ذاتها، إذ جعلني في الكثير من الأحيان أرتدي ثياب أخي الأكبر، وأحياناً ثياباً بناتيةً جلبت لأخواتي البنات فلم تناسب قياسهن. كنت محظوظاً في ذلك اليوم، حيث وجدت قميصاً وبنطالاً على قياسي. شممتها قبل أن أعلن ملكيتي لها. أخبرني ابن خالي أن ثياب البالة هي ثياب أمواتٍ: «شمها وستجد فيها رائحة الموتى»، هكذا قال لي. لم يميّز أنفي بين الروائح، فقلت في قلبي: «منيح اللي ماتوا، وإلا وين كنا بدنا نلاقي تياب مجربة ورخيصة؟». ارتديت الثياب مرةً أمام أبي، ومرةً أمام أخي الأكبر، وأخرى أمام أخواتي البنات، وأخرى أيضاً أمام عمتي؛ ولم ينتهِ اليوم إلا وقد جربت ثيابي للمرة المئة. قالت أمي في المساء: «اشلحهن قبل ما تمزقهن، بكرا العيد مو اليوم». صنعت لي أمي، بعد عمليات نقٍ استنفدت قدرتها على الرفض والمحاجّة، حقيبة العيد وهي عبارة عن كيس قماشٍ صغيرٍ. عادةً، البنات وحدهن من يملكن كيس العيد. فقد جرت العادة في قريتي أن يجتمع الأطفال ضمن مجموعاتٍ صغيرةٍ تجوب القرية بيتاً بيتاً طلباً للعيدية: من سكاكر وكعك ونقود. نمت بجوار ثياب العيد متحسباً ومتهيئاً للصباح. قالت أمي بأن من يفيق أولاً، ويأتي ليعيدها ستكون العيدية الكبيرة له. في العيد السابق كان السبّاق إلى العيدية أخي عبد الكريم. جعلت أقسر عيني على النوم. وغرقت في مونولوجٍ

داخليّ في صراعٍ مع الأرقِ. هكذا بدأت وساوسي تقول: «ما ضل غير هالكر عبد الكريم يفيق قبلي؟ إي رح أفيق قبله وقبل اللي خلفوه. أنا ياللي رح ياخود العيدية الكبيرة. هيك بصير خمس ليرات بضل بدي عشرين ليرة. بخمس وعشرين بشتري أحلى فطبول. ستي عليا إذا بلحّ عليها بتعطيني خمسة كمان. جدي حمادو ما في منه أمل، أكبر كحتوت في الدنيا. يخرب بيت كفرنبل على هيك خلفة! إذا بلحّ على عمتي هي كمان بتعطيني خمس ليرات. بقلها ما بدي حلو بدي مصاري. خليها تعطي الحلو للبنات. ستي عواش ما بتدفع غير ليرة ليرة. بصف على الدور أكتر من مرة. هي دائمًا بتخربط. ما بتميز بين ابنها وابن ابنها. بس الباقي منين بدي اجيبهن؟ يخرب بيت هالضيعة! بتلفها طول وعرض ما بتلم خمس وعشرين ليرة. مالي غير أبي. كل مرة بوصيه على فطبول بقلي ان الله يسر. هل مرة رح يدفع إجباري عنه إن يسر ولا ما يسر. والله إذا ما بلم خمس وعشرين ليرة لأسرق المونة كلها. والله لبعلهن صرامين كلها والقبضاي يوريني حاله. يا بشتري فطبول بالعيد يا بعملهن حياتهن جحيم».

لم تكد تغمض عيناي حتى قفزت من فرشتي على صياح الديك. ذهبت جرياً إلى أمي. وجدتها غارقةً في النوم محتضنةً أبي وكأنها تخاف أن يهرب منها أو أن يسرقه منها أحدٌ. تقدمت وبصوتٍ مترددٍ بدأت أناديها، كي تستفيق: «يا أمي ... يامو .. ياااامو». استفاقت أمي منكوشة الشعر، ليتغير شكلها من الذعر إلى الغضب، أخذت تتلفت يمنةً ويسرةً، لتتأكد أن احداً لم يجرح أو يحصل له مكروه. وبدهشة من لا يعرف لماذا تمّ إيقاظه على الرابعة صباحاً قالت: «إشبك، فيك شي، حدا صابه شي؟»، وبسذاجة الطفل، مددت يدي الاثنتين مفتوحتين، وكأنني أطالبها بدينٍ مستحقٍ، أو كمن يطلب منها أن تلقي فوراً وبالحال بكل ما لديها قائلاً: «عيدك مبارك».

* * *

نزوحها مع النازحين

الحب مثل مرض السل، حتى وإن نجوت منه تبقى آثاره محفورةً في جسدك. جمعتنا الصدفة كجيرانٍ في سهل الغاب. هي شقراء، بشوشة الوجه، جسورة العينين كغزالٍ في حالة شرودٍ. لم تقل لي يوما إنها تحبني، ولم أفعل أنا كذلك. كانت فقط تقول: «اشتقتلك». وفي الحب أحياناً، مثلما هو الحال في السياسة، عليك ان تقرأ ما بين السطور. كنت أعرض عليها صوراً تجمعني بنساء أخريات، فقط لكي أثير غيرتها. لا تتحدث معي إلا همساً. سمعتها مرةً تغني: «أنا لحبيبي وحبيبي إلي ... يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي». ما زلت أذكر إلى اليوم رنين صوتها الفيروزي، شرود عينيها العسليتين، تنهيدة صدرها، وابتسامة شفتيها. آخر مرةٍ رأيتها فيها كانت منذ ثلاثة عشر عاماً. متزوجةً وتحمل في حضنها طفلةً لا يتجاوز عمرها السنة. حملت طفلتها بين يدي وجعلت أقول تراتيل صوفيةً وصفيةً لطفلتها تختصرها جملة: «يا إلهي ما أجملها وما أحلى عيونها! الخالق الناطق أمها». لم تخبرني هي شيئاً عنها. اكتفت بأن تركت عينيها تجتاحني، وكأنها تبحث في داخلي عما هو ملكها، تفتش في داخلي عن ذلك الذي لا زال ينبض باسمها. كل تجارب حبي اللاحقة لم تكن إلا محاولات فاشلة لأن أنساها. حتى في غرفة العمليات في مستشفى بوردو في فرنسا وحين أدخلني المخدر في ملكوت الغياب المطبق، فاجأني وميض من ابتسامة ثغرها وصدى ضحكةٍ لم تكتمل. وكأنها تقول لي: «حتى حين يغيب العالم كله عنك، أنا سأبقى معك».

خوفاً عليها من براميل تسقط من السماء، ولأطمئن قلبي، سألت عنها بالأمس، دونما ذكر اسمها، فاسمها يبقى سراً، حتى في سرديات بوحي لا أقوله. فجعتني الإجابة وفجرت في داخلي فيضاً من الأسى وفيضاً من الحنين. لا أدري ما الذي يجمع بين حنيني إلى عينيها وحنيني إلى بيت جدي القديم؛ حنينٌ إلى حقول الكرز، وإلى عودة أبي إلى البيت حاملاً سلة العنب؛ حنينٌ إلى شجارنا العائلي حول المدفأة، وإلى فيء شجر البلوط في تلال القرية؛ حنينٌ إلى ابتزاز أمي لي حين تقول: «يا ابني برضاي عليك»؛ حنينٌ إلى أغاني فيروز وطيور السنونو،

وإلى شمس نيسان ومواسم الحصاد وإلى مواويل العتابا في كل عرسٍ. حنينٌ إلى أذان الفجر وصياح الديك عند الصباح؛ إلى رسائل الحب وإلى أصدقاء الطفولة؛ حنينٌ إلي أنا، إلى ذاتي، إلى حماقات طفولتي وشقاوتي العبثية؛ حنينٌ إلى أول صدريةٍ وأول هروبٍ لي من المدرسة؛ إلى كل أناي التي عشتها هناك، هناك حيث هي. كم هو غريبٌ أن يفجّر كل هذا الفيض وكل هذا الحنين خبرٌ عنها مفاده: أنها أصبحت نازحةً مع النازحين!

* * *

في لغة الاحتجاج والتدخلات السافرة

لم تكن أمي تحب الخسارة ولا أنا كذلك. ولا تعرف أمي من ألعاب الشدة سوى الباصرة. بدأت مع الباصرة الثالثة تعد على أصابعها حاسبة ما نزل وما لم ينزل بعد. بدأت معالم الامتعاض وعدم الرضا تظهر بوضوح في قسمات وجهها. ومنتشياً بالنصر، رحت أستفزها كعادتي بالقول: «العبي خلصينا، حاج أكلتي أصابعك!». طرحت هي بعصبيةٍ وانفعالٍ سؤالاً، ينذر بالقيامة أكثر منه طلباً للإجابة. قالت: «كم قاشوش في الشدة؟ إذا ما في غير أربعة، كيف قشيت حضرتك خمس مرات؟». لم أدرك خطورة الموقف، على الرغم من خبرتي اللعبية الطويلة مع أمي. أجبتها كمن يفتح بيديه عش دبابير: «ما قشيت غير أربع مرات، بس أنت ما بتعرفي تعدي، لو كان للزواج امتحان اختبار لكنت لهلق ببيت أهلك». لم أكد أكمل جملتي حتى اجتاحت يدا أمي رأسي وعاثت فيه شداً ونتفاً. حمي الوطيس، فكنا جلوساً، ثم أصبحنا وقوفاً، ثم انتقلنا من الغرفة إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى غرفةٍ أخرى، ومنها إلى خارج البيت، فأراضي الجوار. وتحولت حربنا الثأرية من الشدّ والضرب إلى تبادل الحجارة في صراعٍ استبساليٍّ أشبه ما يكون بحرب داحس والغبراء. لم تكن قوانا متكافئةً ولا أسلحتنا متساويةً، فحجارتها كانت كقذائف الهاون، بينما كانت حجارتي أشبه برمي الجمرات في موسم الحج. لم يتدخل أبي لحل النزاع، ولم يكلف نفسه حتى عناء فتح الشباك ليرى مهرجاننا التشاجري اليومي. اكتفى بالقول: «القط ما بحب إلا خنّاقه!». وعندما بلغنا مرحلة الإنهاك، تحوّل الصراع إلى حربٍ لفظيةٍ كلاميةٍ تجريحيةٍ يحاول كلٌّ منا أن يهزم نفسية الآخر. بدأت هي بنعتي بأبو شخاخات، وبتعييري بالحليب الذي أرضعتني إياه. لم أجد نعتاً أثأر لنفسي به، فنعتها بأم خواشيق، أم حجابات وحبة زرقة. ثم بدأت موشحاً تهديدياً توعدياً مفاده: «والله بس أكبر، لأحلقلك على الصفر، وأربطك بشجرة التين، وأفلت عليك خلية نحل. والله لكهربك أنت ونايمة، وخليك تهزي هيك وهيك وهيييك». ورحت أهزّ كمن يرقص في بارٍ من بارات موسكو. لم يعطّل جمالية شجارنا المعتاد إلا قدوم

الحاج جميل على حمارته المدللة. فبدل أن ينحاز إلى جانب الضعيف أو أن يلعب دور مراقبٍ حاراتيٍ إقليميٍ محايدٍ، أخذ يحاضر علي دروساً أخلاقيةً لا تراعي حالتي المزرية من شعرٍ منتوفٍ وقدمين حافيتين وجسمٍ هزيلٍ. ثم استفاض بعملية تقيئه الأخلاقي، حداً جعلني أحدق فيه من دون أن يرف لي جفنٌ، متظاهراً بالبلاهة، كعادتي حينما تهددني بديهيات الآخرين. ازداد صوته رخامةً، وكأنه يلقي خطاباً سياسياً في مجلس الأمن، متحدثاً عن ثوابت أخلاقيةٍ لازمة الاحترام في أي ظرفٍ أو زمانٍ ومنها احترام الأم. وبالغ في تكفيره لانشقاقي الابنوي عن سلطة الأم، وفي تمجيده للثوابت، وكأنه رئيس حزبٍ من أحزاب اليسار. قال لي وهو يشير بسبابته: «ولك هي أمك هي!»، وكأنني لا أعرف أنها أمي وليست الأم تيريزا. وحدها عمتي فطوم من أنقذني في تدخلها الخارجي السافر من عمليات الرجم الفضائلية والتعذيب الأخلاقية التي أتحفني بها الحاج جميل. قالت له فور وصولها: «بس تحل عن ضهر هالجحشة، ساعتها تعال نظّر على هالولد»، ملمِّحةً لما يشاع في القرية عن علاقته الغرامية الحميمة مع الحمارة، بعدما رفضت كل نساء القرية الزواج منه. ذهب الرجل من دون أن يجيبها بكلمةٍ واحدةٍ. اصطحبتني عمتي بعد ذلك إلى بيتها مرددة خلفي موشحات تهديدي: «والله لجننها بنت حمادو ... والله لأندمها على اليوم اللي ولدت فيه، أم قواشيش. بس أكبر لخليها تشوف».

وحين كبرت لم أحلق لأمي رأسها على الصفر. ولم أنفذ أي تهديدٍ أو وعيدٍ. ليس لأن أمي كبرت قبل أن أكبر، بل لأن خطاب التهديد والوعيد لم يكن سوى لغةٍ احتجاجيةٍ تبالغ في ثأريتها، بقدر ضعف حيلتها وبقدر ما يزداد عليها القمع.

* * *

بوح الذاكرة في زمن الثورة

فاجأني اتصالها بي، فعادةً أنا من يتصل. بدأت كلامها بالتأكد من أنه أنا من يرد عليها، لا شخصاً آخر. لم تحدثني عن أشواقٍ ولا عن حبٍّ ولا حتى عن حنينٍ. كان كل حديثها ذكريات، منها ما حدث فعلاً، ومنها مالا يمكن أن يحدث. تسألني وتجيب هي. لم يكن استحضارها للذكريات بقصد التذكر، بقدر ما كان كمن يستدعي الحياة ذاتها، أو كمن يعاود عيش حياته مرةً أخرى. كم هي غريبةٌ رغبتنا في أن نعيش ما قد عشناه سابقاً! غريبةٌ هي رغبتنا بأن نكرّر ذاتنا مرةً واثنتين أو إلى الما لا نهاية! كانت في بوحها التذكري كمن يسترد طفولته أو كمن يهرب من سلطة الزمن في سرديةٍ لا تكترث كثيراً إلى واقعية ما يقال. جعلتني شاهداً على أبديةٍ تم انتزاعها من تتابعية الزمن الرتيبة، لتختصرها إلى لحظاتٍ. لم تتعدَّ إجاباتي كلمتي «نعم» أو «بلى». أسهبت في بوحها كمن يروي تجربةً صوفيةً بعد أن بلغت عتبة العدم، وغابت في غياهب الدهشة، حيث ليس ثمة لغةٌ للتعبير سوى الشطح. هكذا كان مونولوجها التذكري:

«ألو .. ألو .. هاد انت؟ صوتك تغير علي. ليش ما عمتتصل آه؟ ولا نَسُوك نسوان برة العالَم؟ تزوجت ولا لسا؟ لا تكون متزوج ومخليها سر؟ كلكن هيك، النسوان بتنسيكن كل شي. لا تسألني عن الضيعة. ما عادت متل ما بتعرفها. اللي كبر كبر، واللي تزوج تزوج، وناس ماتت وناس ما منعرف عنها شي. عمتشتي براميل بارود في الليل وفي النهار. ابن الحرام نغص علينا عيشتنا يا بيقصفنا بمدافعه، يا بيرمي علينا براميل. الله وكيلك ما عميجينا من السما غير البراميل. أمس قتلت بنت مصطفى المندو، بنوتة متل القمر، الله يبلاهن بقتلهن انشالله. ما خبروك؟ البنت كلها بسمة، جارتنا في الرقة بسمة ما بتتذكرها؟ ما بتتذكر بسمة اللي قتل أخوها في حرب تشرين؟ هلق الوضع أسوأ من أيام حرب تشرين. وقتل عبد الرحيم الخليل وأخوه وابن عمه وصهرك. الموت في كل مكان. أبوك بعده على ما هو. لما بصير القصف بياخد الولاد بالتراكتور وبيقول الله. الناس ما لها إلا تهرب بالبراري. ولما ما بكون في قصف بيحمل أبوك حاله وبروح على

بستان الزيتون. ما بيرتاح اذا ما زار بستان الزيتون تقول مكتبله حجاب! الضيعة نصها نزحت. نصينها نزحوا مو بس النص. جبل الزاوية كله نزح مو بس الضيعة. يا حرام على هالضيعة، والله يرحم أيام ما كنا نلعب على البيدر، والله يرحم أيام الحصاد ما بتتذكر؟ يرحم أيام التنور والدفية ما بتتذكر؟ أيام ما كنا نركض حفيانين لا هم ولا غم ولا نعرف أشو يعني واحد مات، ما بتتذكر؟ الله يرحم كرم العنب، وجب الصهريج، والمزبلة الطويلة، ولعبة الدريس، ما بتتذكر؟ الله يرحم حكايات جدك، والشاي من ديات ستك، ما بتتذكر؟ الناس تركت بيوتها وصارت تسكن بالخرابات. كتر الله خير الرومان الي عملونا هالآثار لنسكنها. ما بتتذكر الآثار؟ ما بتتذكر رمانة بيت جدك في القصر المهدوم؟ كان رمانها على طول حامض. جدك كان يقول أنه عمرها أكتر من ألف سنة. بتتذكر المغارة المحفورة في الصخر؟ ياما لعبنا فيها لما كنا صغار ما بتتذكر؟ أشو الحياة غير ذاكرة؟ كأنك ما عاد تتذكر شي، نسوك نسوان برة الدنيا.

صدمني بوحها الذي جعلني جزءاً من كل ذكرياتها وكأننا ولدنا معاً. وإلى الآن لا أدري لماذا خجلت أن أقول لها إنني لا أتذكر الأشياء التي حدثت قبل ولادتي، وإننا لم نعش طفولتنا معاً، وإنني خرجت من بطنها، ولهذا أنا ابنها، وهي أمي.

* * *

تجربة خوفٍ

لم أكن في صغري أحب الاغتسال. لولا نق أمي لكنت خير من يمثل الكائن البشري في طبيعته الأولى. هرباً من جلدها الأخلاقي لي، كنت أدخل الحمام أسبوعياً بضع دقائق أصارع فيها ببورنا القديم، وأبلل نفسي بقليلٍ من الماء، لأخرج بأوسخ مما دخلت. لم يعد تهديد أمي لي بنار الآخرة يجدي نفعاً، بعدما دحض جدي الترهيب التربوي بالقول إن الأطفال لا يدخلون النار، فاضطرت أمي إلى تغيير أسلوبها التربوي وإلى اللجوء إلى الحيلة. تظاهرت بأنها لا تراني وأخذت تتحدث إلى أخي الأصغر، بالقول: «الي ما بيغسل حاله مليح يا ابني بقمّل وبصيبه حكة وبعدها القمل بياكله وهو نايم». ذهبت ركضاً إلى الحمام، وبلمح البصر نزعت كل ثيابي، وجلبت وعاءً مملوءً بالماء، ورحت أدس وأغطس رأسي به، إلى أن ينفذ الأكسيجين من رئتي. كررت الحالة عدة مرات، متبعاً إيّاها بالقول مع كل استراحةٍ: «والله والله لفطسكن، انا حوت أبو سنان كبار ما بياكلني». وتلت محاولاتي لإغراق القملات بعملية فرك ودهك لكل أعضاء جسمي حتى تلك التي لم أغسلها يوماً. وخرجت بعد محنة الاستحمام هذه كمن يخرج لتوه من غرفة طهوره. ورحت بعد ذلك أنتظر الليل بفارغ الصبر مخططاً لمفاجأة القملات فيما إذا بقينَ على قيد الحياة. مع حلول الليل زحت إلى فرشتي وأغمضت عيني متظاهراً بالنوم. بدأ رأسي يحكني تماماً كما قالت أمي، ثم رقبتي فظهري فكل جسمي، فاعتقدت أنها أعراض ما قبل الهجوم، بدل أن أفهم أنها أعراض وساوسي. فجأة سمعت صوت همسٍ بين أمي وأبي. تحوّل الهمس إلى حديثٍ يغلب عليه الجدّيّة. لم يسبق لي أن سمعت أبي يتحدث بالسياسة، ففهمت أنه يترك حديثاً من هذا النوع إلى آخر الليل. «الله يلعن هالدولة وهالبلد اللي ما بيحترم أهله، هاد راتب هاد؟ كلهن متلي أفقر حتى من الكلاب»، كان هذا جواب أبي على سؤال طرحته أمي مفاده لماذا لا يستدين من أحد أصدقائه. لا تحب أمي الحديث في السياسة، وتفضل الأجوبة القصيرة المقتضبة الموجزة. غيّرت سؤالها كي تقطع إسهاب أبي في حديثه عن دولة البوط العسكري،

وعن ما أسماه هو ⊠ (الكديش الكبير) الذي يحكم البلد. استفسرت أمي عن إمكانية طلب قرضٍ من الدولة، فأسهب أبي، الذي لم ينته بعد من إيفاء قرضه السابق، في سبّ الدولة من كبيرها إلى صغيرها. أخذت أمي تتوسل له كي يسكت باسم الله حيناً وبشفاعة الأنبياء والأولياء الصالحين حيناً آخر، قائلةً: «والله إذا بيسمعوك ليعملوا فيك متل ما عملوا بالشيخ مصطفى الخليل». لم تعرف البشرية شخصاً أجبن من أمي، فهي تخاف حتى من ظلها، وتؤمن بالصمت موقفاً سياسياً عقلانياً يجلب السترة ويعفي صاحبه من خراب البيوت. ولو كانت أمي ممن يعمل في السياسة لكانت أول المنتسبين اليوم إلى هيئة التنسيق. وكما تفعل أمي عادةً مع أطفالها فعلت مع زوجها: غيرت الموضوع والأسلوب. وثم تحول الحديث في آخر الليل من السياسة إلى عملية ابتزازٍ عاطفيٍ. تغيرت لغة أبي الانفعالية، وأصبح أكثر طراوةً وحلاوةً في بوحه الغرامي العشقي، وفي استجابته لدعوة أمي الغرامية. لم نكن نحن الأطفال في النهاية إلا حصيلة ابتزازاتٍ غراميةٍ من هذا النوع. أرسلها أبي في حملةٍ تجسسيةٍ، لتتأكد من أننا نيامٌ. «روحي شوفي الولاد إذا نايمين»، هكذا قال لها. لم يكن لإخوتي من موهبةٍ يهربون إليها في زحمة رقودنا القسري في غرفةٍ واحدةٍ، لا رسماً ولا عزفاً ولا حتى نحتاً على قشور البطيخ. ككل الأطفال في زمن البعث، الموهبة الوحيدة التي كانوا يتقنونها هي الشخير في سكينة غفلتهم، وكأنما حفلة نقيق ضفادع في ليلة سمرٍ. اقتربت مني أمي لتتأكد من نومي كوني الوحيد الذي لا يصدر منه نقيق، فرحت أعصر عيني عصراً متظاهراً بالنوم. ذهبت هي تتمتم وتهمهم، لتعود بعد فترةٍ وجيزةٍ، ثم تذهب فتعود، فتذهب ثم تعود، وهكذا عندما فقدت صبرها، اقتربت مني ووخزتني قائلةً: «بعرفك يا حردون فايق، ليش ما عمتنام يا ابن الحرام؟»، فقفزت كمن يواجه مؤامرةً تهدد حياته، هارشاً رأسي، صارخاً، في محنة رعبي من القملات، بالقول: «بدك اياهن ياكلوني وأنا نايم!!!»

* * *

دِين الطفولة

لا يشبه دِين الأطفال دِين الكبار في شيءٍ. فحتى تصورنا لله يختلف بين الطفولة والشيخوخة. والتجربة المعاشة هي خير دليلٍ على ذلك. عندما أطلق شبيحة النظام، في الثمانين من القرن المنصرم، النار في قريتي على أطفال في مدرسةٍ، دخلت أمي غرفتها وأخذت في دعائها لله تستجدي بالقول: «يا رب اهديهن وردهن عنا يا رب». ذهبت، أنا الذي شهد حادثة الاعتداء تلك في رعبها وبشاعتها، إلى الغرفة الأخرى وأخذت أخاطب الله بدون مقدمات ولا رجاء ولا توسل بالقول: «لا تهديهن ولا تردهن ولا ترد على أم عصبات ورِجْل منملة، العن ابوهن على أبو اللي خلفوهن، لو كانوا زلم صحيح لكانوا يفرجونا حالهن بالحجار مو بالبواريد!». هكذا حتى اللغة تختلف في تواصلنا الدعائي مع الله. وبينما كان الله وفق تصور أمي عادلاً يراقب ويعاقب ويجزي، كان الله وفق تصوري له شريكاً متحيّزًا إلى جانب دون آخر. فعند دخولي المطبخ في يوم صيامٍ من أيام رمضان، لأملأ معدتي خلسةً، كنت أفعل هذا مستعيناً بالله، وكأنني أقول له في داخلي: «دعها بيننا ولا تخبر أحداً». كان الله، بيت أسراري، حاضراً معي في هربي من الناطور بعد سرقة العنب، وفي أكاذيبي المختلقة تهرباً من واجباتي المدرسية. وفي كل حالات هلعي وجزعي من عقاب أبي لي لسوء محصلتي الدراسية. وأكاد أجزم أنه في صغري كنت أقوم بكل أكاذيبي وسرقاتي وحماقاتي وخطاياي بمباركةٍ إلهيةٍ. الله معي، يفهم لغتي، ويشاطرني قلقي وخوفي واختلاط الحلم عندي بالحقيقة. إنه مثلي، يحبني على حقيقتي، تماماً كما أحبه. وحين تحولت من طفلٍ يعيش حياته لهواً إلى رجلٍ مصابٍ بداء النضج والجدية بكيت إله طفولتي، تماما كما يبكي الصاحب صاحبه. ولا زلت أحفظ في ذاكرتي حادثةً تكشف عن غرابة الاختلاف في فهمنا للدين. كان هذا في طفولتي، في جلسةٍ وديةٍ بيني وبين جدي الذي راح يسرد علي سيرة نبي السلام، رسول الرشد ومحنة الإيمان والهداية. وحين انتهى من سرده للقصة أراد كعادته التأكد من استخلاصي للعبرة وفهمي للحكمة المرجوة فدنا مني، وأنا أقبض على صندويشةٍ مدهونةٍ بالسمن والسكر،

أعطتني إياها جدتي، ليجري بيننا الحديث التالي:

هو:» بتحب النبي يا ابني اللي تعذب منشانا متل ما حكيتلك في القصة؟»

أنا: هززت رأسي بالإيجاب وأنا أمضغ نصف صندويشتي دفعةً واحدةً.

هو: «هات خبرني، ليش بتحبه؟»

أنا: «لأنه كان يتيماً».

* * *

يوم ميلادي ويتم النازحين

لا يذكر المرء ولادته على الرغم من أنها أهم حدثٍ في حياته. وحدي أنا من يتذكر ولادته في كل تفاصيلها. وكوني في طفولتي خير من ينتزع إجابةً، أمطرت أمي مرةً بأسئلةٍ ميتافيزيقيةٍ حول ولادتي، متى وكيف، كيف ومتى؟ أجابت أمي بالقول: «لقيناك في قلب بطيخة». وقالت جدتي، أم أمي، كإجابةٍ على الأسئلة ذاتها، بأنهم وجدوني في سلة قشٍ مرميةٍ أمام الباب. وحدها جدتي، أم أبي، من قال لي الحقيقة التي كنت أحب أن أسمعها. «جابوك ملفوف بخرقة وسخة وريحتك بتقتل الجحش، أمك حموية يا ابني، لأ رقاوية، أظن حموية بتسكن بالرقة». هكذا في جلسة بوحٍ اعترفت لي جدتي كيف قدمت، لا إلى الدنيا، بل إلى بيت أهلي. لم يخبرني أحد كيف قدمت إلى الدنيا، وحدها مخيلتي التي أخبرتني: من السماء، نعم نزلت من السماء. فمثلي لا يمكن أن يكون من هذه الأرض التي يحب أهلها العمل بينما أنا أمقته. فوهبت لحياتي معنىً، وجعلت لنفسي رسالةً، معلناً بأني سأصبح يوماً ما نبياً. ولاعتقادي بان من شروط النبوة اليتم، وأن تعيش منبوذاً، أخذت أبحث في زلات لسان أمي عن اعترافٍ بيتمي، وجعلتها تروي لي في سردٍ بوحيٍ قصة ولادتي ومحنة وجودي، لتخبرني كيف أنه لم يحملني أحدٌ بين يديه، حين ذهبت بي أول مرةٍ إلى القرية في جبل الزاوية. ومن غرابة أمي أنها خير من يتجاهل وجودي، ولا تحتمل، في الوقت نفسه، أن يتجاهلني غيرها، ولو لدقيقة واحدة. وحده جارنا أبو مصطفى الكفرنبالي من جبر بخاطرها بعد عودتها، فحملني بين يديه ثم أخذ يقبلني في كل مكانٍ وكأنه يعمدني؛ وختم مشهد المواساة ذاك بالقول: «والله إذا بيجيني ابن أسمر متله لأبوس بيضاته». وكون الأنبياء أغلبهم يتامى، قتلت أمي في أول محاولةٍ لكتابة موضوع تعبيرٍ ضمن واجبٍ مدرسيٍ كان موضوعه عن الأم. وبعد عملية الاغتيال المعنوية تلك، عدت إلى البيت متعباً من ثقل يتمي، فوضعت رأسي على ركبة أمي الجالسة على الأرض، وغفوت في سكينة من يقول في سره: «منيح أنه قتلتك ومنيح أنك بعدك عايشة». وكم كنت أبحث في زلات لسانها عن براهين تؤكد نبوتي.

«أنت أغلى من أولادي»، هكذا كانت أمي تبرهن على حبها الأمومي لي بينما أترجمه أنا على أنه اعترافٌ بلا أمومتها، تماماً كمن يرفض تبني أمه له.

وحده الفقر الذي لم أستطع أن أعايشه كجزءٍ من نبوتي. فلا زلت إلى اليوم أمقت الخبز اليابس الذي كانت جدتي تسحبه من أمام الفئران التي كانت تشاركنا قوْتنا في خيمتنا الصيفية في سهل الغاب، لتطعمنا إياه قائلةً: «كول يا ابني حتى تكبر». وأكره رقع ملابسي وديون أبي وإصرار المدرس على أن أشتري دفتراً جديداً. وأكره أعياد ميلاد كل النساء اللواتي أحببت لطالما لم أكن أستطيع شراء هديةٍ. كم كانت نبوتي، التي عشتها انتظاراً، وهماً! فلم أشترِ نظاراتٍ جديدةً لجدي، ولم أف لأبي ديونه التي استدانها لأجلي، ولم أغير العالم، ولم أقتل الفقر. كم هي مأتميةٌ حياتنا في نزوحها المستمر نحو الماضي، دونما وداع. فهكذا نقضي جل حياتنا انتظاراً، كمن يعيش هرباً من ذاته. واليوم في اختلاطٍ يُتم ولادتي بيُتم أطفال النزوح والملاجئ، كم أتمنى أن أكون نبياً لأحمل رسالةً إلى الله الذي لأجل تبنيه لي كنبي، قتلت في طفولتي أمي، وعايشت فقر سعادتي، ورضيت نزوحي من جبل الزاوية إلى إدلب فاللاذقية ودمشق ففرنسا، لينتهي بي المطاف منفياً في كندا. يا رب يا إله طفولتي كن معهم في محنة خوفهم، واقتلاعهم قسراً من أرض آبائهم وأحضان أمهاتهم. كن معهم كي أستطيع أن أصالح نفسي، وأن أسامحك من كل قلبي على طفولةٍ لم أعشها.

*　　*　　*

المرأة الحقيقة والفهم المستحيل

كانت تدعوني، مرةً في كل شهرٍ، إلى المطعم ذاته، على مدار سنةٍ كاملةٍ. تعارفنا في مدرسة حران العواميد في ريف دمشق، حيث كانت هي مدرسةً للتاريخ، وكنت مدرساً للفلسفة. وكما العادة أنهت دعوتها بصحنٍ من البوظة. لم أنتبه إلى أنني آكل من صحنها، حتى فاجأتني بسؤالها إن كنت قد فهمت حديثها. دون أن أرفع رأسي عن صحن البوظة، هززته بإشارة الإيجاب، مع كلمة: «طبعاً». «هات لشوف شو فهمت؟»، هكذا بلآمة سألتني. بدأت أستدعي كلماتٍ من حديثها، دونما مقدرةٍ على ربطها في سياقٍ واحدٍ، ثم أخذ كلامي يقلّ ويقلّ، إلى أن انتهى بترديد أحرف أبجدية ممطوطة على غرار: آآآآآ، مممم. في الحقيقة لم أصغِ جيداً لما قالته، لأنني كنت مشغولاً بأكل البوظة. علا صوتها فجأةً، قائلة بانفعالٍ: «أصلاً مانك شايف شي مهم حتى تسمع يا حضرة الفيلسوف!». أردت ملاطفتها تغييراً للجوّ فقلت مازحاً بلهجتها «بيسواش هالحكي». وكردة فعل على تقليدي لها في لهجتها، سخرت هي من لهجة أهل الرقة وضيع جبل الزاوية، دونما تمييز بين مدينة مولدي وبين قرية أهلي في جبل الزاوية. هكذا سخرت من كل اللهجات دفعةً واحدةً، محوّلةً مزحتي إلى جدٍّ، كي تبرر انتقامها، لتعقب بالقول بأنه من الأفضل حين الإصغاء أن أنظر إليها لا أن أدفن رأسي في صحن البوظة: «شوفني، شايفني شي؟» هكذا أنهت حديثها الثأري. تأملتها في بلهٍ، وكأني أراها أول مرةٍ في حياتي. رأيت فيها عينين شاحبتين متعبتين، وكأنها لم تنم منذ أسبوعٍ. تركت عيني ترحل في جسدها ذهاباً وإياباً، وكأنني في رحلة اكتشافٍ أو كمن ينقب عن كنزٍ. لم أكن أعلم أنها جميلةٌ إلى هذا الحد، فقد كانت شفتاها أشبه بليمونةٍ وقد انفطرت نصفين، وكان شعرها كحقل قمحٍ وصدرها كهضاب الجولان تتنفسان فتنةً وإثارةً مغويةً في تنهدها الذي حولني إلى سيزيف في عبثية صعود بحلقاتي من أدنى المنحدر الفاصل بين هضابها إلى منتهى حلمتيها الراقدتين على أعلى قمةٍ فيها. ما أغرب رغباتنا التمردية على فطامنا الأول! هكذا تجاوزت في لحظة وَجْدٍ كل المحرمات وكل قوانين الطوارئ السياسية والأخلاقية

والدينية، لأراها تماماً كما تزورني في الحلم، في حالة بوحٍ رغائبيٍ، تقول ما تشتهي بدون توريةٍ أو مواربةٍ. ولو كتب للفلاسفة أن يعيشوا تجربتي، لخرجوا من لغوهم الفلسفي ليقولوا الحقائق بجرأةٍ كما هي خارج الرقابة. فليست الحقيقة تكشفاً كما كان يهذي هايدجر، ولا هي كشفٌ أو انكشافٌ أو إشراقٌ. إنها، في لغة الصبابة، تعري الجسد ونزوحه عن ثيابه. ولو كان لشيخ الفلاسفة أفلاطون جسارة البوح لغيَّر قوله من: «لو كانت الحقيقة امرأةً لأحبها كل الناس»، إلى القول: «ليست الحقيقة سوى امرأة يشتهيها كل الرجال». وحدها الخطيئة على ما يبدو من يحررنا من سلطة تواري الحقائق عبر اعترافها برغباتنا المقصية.

أخرجتني هي من بحلقتي الهيامية بطلبها الخروج من المطعم. أقنعتها بعد ذلك بالذهاب إلى مكتبة الأسد. جلسنا ملاصقةً في الباص الذاهب إلى المكتبة. كانت تميل باتجاهي كلما مال الباص يميناً أو شمالاً. لم أشعر في حياتي بدفءٍ، كما شعرت مع ملامسة جسدها لجسدي. تمنيت لو كان طريقنا يستمر ولا ينتهي في احتكاكنا الجسدي كبوح روحين في غربةٍ واحدةٍ. نزلت هي حين وصلنا على عجلٍ وتبدل مزاجها، وما إن بلغنا مدخل المكتبة حتى قالت بسخطٍ: «لإيمتى رح يضل حاكنا هالحمار من قبره؟»، مشيرةً إلى تمثال حافظ الأسد. فأجبت أنا ساخراً: «قصدك بطل التشرينين؟». انتهزتها هي فرصةً لتعاود ثأرها، وتحوّر كلامي الساخر من هزلٍ إلى جدٍّ، ولتدينه تماماً كما تعوّدت أن تلعب معي لعبة الذنب والإدانة قائلة: «غريب شباب هالجيل! كله جيل مخصي ذهنياً». أثارني تحولها وتبدل مزاجها، فقلت في سخطٍ: «ما حدا مخصي غيرك». لأتمم الجملة في داخلي: «انشاء الله ينخصى لسانك». دخلنا المصعد معاً وكلٌّ يدير وجهه بعكس الآخر، معلنين تخاصماً وصوماً عن الكلام. دخلت هي إلى القاعة باتجاهٍ وأنا باتجاهٍ آخر. أخذت هي تقلب الكتب باضطرابٍ، فما إن تحمل كتاباً حتى يسقط الآخر من يديها. خرجت ثم عادت، ثم عاودت الخروج، لترجع بعينين مملوءتين دمعاً. دنوت منها لأعلن بأنه حان وقت الرجوع إلى المنزل. وفي طريقنا إلى جرمانا، دخلت أنا في مونولوجٍ أصارع فيه وساوسي. بلغت ذروة اللافهم،

فلم أعد أفهم تحولها من رقيقةٍ إلى عنيفةٍ ومن نديةٍ طريةٍ إلى مشاكسةٍ متمردةٍ في حالة تحدٍّ. كم هو مذهلٌ تحوّلها وتبدّلها وتغيّر مزاجها من النقيض إلى النقيض! وكم هو غريبٌ وقوعي في الفخ ذاته، في كل شهرٍ! في اليوم نفسه تقريباً من كل شهرٍ! راحت وساوسي في بلوغها حالة اليأس من الفهم، تصرخ في أعماق أعماقي: «لن تفهمها مهما حاولت، فاخنقْها، اخنقها وارتَحْ من سماها... اخنقها». وفجأةً، وكأنها قررت أن تنهي مسائي بالضربة القاضية، دنت شفتاها مني حتى اعتقدت أنها ستقبلني، وبلغةٍ رقيقةٍ ناعمةٍ، كقطةٍ فاقت لتوها من نومها، قالت لي: «الحمد لله إني تعرفت عليك يا أحمد، ما حدا في الدنيا كلها بيفهمني غيرك».

* * *

سأرحل مع الغجر

جمعونا في ساحةٍ عامةٍ. كنا جميعاً نرتدي نفس الزي. بدأنا صباحنا نردد هتافاً لا نعي مضامينه. كان أكبرهم يصرخ فينا قائلاً: «الحمار اللي هونيك صف وراء من هو أقصر منك». أدخلونا بعدها إلى صالاتٍ مغلقةٍ قيل لنا فيها إننا لسنا في بيوتنا. حاولت أن أسأل الشخص الذي بجانبي عن اسمه، فنهرني مَنْ كان يشرف على ضبطنا داخل القاعة. كان هناك شخصٌ منا يعاقب بالوقوف بجانب الباب ويداه مرفوعتان في الهواء؛ قيل إنه لم يراعِ قواعد الانضباط. حالة الرعب جعلت شخصاً بيننا ينهار، فبال على نفسه. هتافاتنا كانت واحدةً، وزينا كان واحداً، وصمتنا ومخاوفنا كانت كلها واحدةً. هكذا كانت مسيرة قتل الاختلاف والتميز. وهكذا كان يومي الأول في المدرسة، ويومي الأول في معتقل منظمة طلائع البعث.

قال خالي رداً على أسئلتي:» إذا قامت القيامة فلن تبقى مدرسةٌ ولا حتى مدرسون». وقامت القيامة مرتين في اليوم الواحد في قريتي. كان هذا في سنة ثمانين من القرن المنصرم. ومع كل هذه القيامات، وعلى الرغم من هتاف المتظاهرين في قريتي في جبل الزاوية بأنه «لا دراسة ولا تدريس حتى يسقط الرئيس»، بقيت المدرسة ومعسكرات التدريس قائمةً على قدمٍ وساقٍ. المدرسة بيت علمٍ وعلى كل الأطفال الذهاب إليها، هكذا كانت أمي تبرر خدمتنا الإلزامية في معسكرات طلائع البعث. وحدهم أطفال الغجر من نجا من إلزامية التدجين. كانوا يأتون إلى قريتنا، في كل ربيعٍ، ليستقروا في أرض البيدر، ، بدون استئذان من أحدٍ، وكأن الأرض أرضهم. لم أرَ في طفولتي الغنية بالعجائب من هو أمهر من الغجر. كانوا يحوّلون قطع الحديد إلى مناجل للحصاد وسكاكين وأدواتٍ لدرس القمح، ويبيضون طناجر اسودت من كثرة الاستعمال، ويزينون أسنان العجّز بأسنانٍ قيل إنها ذهبيةٌ. وليس هناك من هو أمهر منهم في رسم الوشم أو أشكال الفن على جسد النساء، وحتى على أكثر الأماكن المخفية من ذلك الجسد. قيل إن أم أحمد رسمت في صباها وشماً على مكان لم يره إلا زوجها في

في ليلة عرسه. وحدهم الغجر من حول فنهم أجساد البشر. كان أهل القرية يزورونهم في الصباح وفي الغداء والمساء، وإلى آخر الليل وحسب. كلٌّ يحمل لهم شيئاً ما يحتاج للتصليح وإبريقاً من الشاي أو بعضاً من السكر. وللغجر موهبةٌ في قراءة الكف والفنجان تغوي كل من يريد أن يهرب أو يتهرب من بؤس حاضره. ولم يكن أطفالهم يدخلون المدرسة أو يغادرون بيوتهم للعمل، بل يبقون في بيوتهم يلعبون طوال النهار ويستسلمون لقصص الكبار في الليل. كانوا يستيقظون متأخرين في صباحهم، ولا يعيرون اهتماماً كبيراً لقواعد النظافة من حمامٍ وغسلٍ وغسيلٍ. هكذا كانوا يعيشون على فطرة الطبيعة الأولى. كنت أقضي أغلب وقتي عندهم، مما جعل أمي تلجأ للحيلة كي تخيفني منهم. قالت لي بأن نساءهم يخطفن الأطفال الذين في سني، يرحلن بهم بعيداً عن أهلهم. أغوتني قصة خطف الأطفال، فاخترت امرأةً غجريةً قيل لي إنها لم ترزق بأطفالٍ بالرغم من كونها متزوجةً منذ أكثر من سنةٍ. رحت ألاحقها أينما ذهبت لتجدني على يمينها تارةً، وعلى يسارها تارةً أخرى. وأخذت أحدق بها، كلما تأملت هي نظراتي، وكأنني أقول لها:» اخطفيني». قالت لي هي بكرم من يقرأ المستقبل بالمجان: «والله أنت يا أسمر لتجنن البنات بس تكبر!».

أخبرت ابن خالي بمخطط هروبي مع الغجر، وأسهبت في ثنائي على تحررهم بالقول: «لا شغل ولا دراسة ولا حمام ولا هم يحزنون». أخذ ابن خالي يجلدني بأسئلةٍ ميتافيزيقيةٍ ترفيةٍ حول من سيسرح بالعنزات إذا هربت معهم؟ ومن سيشتري ربطات الخبز لأهلي؟ ومن ومن، إلى أن وصل إلى جملة «وكيف رح تترك المدرسة؟ إذا تركتها فما رح يتركوك هني، هي الدولة بتوصلك وين ما كنت». هكذا ختم ابن خالي حديثه العقلاني الرصين الذي أثار سخطي وانفعالي. وكنت جالساً فوقفت، واستعرت جملةً لأبي، لضحالة مفاهيمي الاحتجاجية، كان يكررها كلما ذُكِرت الدولة، هكذا دونما خجلٍ أو وجلٍ، ودونما خوفٍ، وبكل ما لدي من كرهٍ للمدرسة وللدولة معاً، صرخت قائلاً: «رح أهرب مع الغجر، وخليهن يخروها».

تجربة التخبط واللانضج السياسي

في فترة القحط السياسي حاولت مجموعةٌ متمردةٌ أن تشكّل تجمعاً سياسياً خارج التشكيلات التقليدية التي كانت تعيش حالة احتضارٍ. كان أنا من ابتدع فكرة التجمع هذه، فكعادتي جيد بالأفكار والتنظير، سيئ في التطبيق. كانت الفكرة سابقة على وفاة الأسد الأب ولكن التطبيق الفعلي كان تالياً على رحيله الجسدي، وبقائه الفعلي على قيد السلطة. اجتمعنا في غرفتي، في الحي الجامعي، في اللاذقية، لنخوض أول عملية سجالٍ تآمريّ على نظام الممانعة. اتفقنا في النهاية على أن يكون تجمعنا ذا غطاءٍ فكريّ محضٍ في البداية؛ ومع هذا لم نكن نتناقش إلا في السياسة. كانت لنا الأسبقية في تجمعنا المتواضع على منتدى الأتاسي الذي أتى لاحقاً. بدأت أحلامنا وتطلعاتنا تكبر مع نقاشاتنا الأولى، فأخذنا نتنقل بعد حجيجنا التأسيسي في اللاذقية في جميع المناطق التي ينتمي إليها مؤسسو هذا التجمع الذي أطلقنا عليه اسم (الرابطة). هكذا هجرنا اللاذقية إلى ريفها في مشقيتا، فكنا في ضيافة خضر ناصر، ومنها إلى حلب في ضيافة حسام الدين درويش حيث ازداد وزننا جميعاً مع كل وجبةٍ من الطبخ الحلبي، ومنها إلى جسر الشغور لنكون في ضيافة أبي معاذ قنبر حيث كان خلافنا الفكري في ذروته، ولم نتفق إلا على حسن طبخ أم معاذ، والتي لم أر في حياتي أفضل أو ألذّ من طبخها. ومن جسر الشغور ذهبنا إلى إدلب لنكون في ضيافة جلال بدلة، ومنها بعد ذلك إلى حمص، ومن ثم إلى قريةٍ حمصيةٍ مجاورةٍ، فاجتمعنا في بيت محسن محمد الريفي، لنعود بعد ذلك إلى حمص، لننام جميعاً كالأطفال في أرض الغرفة بدون غطاءٍ على الرغم من أن أم محسن بذلت جهداً كبيراً في ترتيبها للأغطية التي أعطتنا إياها. وبعدها اجتمعنا في سكني الجديد في جرمانا في دمشق. لم تكن سجالاتنا تحمل طابعاً بنائياً تأسيسياً يُسهم فيما بعد بصياغة تشكيلة أوسع، بل كان بالأحرى تخبطاً شبابياً يعبر عن تعطشٍ للتحرر وعن تأكيدٍ لذاتٍ تعاني أبديةً من الإقصاء والنفي والتغييب. لم يكن لدينا للأسف سوى الحماس والرغبة والتطلع دونما قدرة على التنظيم أو التأطير أو حتى على صياغة أهداف محددة.

كان حاضراً لدينا التوجس من الأمن، وضرورة التستر على اجتماعاتنا، دون أن نجسّد هذا التستر على الأرض. كشفت حالة اللانضج وفقر التجربة عن هشاشةٍ في علاقاتنا التي بنيت على الصحبة أكثر منها على هدفٍ مشتركٍ، فكلنا من دارسي الفلسفة عدا إقبال والذي كان طبيب أسنان. فاختلطت اختلافاتنا الفكرية ما بين ماركسيةٍ حالمةٍ متزمتةٍ، ومعتنقين للعلم مشروعاً سياسياً وعملية تنويرٍ اجتماعيٍ، وعدميةً عبثيةً تعاني اغترابها فتجلبه معها بدل أن تحاول أن تتجاوزه، وريبيةً وثوقيةً تشكّك حتى فيما تتبناه. وهكذا أدى اختلافنا الفكري إلى التأثير لا في (الرابطة) وحسب، بل حتى في علاقات الصحبة التي كانت أساس تماسكنا في غياب كل شيءٍ آخر. فدخلنا في سجالاتٍ خلافيةٍ نالت حتى من خصوصياتنا الحميمة، وأخذت بعض هذه السجالات طابع النميمة الواضحة حيناً والمتسترة بالاختلاف الفكري والقيمي حيناً آخر. وفي النهاية اختلفنا في كل شيءٍ، ففرط عقد تجمعنا، لنحاول من جديد، بعد هجرتنا للسياسة كعملٍ جماعيٍ، أن نسترد حميمية علاقات الصحبة السابقة. لم يكن النظام بحاجة لاعتقالنا ولا حتى لمراقبتنا، كل ما كان عليه فعله هو تركنا لخلافاتنا الفكرية ولتخبطنا وللانضجنا السياسي، تماماً كما يفعل اليوم مع المعارضة السياسية.

* * *

نساء المسؤولين المبشورة

في سنةٍ من سنوات خدمتي الإلزامية في المدرسة الابتدائية، جمعونا كلنا دفعةً واحدةً في شوارع القرية، في حدثٍ مهمٍ لم تعرفه القرية منذ أن هجرها الرومان. قيل إن رجلاً مهماً سيزور القرية: إنه المحافظ، وسيأتي برفقة موكبٍ من المسؤولين، ليدشن شيئاً ما انتهوا للتو من بنائه. طال انتظار أهل القرية في عدتهم وعتادهم الاستقبالي فزاد الملل والتعب من طول الانتظار. وأجزم أن كل أبناء جيلي يشكُون اليوم من الروماتزم بسبب وقفاتٍ من هذا النوع. قتلاً للوقت، وهرباً من الضجر، أخذ المدرس الذي كان بجانبي يوجه أسئلته لزميله عن نساء المسؤولين: «قولك بجيبوا نسوانهن معهن؟» هذا كان سؤاله الأول. «جيبة نسوانهن بتستحق الانتظار، على الأقل منشوف وجه حلو، مو متل وجوههم اللي بتقطع الرزق»، وهذا كان تفسيره لتساؤلاته الوجودية. أجاب زميله بالقول: «أشو جنيت؟ هود نسوانهم ما بتترك المدينة لتجي على ضيع الجن والمجانين. وحدتهن ما بتطلع تزور جارتها إلا إذا كانت معطرة ومتغاواية ومظبطة حالها على المية وعشرة، فكيف بدك اياها تجي على ضيع الغبرة؟ انشالله مفكر المسألة وجه حلو وبس؟ هود نسوانهن بتكون مقشرة تقشير ما في بسيقانها الزغبرة، متل الرخام وكأنها مدهونة بزيت. وصدرهن يا أبو محمد ولا قرص الجبن أبيض بماري ومنتصب متل المئذنة، هلقد يا أبو محمد هلقد!». هكذا ختم أستاذ الجغرافيا حديثه عن جغرافيا أجساد نساء المسؤولين.

بعد طول انتظار بحجم ثلاث أبدياتٍ قرر المدير ومسؤول الحزب صرفنا بالقول: «اذهبوا فلن يأتي المحافظ اليوم، فلديه أشياء أهم». في طريق عودتي إلى البيت حاولت أن أركِّب في ذهني صورةً متكاملةً عن ميتافيزيقا الجسد المبشور بشراً، وكأنني وجدت أخيراً هدفاً لحياتي أو مشروعاً أصبو إلى تحقيقه في بلدٍ لا تعرف لا المشاريع ولا الأهداف، بل تكتفي بأن تعيش حياتها كيفما اتفق. وما إن وصلت البيت حتى أسَرَرْت لأمي بطموحي المستقبلي قائلاً بجرأةٍ وتحدٍّ: «بكرة بس أكبر ما رح أجَوَّز غير امرأة مسؤول».

في وطنية الدراويش

اصطحبتني جدتي معها في رحلة بحثٍ عن قططٍ صغيرةٍ قيل إن رجلاً من أهل القرية جمعها في كيسٍ ورماها في منطقةٍ أثريةٍ يسميها أهلها «الخراب». لم أذهب معها مجاناً، بل وعدتني أن تعطيني مكافأةً. أخذنا نقلّد صوت القطط في تنقلات بحثنا العبثي، من بئرٍ إلى بئرٍ، ومن مَغرٍ إلى مَغرٍ، ومن قصرٍ مهدمٍ إلى قصرٍ على وشك السقوط. لم تتوقف جدتي عن مسبة رامي القطط بالقول: «يلعن روحك على روح اللي خلفوك». وكم غريبةٌ هي لغة السخط في خطابها اللعني، وفي تناص مفرداتها المتشابهة حد التوأمية، بين ثورة جدتي الغابرة في سبيل القطط وثورة الشعب الراهنة في سبيل تحرره! وكأنما لغة الاحتجاج كُتِبت بيدٍ واحدةٍ، أو كأنها انتقلت في عدوى التمرد من حنجرةٍ واحدةٍ إلى كل الحناجر. كادت جدتي أن تطير فرحاً حينما سمعت صوت مواءٍ يأتي من قلب جُبٍّ. نزلت بخفة الطفل لأحمل لجدتي أربع قططٍ صغيرةٍ خائفةٍ تتضوّر جوعاً، وهي التي انتزعت من حضن أمها سريعاً بُعيد ولادتها. ضمت جدتي القطط كأمٍّ تحتضن أطفالها، وحملتها إلى البيت المكتظ مسبقاً بالقطط النازحة من كل صوبٍ. كان بيت جدتي وطناً تجتمع فيه القطط من كل الإثنيات والطوائف. لم تعش الدرويشة جدتي الوطنية خطاباً، ولم تأخذ أو تعطِ دروساً فيها، بل كل ما هنالك أنها كانت هي نفسها وطناً يتقاسم زاده ومؤونته مع كل النازحين من القطط، أو مع كل عابري السبيل من البشر. لم تكن لجدي - المغلوب على أمره والذي كُتب عليه أن يكون فئةً صامتةً - الجرأة لكي ينتقد هدر جدتي للمال البيتي العام. كان يحتال، على قلة حيلته، في خطاب التقية النقدي الموجه إلى جدتي بالقول:» يا عليا، لا تعطي كل اللبن للقطط لأنه بصيبهن الزنطارية». همس جدي مرة في أذني، وهو الذي كان يحب العنب أكثر من حبه لأمه وأبيه، متذمراً من زحمة القطط المقيمة أبداً في بيته الطيني الفقير، قائلاً: «منيح يا ابني أنه القطط ما بتاكل عنب أو بتشرب زهورات، والا ما كان طلعلي من قفة العنب دانها».

* * *

حتى في بوح الحب هناك كرةٌ للدولة!

ليس باص النقل وحده ما كان يزورنا في مزارع نزوحنا الموسمية طلباً للرزق في سهل الغاب، بل كان هناك بائع البوظة الذي كان يأتي في كل ظهيرة حاملاً سطلين من البوظة على ظهر دراجته النارية. كان زمور دراجته يسبقه مبشِّراً بقدومه، لأركض أنا مع الراكضين حافي القدمين، ولنحاصره وكأننا في حلقة دبكة، أو كأننا نحاصر بابا نويل في ذكرى ميلاد المسيح. لم يكن «بابا نويلنا»، بياع البوظة، يعطي شيئاً بالمجان، فربع ليرة سعر قبوع البوظة غير قابل للتفاوض أو المساومة. كانت أمي تقول لي، حين كنت أنعته بالبخل وألعن أمه وأباه:» يا ابني حرام عليك، الزلمي هادا باب رزقه!». وحدها سيارة الحكومة لم يكن لها زمور يدل على قدومها. كانت تجيء مجيء اللصوص خلسةً، لعلّها تقبض على فلاح شغَّل مضخة المياه ليروي حقوله بدون إذنٍ. كانت سيارة الحكومة تراقب خطوط الري في جريان مياهها إلى جهةٍ قيل إنها مدعومةٌ، فتمنع عن الفلاحين ري حقولهم حتى يكتفي المدعومون منها أولاً، والذين غالباً ما كانوا لا يكتفون، فيضطر الناس إلى سرقة المياه وإلى الاحتيال. كان الفلاحون يسمون سيارة الحكومة التي تداهمنا في أوطاننا (بالدولة)، لتسمع هذه الكلمة ألف مرة في اليوم الواحد: «إجت الدولة، راحت الدولة، خود بالك من الدولة، احذر الدولة، الدولة صادرت الماتورات، يلعن أبو الدولة، كل الحق على الدولة، يحرق نفس الدولة، طز في هالدولة». كانت الدولة تراقبنا، وكنا نراقبها، وتكرهنا جميعا دفعةً واحدةً، ونتوارث نحن كرهنا لها. ودخلت مفردة الدولة حتى إلى أمثالنا الشعبية القروية، منها، على سبيل المثال، قولنا: «أشو مفكره مال دولة (يعني مال سايب)؟» أو القول فيمن يتصرف كرئيس عصابة لا يخاف عقاباً: «مفكر حاله دولة؟». ولم يكن ذكرنا للدولة مقتصراً على قدودنا اللعنية وموشحاتنا السبّيّة بل دخل حتى إلى اعترافاتنا الغرامية العشقية، حيث يختلط، في هيامنا الجبلي، الحب بالسياسة. هكذا في جلسة حبٍّ سريّةٍ في حقل الذرة، أخذ محمد يتأمل مريم بنت أبو إسماعيل الأكتع، من رأسها إلى آخر إصبعٍ في قدميها، وأخذت هي

تبوح الحب تنهيداً، كمن يحاول أن ينتزع اعترافاً تحت التعذيب. لم يكن أمام محمد الذي نال الحب منه الرئتين كالسرطان، وعشعشت الصبابة في فؤاده كالنيكوتين، إلا أن يقول، بعد أن تخشّب دهراً أمام عينيها السوداوين وصدرها المنتصب كمئذنتين: «بحبك، بحبك، بحبك قد ما بكره الدولة!». وعلى الرغم من معرفتها بأنه لا يوجد في أصقاع الأرض كلها حب أكثر من كرهنا للدولة، فقد بالغت مريم كعادة نساء جبل الزاوية في تصنعها للخيبة، مجيبةً بلغة المؤنِّب المدين: «بس!!؟»

* * *

أمي والأبد ولا لحظة

وأنا أيضا ابن شهيدٍ لا زال إلى اليوم شاهداً على موته. ففي سنة ١٩٦٧ كان أبي جندياً على الجبهة يحتفل مع أصحابه بمولوده البكر، بعد أن وصلته رسالةٌ تخبره بأنه رُزِق بطفلٍ ذكرٍ اسمه يوسف. كان أبي حينها في فريق المدفعية الذاهب لتحرير فلسطين (هكذا قيل لهم). استفاق أبي في صباح المواجهة ليجد أن أغلب الضباط قد هربوا قبل إعلان بدء الحرب. خاض أبي وصحبه يومها حرباً لم يكونوا مهيئين لها. قُتِل كل من كان على المدفعية وكل من كان بجوارها بقذيفة طائرةٍ واحدةٍ. وحين تراجع جيشنا الوطني المقدام مدحوراً، ذهب جدي يفتش عن ابنه فقيل له: «كلهن ماتوا ما ضل منهن واحد يوحّد ربه». لازَم جدي فراشه أشهراً مرضاً وحزناً ومرارةً، وثابرت جدتي على زيارة المقبرة، على الرغم من عدم وجود قبرٍ لأبي فيها. وحين عاد أبي فجأةً من مستشفى في الأردن، بعدما ضمدت جراحه، نظر أهالي القرية إلى عودته حياً وكأنها خيانة لموته البطولي، فلم يسمّوا مدرسةً باسمه ولا شارعاً ولا حياً. ضمته جدتي في عرس بكائي كمن يقول له: «أن تكون شهيداً حياً خير ألف مرةٍ من أن تكون شهيداً ميتاً». تطوع أبي بعدها في الشرطة، ليصبح متنقلاً سندبادياً من مدينةٍ إلى أخرى. وانتقاماً من نكسة حزيران التحريرية، خلّف أبي دزينة أطفالٍ عفاريت كنت أنا واحداً منهم. وحدها أمي من عانى من تحولها الريفي إلى المدنية. فكل محاولات جاراتها الحمويات لأن تستبدل، في أحاديث المخاطبة، اسم أبي «محمد» بلقبه «أبو يوسف» باءت بالفشل. ولم تكن جاراتها في الرقة أكثر حظاً بالرغم من نجاحهن في أن يجعلن أمي تحفظ غيباً صيغة الخطاب المدني التوقيري، فكانت هكذا تردد تبجيلها لرب البيت أبي أمام الضيوف: «يا محمد، قصدي يا أبو يوسف». ولم يكن التخاطب بالاسم إلا انتزاعاً للندية في علاقة الزوجة بزوجها وفي تعايشهما المشترك. والندية إذا ما فقدت مرةً قد لا تعود أبداً؛ هذا ربما ما جعل أمي تفتعل شجاراتٍ تؤكّد من خلالها نديتها. فكانا أحياناً يتشاجران حتى على فنجان القهوة أو على كأس الشاي: «إذا ما عاجبتك قهوتي روح عمال لحالك».

وفي لعبة الزعل والتراضي كان ذكر الأسماء خطاباً احتجاجياً تكسر فيه أمي كاريزما الربوبية البيتية: «يا أنا يا أنت، يا محمد ابن العليا، والله والله ماني قاعدتلك في البيت ولا لحظة»، هكذا كانت أمي تردد اسم أبي في خطابها الثوري التوعدي. لم تكن أمي تفارق البيت ولا حتى جاوزت هي عتبته، بل كل ما في الأمر أنها كانت تنسف في خطاب التزاعل أبدية التسلط لرب الاسرة. كم كانت تردد أمي كلمة (ولا لحظة)! وكم هي شبيهة اليوم لغة احتجاجها بثورة الشارع السوري المتهكم على خطاب الأبدية السلطوية بالقول: «يا جماعة طيب مثل ما بدكم، إلى الأبد إلى الأبد، بس ولا دقيقة زيادة!». ولم يكن أبي حقيقة سلطوياً في محنة اعتقاله الزواجي، ولكن المرء لا يولد سلطوياً بل يصبح كذلك حين يتنازل الآخرون عن نديتهم، وربما هذا ما جعل أمي تحرص أبداً على ترديد كلمة: ولا لحظة. لم تتغير أمي الريفية الجبلية في نديتها، ففي آخر اتصال لي بها، حينما كانت أدوات التواصل ما زالت قائمةً، أجابت على السؤال القائل: «يا مو مين في البيت»، بالقول: «ما في غير محمد». «محمد مين؟»، هكذا عقبت أنا، «محمد أبوك ولك مسطول»، هكذا عقبت هي.

* * *

دِين حقٍّ يراد به باطلٌ

كانت المرة الأولى التي أرى فيها أبو ياسين يساوم على شراء عنزةٍ. كانت العنزة فتيةً في عز صباها، ولكنها نحيلةٌ كصاحبها الفقير الذي قرر أن يبيعها ليسدد ديناً. «برقبتي عيال يا أبو ياسين وأقل من هالتمن ما بنزل»، هكذا قال صاحب العنزة. أبو ياسين خير من مارس التجارة، «خود وعطي أبو محمد»، هكذا بدأ أبو ياسين سردية المساومة ليتلوه بموشح من المكاسرة: «صلي على النبي يا رجل، البيع أخد وعطا. والله العظيم اللي سبحانه في أعلى سما، ومالك عليّ يمين يا أبو محمد، إنه العنزة ما بتسوى أكتر منلي دفعتلك فيها، فليش الله يسامحك عم تطالب بالضعف؟ خاف الله يا رجل! والله والله أنا بدي أشتريها لأني بعرفك ابن حلال وسمعتك متل الفل، ما بتقطع صلاة ما شاء الله عليك. يشهد الله وملائكته أنه ماني داير على ربح من ورى هالعنزة، أنا بعرفك محتاج لهلسبب رح أشتريها، ولو كنت رح أخسر فيها. لا تعذبلي قلبي كتير يا أبو محمد، خود مسيك فتاح إيدك، وخلينا نقرأ الفاتحة، بلكي الله بباركلنا هالبيعة». حاول أبو محمد الإصرار على السعر السابق، فبادره أبو ياسين بالقول: «الفاتحة يا رجل، الفاتحة، خلي بركة الله تنزل علينا، الفاتحة يا شباب». وفتح أبو محمد يديه ليقرأ الفاتحة مضطراً بعدما علا صوت كل من حوله «بسم الله الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين ... آمين». منتشياً بقدرته على شراء ماعز الدراويش بنصف ثمنها، حاول أبو ياسين أن يتهرّب من دعوة أبو محمد لشرب كأسٍ من الشاي بالقول: «صار وقت الصلاة ولازم أشق على الوالدة، الله يخلينا اياها، بتعرف أنت، رضا الله من رضا الوالدة».

المساومة الثانية التي رأيته فيها كانت محاولته شراء عنزة عمتي بحضور جدتي عليا. ما إن قال هو لعمتي: «صلي على النبي»، حتى تنطعت له جدتي بالقول: «اللهم صلي على كومة أنبيا، وعلى كل صالح وابن حلال، ويلعن كل نصاب وحرامي وابن حرام. . هي العنزة يا أبو ياسين اندفع فيها كذا مبلغ، إذا بتدفع مية ليرة زيادة بتكون إلك حلال زلال». «وحدي الله يا أم محمد، العنزة ما

بتسوى هالتمن»، هكذا كانت المناورة الأولى لأبي ياسين. «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، هكذا رددت جدتي على عجلٍ، ثم أضافت: «ولك يا ابن سرّاقة الجلّة، مع كل كذبة بدك تحشر اسم الله فيها، والله العظيم إذا ما رحت من وجهي لأقطع هالصرماية عليك، وخلي كل أمة لا إله إلا الله تتفرج عليك». ذهب أبو ياسين بدون أن يقرأ الفاتحة، هارباً هروب المشركين في غزوة بدر.

* * *

كفرنبل جبل الزاوية

ما من محل للتصوير في قريتي كي نخلّد لحظة تحول طفولتنا إلى طفولةٍ أقل؛ لهذا قررنا، أنا وصديقي، الذهاب، على دراجةٍ هوائيةٍ، إلى قريةٍ في آخر ما عمر الله اسمها «كفرنبل». أن تبدأ المرحلة الإعدادية بصورةٍ تذكاريةٍ هي مسألةٌ تستحق المغامرة، حتى ولو كانت على ظهر دراجةٍ في حالة احتضارٍ. تعطلت دراجتنا ونحن في منتصف الطريق، فأخذنا ما تبقى منه مشياً على الأقدام لعدم وجود سيارةٍ تمر بقريتنا المنسية. أخذ المصور يجاملنا في حديثه مازجاً بين المزح والسخرية: «من وين الشباب؟» كان هذا سؤالاً لا ينتظر جواباً. كمن يعتقد أنه حقاً شابٌّ، أجاب صديقي بالقول: «من جبل الزاوية». ولا يقول أحدٌ عادةً إنه من جبل الزاوية، إذا كان سائله نفسه من قريةٍ في جبل الزاوية، بل يذكر قريته بالاسم. «كل الناس من جبل الزاوية، فمن أي قريةٍ أنتم من جبل الزاوية؟» هكذا عقَّب المصور، من دون أن يلتفت إلينا. «من كنصفرة»، رد صديقي ممتعضاً. طلب مني أبو سمير (المصور) أن أخلع سترتي التي تغطي قميصي الممزق، فرفضت؛ ودونما إلحاحٍ، وقف خلف كمرته قائلاً: »ابتسامة لشوف»، ليخلِّد بكبسة زرٍ ابتسامةً تُظهر كل أسناننا. حين خرجنا بدأ صديقي بحديثٍ انتقاميٍ من المصور: «قال كلنا من جبل الزاوية قال! من إمته أهل كفرنبل، بياعين التين، صاروا من جبل الزاوية؟ ما ضل إلا يعمل حاله أخو هنانو!» هكذا في لحظةٍ انتقاميةٍ محى صديقي كفرنبل من الخارطة الجبلية، متحججاً بالقول: «بياعين التين ما في أبخل منهن! شوف جدك حمادو (مصطفى السليم: ولد في كفرنبل) إي ما في أبخل منه في الدنيا كلها، أبخل حتى من أهل حلب. مين مفكرين حالهن آه، إذا فوطبول ما بيعرفوا يلعبوا، وهي البيدر بيناتنا لنشوف، غير عشرة صفر ما منخسرهن؛ أصلاً الصفر كتير عليهن. ما سمعت عن هاد الكفرنبالي اللي حاول يغتال حافظ أسد؟ رماه بقنبلة وما صابه، يخرب بيته، إذا حافظ أسد قد الجحش وما صابه، وبتقلي من جبل الزاوية! لو كان من جبل الزاوية كان بشحاطة جاب أجله، مو بقنبلة!». وبعد أن مثَّلنا بجثث

جيراننا الكفرنباليين نميمةً، تحوَّل فجأةً حديث صديقي من لغة النقمة إلى الطراوة: «شفت ما أحلى بناتهن؟ المهر عندهن ما في أرخص منه، بكيس تين مقدَّم، وكيس تين مؤخر، بتاخد أحلى صبية. شفت بنته للمصور؟ هيك كانت عمتمشي». واخذ صديقي يتمختر مقلداً مشيتها، وحركة رموشها، وابتسامتها الخجولة، فضحكنا حد التعب، ثم استرحنا، ليعاود هو تقليده لها، لنضحك مرةً أخرى، فنستريح؛ وهكذا حتى وصلنا القرية مشبِعين أهل كفرنبل بياعي التين قدحاً وذمّاً. وفي إحدى نزوحاتنا الصيفية إلى سهل الغاب طلباً للرزق، وفي سهرةٍ ليليةٍ مع جارتنا دعد من الجبل المقابل (جبل العلويين)، أخذ صديقي يعرض بفخرٍ كل صوره، كسباً لودها، فكانت صورتنا التذكارية تلك واحدةً منها. «ما أحلى هالصورة، والله إنه فنان اللي صورها، وين تصورتوها؟» هكذا سألت جارتنا دعد. فنسي صديقي حقده الثأري على بياعي التين، ليقول بنشوة الانتماء المشترك: «في كفرنبل، في جبل الزاوية».

* * *

جاهلية المشيخة: كهنوت الإسلام

أُعجب أبي بفكرة أن يكسب فردٌ من عائلته الآخرة. «سجّله بالشريعة، بيكسب دنياه وآخرته»، هذه الجملة هي التي جعلت أبي يعمدني بنظرات الغبطة، وكأنه يحاول أن يقنع ذاته بإمكانية أن يدخل واحدٌ من أبنائه الجنة. أمضى أبي أياماً من التردد والحيرة، بعدما حصلتُ على الشهادة الإعدادية، وهو يسأل نفسه، مرةً بصوتٍ عالٍ، ومرةً بصوتٍ أعلى، قائلاً: «الجبّانة ما بتقبلُه، ناجح تشحيط ابن الحرام وين بدي سجله؟» كانت الدولة التقية قد افتتحت لتوها فرعاً للمخابرات الجوية في مدينة إدلب ومدرسةً شرعيةً بجواره. «واسطتنا مضمونة، مدير الأوقاف بنفسه»، هكذا قال لي أبي مطمئناً قلقي، ونحن ذاهبون إلى امتحان المقابلة. تم قبولي بعدها، وفُصل واسطتنا لسرقته أموال الأوقاف. وبعد قبولي في مدرسة الهداية، نزحت بمفردي، ولأول مرة في حياتي، إلى إدلب. سكنت بدايةً في غرفةٍ يشاطرني بها أربعة طلابٍ من نفس القرية. اجتمعنا في أول يومٍ في المدرسة، حول حسام من قريةٍ من قرى جبل الزاوية. «والله العظيم، وبصلاة أمي سبع مرات في اليوم»، هكذا قال حسام ليعلو الصفير من حوله: «أووووووف أوف، سبع مرات!». لم أكن قد أدركت حينها سن البلوغ، حتى أستطيع أن أفهم مدى أهمية الموضوع، إلا أنني تظاهرة بالاهتمام وصفرت مع الصافرين. «لا تجوز الصلاة على جنابةٍ»، هذا كان أول ما تعلمناه في دروس الفقه. «صار لازم أستحم سبع مرات باليوم»، هكذا تمتم حسام قبضاي الصف ورئيس عصابة المشاغبين. قال مدير المدرسة مفتتحاً يومنا الأول: «لدينا حمام للاغتسال، ومراحيض، ومكان للوضوء، وجامع للصلاة وقت الظهيرة». لم يطُل الوقت حتى اكتشفنا أننا جيشٌ من الفاشلين الداخلين بالواسطة، بعد أن رفضتهم المدرسة النظامية. كانت الصلاة فرضاً داخل المدرسة وقت الظهيرة، يؤمّنا فيها شيخٌ كنيته «رحال»، أطلقنا عليه لقب «أبو لهب»؛ لأنه كان يكرر في كل صلواته سورة «تبت يدا أبي لهب». كانت عيناه تراقبنا حتى في صلاته التي ما فتئ ينظر فيها إلى ساعته. كنا نتهرب أحياناً من الصلاة، بالاختباء في

الحمامات، وأحياناً نصلي بلا وضوءٍ بسبب قسرية الصلاة. كانت الشجارات يوميةً، بين الطلاب أنفسهم حيناً، وبين الطلاب والمدرسين أحياناً أخرى. تغيَّر المدير أكثر من مرةٍ، لأسباب قيل إنها تتعلق بالفساد. كان المدير الثاني يتباهى بقصةٍ مفادها أنه ضرب مرةً طالباً مشاغباً، وهو ابن المحافظ، بدابُّو المدفأة. «أنا لا أخاف في الله لومة لائمٍ»، هكذا كان يبرر أسلوبه التربوي. وكونه لكل شيخ في مدرستنا لقبٌ، فقد أطلقنا على مديرنا، الذي لا يخاف في الله لومة لائمٍ، لقب «أبو جهل». لم يكن مصروفي الأسبوعي يتجاوز في أقصى حالاته مئة ليرة، لهذا حين فُرِض علينا شراء مصحفٍ، اضطررت إلى سرقته من مكتبةٍ في شارع الجلاء. كان هذا أول كتابٍ أسرقه، قبل كتاب هاملت لشكسبير وقصة كريستوف كولومبس. كان تعليمنا تلقيناً يبجّل الامتثال، ويمتعض من التساؤل؛ فحين أخبرنا شيخنا عبد الرحيم أن من منجزات «الحجَّاج» إعادة بناء الكعبة بعد أن هُدِمت، طرحت أنا بسذاجةٍ سؤالاً مفاده: «ومَن هدمها؟»، لنكتشف أن من هدمها هو الحجاج نفسه، تماماً كما أن من منجزات حافظ الأسد أنه أعاد بناء حماة بعد أن هدمها. وكان شيخنا منفتحاً مقارنةً بغيره، فلم يضربني لأسئلتي التي وسوس لي الشيطان بها، بل اكتفى بوصفي بقليل الأدب. كان التدريس محنةً يوميةً، لنا نحن الطلاب الفاشلين، وللمدرسين الذين يسعون لتحريرنا من جاهليتنا. سألني إياد محمود بقلقٍ عن مستقبله على طريق المشيخة: «صحيح أنه رح يكون شغلتنا تغسيل الأموات؟». وحده خضر من أدرك أن المشيخة كارٌ، فهجر النكات التي لا تتحدث إلا عن الجنس، وخطّ طريقه باتجاه خطبة الجمعة. كان والده يعرف أغلب شيوخ الجوامع الذين تركوه يخطب في جوامعهم ليدرّب نفسه. كان يلقي الخطبة ذاتها في كل الجوامع التي زارها، وكنا نحن نحضر خطبه كمن يحضر حفلةً في سيرك. عشنا في حملات التبشير التربوية اليومية حالةً جهاديةً خصاميةً مع فضولنا، وبدا لنا فيها أن كل الحكمة هي التسليم، وما العقل المتسائل إلا مجازفة قد تودي بصاحبها إلى التهلكة. الشيخ عبد الرحيم هو أعقل شيخٍ عرفته المدرسة، وتشهد له بذلك حادثةٌ هزت وجداننا الإيماني. فقد تناقل

الطلاب إشاعةً كانت تتجدد في كلّ سنةٍ من أنه إذا قرأت سورةً معينةً عدة مراتٍ، ستجد شعرةً من لحية النبي الكريم في مصحفك. أقسم حسام أنه وجد شعرةً في مصحفه، فرد الشيخ عبد الرحيم بالقول: «شعر النبي وجسده لا تمسهما النار، واعتقد أن الأمر إشاعةٌ، وما علينا إلا اختبارها بالنار». حمل الشعرة بيد ترتجف جزعاً كمن يُقدم على قتل أمه وأشعل عود الثقاب فاحترقت الشعرة فوراً، ليردد شيخنا بصوت يكشف عن خيبةٍ، قائلاً: «أرأيتم، إنها مجرد إشاعة». وحده الشيخ معشوق الخزنوي من شذ عن إجماع مشايخنا المُدين للفضول، ليثير فضولنا أكثر باعترافه بأنه لا يملك إجابةً عن الأسئلة التي نطرحها عليه، لهذا قيل فيه حيناً إنه صوفيٌ غريب الأطوار، وحيناً آخر إنه ابنٌ عاقٌ أزعل أباه فطرده من بيته. كانت دراستي بمدرسة الشريعة من أغنى التجارب التي عشتها في حياتي، في محنة الإيمان بالله والكفر بالشيوخ، ومحنة طردي منبوذاً مفصولاً من رحمة الهداية الشرعية. في ليلة القدر، وفي الجامع الكبير، وبعد أن أنهى أحد الشيوخ الدعاء إلى الله على أعداء الأمة بأن يُيتّم أطفالهم، ويرمّل نساءهم، ويقطع دابر رجالهم، شكر مدير مدرستنا وإمام الجامع ذلك الشيخ بأن وصفه بـ «الداعية الجليل». سألني إياد ماذا يعني أن يكون شخصٌ ما «داعية»؟ أجبت بالقول: «يعني واحد بيدعي على الناس». كانت هذه إحدى تجاربي المعاشة مع جاهليةٍ ترفع راية الإسلام.

* * *

التعسكر فقراً

سبّب نجاحي بالبكالوريا مشكلةً عائليةً. أخذت أمي تضرب على صدرها، حين سمعت برغبتي دخول الجامعة أربع سنواتٍ قائلةً: «مين بده يصرف عليك أربع سنين، مفكر حالك ابن مين يا سلطان زمانك؟». قال أبي: «يوجد معاهد مدتها سنتان». والحقيقة أن وضع أهلي المادي لا يسمح بالدراسة حتى في جامعة مدتها أربعة أسابيع. أشرت ساخراً إلى وجود كليةٍ تدفع لمن يدرُس فيها، وهي الكلية الحربية. أجابت أمي على سخريتي بالقول: إشبه الجيش، يعني مانه خلقة الله؟ دفعني الفقر لأن أذهب إلى حمص في يوم أربعاء، وبرفقة ابن قريتي محمد الحاج ابراهيم. اصطحبنا أبو محمد، وهو إمام جامع القرية، ليشبعنا نصائح أخلاقيةً وسلوكيةً علينا الالتزام بها، كي نُقبل في الجيش العربي السوري. كنا أول الداخلين وأول المصطفين في طابورٍ من المتطوعين، في انتظار امتحان الاختبار. فجأةً أتى ضابطٌ ليسأل إذا كان هناك أحدٌ ما من جبلة، فانقسم الطابور إلى نصفين، ليذهبوا بعدها مع الضابط الواسطة. نصف المتطوعين كان من جبلة، ولا أدري من قال لهم إن الجيش أحسن لهم من دراسة العلم والفكر والأدب. ربما هو الفقر الذي دفعهم كما دفعني إلى التطوع. وبعد لحظاتٍ أتى ضابطٌ آخر ليسأل عن أشخاصٍ من مناطق أخرى في اللاذقية، وآخر عن أشخاصٍ من طرطوس، وآخر عن أشخاصٍ من حمص ومن الرستن، وهكذا لم يبق معي في الطابور سوى ابن قريتي. وبعد زمنٍ من إهمالنا قررنا الدخول وتقديم طلباتنا بأنفسنا. استقبلنا ضابطٌ عبوسٌ، وبدأ يملأ استمارة محمد، من دون النظر إليه. وفجأة سأله إذا كان لديه قريبٌ في الجيش، فأجابه محمد بسذاجةٍ، بالقول: «قرايب اللزم ما عندي، بس في ضباط من نفس الطايفة». وفي ريفنا الجبلي، في جبل الزاوية، نستخدم كلمة الطائفة لندلل على العائلة بالمعنى الواسع؛ وبهذا المعنى يكون محمد من طائفة حلاق وأكون أنا من طائفة هرموش؛ أما الطائفة بالمعنى الديني فلا نستخدمه، ليس بسبب وعينا السياسي العميق، بل كل ما هنالك أن هذا المعنى غير موجودٍ.

لحظت عينا الضابط، وأخذ يحدق في محمد، وكأنما قد لدغته أفعى. راح يتمتم بجملٍ غير مفهومةٍ، لم نستطع أن نفهم منها سوى جملة: «بتنقبل من طيزي بالجيش». ثم ذهبنا لنكمل باقي اختباراتنا الصحية والجسدية. كانت الكلية أشبه ببازار معرة النعمان، لا نظام فيها ولا ضوابط. وحين خرجنا من وكر التطوع هذا استقبلنا أبو محمد، فصعدنا على عجلٍ إلى سيارة النقل (الباص). وحين علم الشيخ بقصة الأقارب في الطائفة، صرخ بابنه قائلاً: «الله لا يوفقك يا ابن الكلب، اللهم أستغفرك وأتوب إليك، أستغفر الله، أستغفر الله». لم تقبلنا الكلية الحربية فاضطررت إلى الدراسة في الجامعة. وبينما كنت أكذب على أصدقائي في اللاذقية بالقول: «إني دخلت قسم الفلسفة حباً بالحقيقة»، كانت أمي تجيب عن سؤال جاراتنا، المستفسر حول دخولي قسم الضلالة، بقول الحقيقة المطابقة لما في الأذهان مع ما في الأعيان: «والله يا عيني دخل الفلسفة لانهن ما قبلوه بالجيش».

* * *

الذاكرة والنزوح عكساً

النزوح؟ يا إلهي ما أصعبه! خبرته أنا منذ طفولتي. طفولتي كانت في الرقة ديار مولدي. ففيها عشت شقاوتي الأولى، في دارٍ صغيرةٍ دائمة الاكتظاظ بالضيوف. كم من مرةٍ تكومنا، أنا وإخوتي، في غرفةٍ واحدةٍ، وأحياناً في فرشةٍ واحدةٍ أو فرشتين؛ لنفسح المكان للضيوف القادمين من ضيعةٍ منفيةٍ في جبل الزاوية. أليست الضيافة في البيوت الضيقة شكلاً من اللجوء؟ في ذات صباحٍ رقاويٍّ كئيبٍ صعدت حافي القدمين وبدون بنطالٍ إلى سيارةٍ مكشوفةٍ جَمع فيها أهلي فجأةً كل عفش بيتهم، وقيل إن وجهتنا هي جبل الزاوية، مسقط رأس أبي. وبينما كان أهلي يقتربون من ريف مولدهم، كنت أنا أبتعد عن مدينة مولدي. أليس هجران بيت حماقاتك الأولى نزوحاً؟ استيقظت في يومي التالي للنزوح، لأعيش ولأول مرةٍ في حياتي مهرجاناً ريفياً صباحياً لمرور الأغنام أمام بيت جدي. كل شيءٍ في ذلك الريف عجائبيٌّ: موسم الحصاد، واجتماع الغجر في بيدرها، وأغاني العرس، وحبهم الجنوني في السر، وخلافاتهم اليومية على لا شيءٍ. هناك، في ذلك الجبل الذي لم تكن الحداثة قد اغتصبت فيه بعد فوضوية الحياة وعفويتها الريفية، تعرفت، ولأول مرةٍ، على جدٍّ عجوزٍ بعمر شجر البلوط. كان جدي أشبه بموسوعةٍ تعيش حياتها سرداً شفوياً لسيرة الرسول ومحنة نبوته، ولسيرة المهلهل، ولسيرة جدنا هرموش، وسيرة ثورتنا على الفرنسيين، مؤرِّخةً لطباعنا الفوضوية التي فاقت مخيلة برودون وباكونين. ولم يكن تحولي من الطفولة إلى الشباب سوى نزوح عمري لا إرادي جعلني أهجر قريتي إلى مدينة دراستي الثانوية في إدلب، ومنها إلى اللاذقية لدراسة الفلسفة في الجامعة، ومنها إلى دمشق. وحين أخذت الطائرة، لأول مرةٍ في حياتي، نازحاً إلى فرنسا، بدأت حياتي كلها تتداعى في رأسي صوراً: صوت أمي وهي تركض خلفي بعد كل حماقةٍ قائلةً، والمكنسة في يدها: «والله لأدبحك يا حردون»، تواطؤ أبي معي حين يقول لي سراً: «لا تخبّر أمك، بتجرصنا»، دفية بيت جدي وسرديات جدي البوحية، حكايا عمتي وشجار إخوتي الصباحي. ما أمرّ هذا النزوح! لا شيء يرجع إلى الوراء، هكذا كان يقول جدي.

أحقاً ما من رجوع إلى الوراء؟ وحدها الذاكرة التي تثأر من النزوح بنزوحها المعكوس وفي عودها الحنيني الأبدي إلى الوراء. فهنا، في آخر الدنيا، في كندا، وفي سهوةٍ نوميّةٍ يوميةٍ يأخذني، منذ سنتين وحتى الآن، وفي كل يومٍ وعلى حين غرةٍ، صوت أمي ورنينه التوعُّدي في رأسي، وصور الجن من حكايا بوب الليل، وصورٌ من جنازة ابن خالي، لأعيش هكذا في شللي الصباحي، ما بين اليقظة والنوم، الذاكرة بوصفها ماضياً مستعاداً حيناً، وبوصفها حاضراً، يعيشه غيري في المخيمات، حيناً آخر. كم هو غريبٌ أن تعيش الذاكرة برداً وقلقاً وحنيناً، تماماً كما يعيشها واقعاً حاضراً أطفالٌ هتفت حناجرهم ⊠ «الموت ولا المذلة!». ليست الذاكرة، في خلطها لما عايشته أنت مع ما يعيشه غيرك، استرداداً لماضٍ بقدر ما هي تمردٌ ثأريٌّ على الماضي في تعاضدها مع حاضر الآخرين. للذاكرة روحٌ لا تصالح جسدها وتبقى تذكّره، عبر زياراتها النزوحية العكسية؛ بأن الحياة، كل حياةٍ، ليست سوى نزوحٍ، وفي النزوح، كل النازحين أهلٌ.

* * *

بوح الإنسان المفرط في عاديته

ليس ثمة ما هو أغرب من الولادة القيصرية إلا بوح الوجع؛ فكلاهما يعيش حتمية الطلق الأليم بعد طول الحَبَل، وكلاهما يفتح جرحاً للعبور، حين تتعطل طرق الولادة الطبيعية. هكذا كان محمد طه حين يزورني، يفتح، في قيصريات بوحه، جراحاً بحجم الجسد: «إمته رح نعيش يا أبو حميد؟ لا تقلي بكرة، وفي المستقبل! هاد المستقبل كله وهم بوهم، وعبارة عن امبارحات (جمع امبارح)، نسخة طبق الأصل عن كل الأيام اللي مضت، بدي عيش اليوم، اليوم مو بكرة! ليش انكتب علينا الشقا وانكتب على غيرنا يعيش متهني، ليش؟ ليش هالناس المتهنايّة ما بتحس فينا، ليش؟ ليش أنا بحس بكل مظلوم وبكل محروم، وبَحِب كل الناس، وبحترم كل الناس، وبآخر الليل بنام نومة الهارب من السجن، ليش؟ غريب هالبلد وغريبة هالدنيا! ابن الحلال بعيش مشرَّد، وولاد الحرام بياخدوا كل شي! ولك لا حُب، ولا بيت، ولا عيلة، ولا حتى أمل! ليش اجينا على الدنيا دخلك، ليش؟». وطه هذا هو صديق صديقي لم يترك حرفةً إلا وجربها، ولم يترك شارعاً في حلب إلا وزرع فيه بسطةً، ولم يترك مصنعاً إلا ومرَّ عليه، وحتى التهريب عمل به، فكان يجلب من حلب إلى بيت إقامتي في دمشق قطعاً كهربائيةً، ليبيعها، ثم يعود في نزوحٍ شغليٍّ سيزيفيٍّ عبثيٍّ لا يجني منه سوى اللاشيء، وبعض جلسات بوحٍ معي. ككل المعدومين في الأرض كان طه: عادياً في لبسه، وعادياً في لغته، وعادياً في مطالبه البسيطة، وعادياً حتى في كذبه عليّ، حين يقول لي: «عليّ الطلاق اشتقتلك يا أبو حميد». ولا يملك العاديون، في بلدٍ يحكمه الاستثناء إلى الأبد، سوى الأمل، وشجاعة أن يبقوا على قيد الانتظار، فلا مكان لهم في كتب التاريخ، ولا في الأحزاب السياسية، ولا في المؤسسات الدينية؛ هكذا يبقون خارج كل شيءٍ، وهامشاً لا معنى له، بينما تنعم الاستثناءات بتخمة المعنى وسلطة الهداية والرمزية الوطنية. ما من جريمةٍ في الأرض أكبر من أن يعيش الاستثناء مجّداً خرافياً يصادر في أبديته على أحلامنا العادية. ما من جريمةٍ أكبر من أن يرتهن وجودك الملحّ بانتظارٍ عدميٍّ لا أفق له.

وكم هو غريبٌ منطق الكينونة حين تسترد نفسها فجأةً! فهما طال الاستثناء، أبديةً أو أبديتين، لا بد من أن يشيخ وأن يولد، من احتضاره، نقيضه. هكذا تماماً نولد اليوم، كشعبٍ في ثورةٍ على الخواء: كولادة البوح القيصري لإنسان مفرطٍ في عاديته. ستنتصر أسئلة بوحنا حكماً على إجاباتهم، ولكن ما أطول الحمل الذي كان، وما أشد ألم الطلق، حين يأتي بعد انتظارٍ بحجم الأبد!

* * *

يُتم الصداقة

لا أدري من قال إن الصداقة روحٌ في جسدين، فلم أشاطر يوماً «جمعة علي» روحه، ولم يكن له من روحٍ كاملةٍ، بل أقل من ربع روح. تعرفت عليه في فترة دراستي في اللاذقية، حين جعلنا الفقر نتزاحم في غرفةٍ جامعيةٍ. كان بسيطاً ودوداً خجولاً كطفلٍ في ثوب رجلٍ. كنت أول من طبخ له بعد أمه، وأول من علمه الخطيئة في شرحي له لجغرافيا المرأة ولمعابرها الحدودية. وكنت أول من فسر له انكماش تَلَّتين على جسدٍ. وكنت أول من مثّل عليه دور الرقابة الأخلاقية. لا شيء فيه يشبهني سوى الكآبة والجوع للبوح وانعدام المعنى، في غربةٍ عن كل شيءٍ. لا قيمة للأشياء لديه، ولا انتماء عنده سوى لذاتٍ تعيش كيفما اتفق. ومن غربةٍ في وطن الأهل سافر مثلي ومثل أمثالي الكثر إلى بلادٍ خارجيةٍ في سبيل الدراسة في روسيا. هناك، دَرَس الصيدلة، ليكتشف، مثل كل من ولدوا قسراً، أن كل بلاد الأرض غربةٌ، بل كل حياة المرء غربةٌ، عدا تلك التي عشناها في حضن أمٍّ، أو في رسالة عشقٍ، أو في تواطؤ الأصدقاء. قليلاً كان تواصلنا، فما من شيءٍ يَسرُّ كي يقال. لم يغب يوماً عن هذيانات أحلامي في كرمها البذخي حين تشتري ورقة يانصيبٍ. فكم من مرةٍ اشتريت له صيدليةً وبيتاً وبدلةً رياضيةً، وكم من مرةٍ أنفقت ملايين ربحتها حلماً في عزيمةٍ له على صحن فولٍ! حتى في أحلامنا يا صديقي فقرٌ يجعلنا لا نتجاوز ترفيّة صحن الفول! بعد أن أنهى دراسته، عاد إلى أرضٍ تسمى في كتب الدراسة بـ الوطن، ليساق إلى الخدمة الإلزامية، في زمنٍ تحول فيه القهر إلى ثورةٍ. أنا من أخبر أهله بانشقاقه عن جيشنا الوطني، في اتصالٍ مقتضبٍ مفاده: «جمعة انشق، احذروا الأمن». لم تطل محنة عيشه المعنوي، حين تحول من صيدلانيّ إلى طبيبٍ ينقذ حياة المصابين، فطالته قذيفة طائرةٍ، فمات. لم يُدفن، في عوده المحمول إلى أرضه، في زفة شهيدٍ، ولا في موكب نحيبٍ، بل دُفن خلسةً كامرأةٍ قُتلت في جريمة شرفٍ. يتمٌ هو فقدان الصديق، واليتم، كالإعاقة الجسدية، مؤلمٌ حتى حين ننساه. كان عليك يا صديقي، كما على كل الراحلين إلى أرض العدم، أن تأخذ كل أمتعتك من ذاكرتي، كي لا أندم على

أي شيءٍ أو أزعل على أي شيءٍ. ما من ندمٍ لدينا يا من تحول قسراً إلى شهيدٍ، وما من عتبٍ، في زمن «الموت ولا المذلة»، سوى على كل شيءٍ. نعم صَدَق من قال: «يلعن كل شي».

* * *

حين يكون الإصلاح خيانةً للذات

لم يسبق لي أن رأيت هذا الكم من النقود. كانت حقائب خالتي المنقولة حديثاً إلى بيت جدي ممتلئةً بالقطع المالية الورقية، وكان أصغرها من فئة الـ «مئة ليرة»، فاستبحتها لنفسي، وأخذتها. كان جدي يقول إن عمي الشرطي، زوج خالتي، هو ابن دولةٍ، وماله مال دولةٍ، ونحن في جبل الزاوية نحلل مال الدولة وعرضها وهيبتها الأمنية، ولا نتردد بوهن عزيمتها السلطوية، ونكرهها كره الفوضويين للمركزية. لم تكن المرة الأولى التي أمارس فيها هواية السرقة، فسيرتي الذاتية المهنية، لطفلٍ يحلم بأن يصبح قرصاناً حين يكبر، كانت متخومةً بتجارب السرقة، من بيض الدجاج إلى مؤونة الحنطة إلى حذاء أمي البلاستيكي، ولكنها كانت المرة الأولى التي أسرق فيها من بيتٍ ليس بيتنا. لم أستطع أن أشتري بها حذاءً جديداً، خوفاً من انكشاف أمري من قبل أمي التي كانت تحكم بيتنا العائلي بالطوارئ والقوانين العرفية الصارمة. لم تكن أمي تحاورنا في دساتيرها الأخلاقية، ولا في قمعها لتمردنا اليومي عليها، أو في حروب استنزافها التربوية ضد كتيبةٍ مؤلفةٍ من أحد عشر طفلاً. «من أين لك هذا»، هذا هو السؤال الذي كنت أخاف أن يُطرح عليّ، فقررت أن أُنفق ما سرقته، أي المئة ليرة، في عزيمةٍ لأصحابي على قنانٍ من الكازوز، فشربنا حتى كدنا أن ننفجر. أخفيت ما تبقى تحت شجرة زيتونٍ في بستانٍ قريبٍ، لأصارع عذابات القلق والتوجس من اكتشاف مكانها، فعاودت دفنها تحت شجرةٍ أخرى، لأعاود لاحقاً نبشها ودفنها في حائط البستان، لأغيّر مكانها من جديدٍ، في حالةٍ هستيريةٍ، كمن يدفن جثة قتيلٍ؛ وهكذا دفنٌ ونبشٌ، ونبشٌ ودفنٌ، حتى أضعتها. لم تستطع خالتي، التي ما فتئت تدعي الفقر والدروشة، أن تعلن عن حالة السرقة هذه، ولكنها استدعتني للاستجواب متظاهرةً بأنها أضاعت مئة ليرةٍ في محيط بيت جدي، وطلبت مني أن أساعدها في البحث عنها، علّنا نجدها. أخذت أتصنّع البحث تصنع الشيوخ للإيمان، فوجدت صدفةً ليرةً معدنيةً قديمةً، كانت بالنسبة إلي كمن وجد كنزاً. وحين بلغت خالتي مبلغ اليأس مني اكتفت بأن أخذت الليرة كمن يقول: هذه بتلك.

كانت الليرة من حقي أنا، وهي كل ما أملك، فحقدت على خالتي التي سرقتُ مالها سابقاً، ودعوت عليها إلى الله الذي لم يسبق أن خذلني في كل سرقاتي. في اليوم التالي حلَّت اللعنة على خالتي التي اكتشفت في بيتها وجود حجابٍ مكتوبٍ على ورقةٍ مدرسيةٍ ومخبأٍ بجدار البيت، ليفجّر هذا الحجاب المملوء بالأخطاء الإملائية وساوسها حول «من يا ترى يحاول سحرها؟ وماذا يريد؟». أخذت ظاهرة الحجب (جمع حجاب) تتكاثر حتى رفعت مستوى القلق إلى ذروته. كانت خالتي نفسها خير من استثمر فعل السحر وكتب الحجب في علاقتها مع المشعوذين الذين تعرفت عليهم من خلال عمي بحكم عمله كشرطيٍ. بدأت خالتي تنفق أموالاً سخيةً في سبيل فك طلاسم الحجب هذه. لم تجد كل محاولات السحرة نفعاً، بعد أن أنهك الجن خالتي، وغيَّب قدرتها على النوم، فغارت عيناها، وشحب وجهها، وبدأت تفقد السيطرة على يديها المرتعشتين دائماً، وتحولت عدوى السحر هذه إلى كل من حاول فك طلاسمه من السحرة، فأصبحوا يعيشون كل ما وصفته لهم خالتي من زياراتٍ مرعبة من قبل الجن ومن أصوات لا يسمعها غيرها حين تكون وحيدةً، إلى عفاريت تتقمص شكل الحيوانات، ليفقد بعضهم السيطرة على نفسه، في رعشة يديه، وفي تبوله اللاإرادي على نفسه، وهكذا لينقلب السحر على الساحر. سمعت خالتي تقول إنه «إذا وصلت الحجب إلى غرفتها، فهذا يعني أن الجن قررت قتلها»، فلم ينته يومها ذاك حتى كانت الحجب في محدتها في غرفة نومها. أشار عليها جدي بأن تصلح سلوكها خيرٌ من اللجوء إلى كل من امتهن كتابة الحجب، فما كان منها إلا أن أصغت في لحظات ما قبل موتها لنصيحته، دونما اقتناعٍ، فاستدعت ابن أخيها مصطفى وأعطته - ويداها في حالة ارتجافٍ، وعيناها تعتصران ألماً، كمن يخون في إصلاحه القسري ذاته - خمساً وعشرين ليرةً. في اليوم التالي، اختفت الحجب عن بيت خالتي لتعود إليها، رويداً رويداً، صحتها وقدرتها على تصنّع الفقر والدروشة من جديدٍ. في حسرتها على أختها، أخذت أمي تلعن كاتب الحجب مهددةً ومتوعدةً بمصع (قطع) رقبته إذا عرفته. وعلى

الرغم من أن الكلام لم يكن موجَّهاً إلي أنا، إلا أنني أجبت، بسذاجة من يتصنع البراءة، على تهديداتها بوشحاتٍ من حلفان الأيمان المعظمة بأنه لا دخل لي.

* * *

عودة هنانو

ليس في ذاكرتي الكثير من لحظات الصلح مع أمي، فقد أمضيت مسيرة نضالي الطفولي في ثورةٍ عليها، إلى أن كبرتُ، وكبرتْ هي، فبدأت تثور عليّ. أطول فترة صلح اضطررننا إليها- فنحن لا نتصالح إلا اضطراراً - كانت في سنة ثمانين من القرن المنصرم. في ظهيرة يومٍ مدرسيّ من أيام الربيع، قدِمَتْ إلى مدرستنا سيارتان متخومتان بالأسلحة، قيل إن البعثيين أتوا بها في مهمةٍ وطنيةٍ. وبعد أن شربوا قهوتهم، في ضيافة مدير المدرسة، قرروا، ضجراً ومللاً، الرد على مظاهرةٍ صغيرةٍ كانت قريبةً من المدرسة، بأن أطلقوا الرصاص في كل صوبٍ. انفتحت أبواب الجحيم على قريةٍ يُسمع فيها صياح الديك، من على بعد كيلوات الأمتار، فما بالك بصوت الرصاص. كان صفي أنا آخر الهاربين، لأن أستاذنا أغلق علينا الباب قبل هروبه. لم يكن، لحسن الحظ، لمدرستنا سورٌ، فأخذنا نهرب في كل اتجاهٍ. حاصر أهل القرية المدرسة قادمين من كل فجٍّ عميقٍ، وكلٌّ جاء يبحث عن أبنائه، فمنهم من أتى بدون حذائه، حافي القدمين، ومنهم من جاء بنصف ثيابه، عاري الصدر بالمعنى الحرفي لا المجازي. أخذنا، في هروبنا العبثي في سبيل الحياة، نرقص، على أنغام الرصاص وعلى تساقطها بين أرجلنا وبجوارنا، رقصة الموت الحتمي أو النجاة بالخطأ. كانت أمي، الجَبَانة إلى حد الإفراط، تركض مع الراكضين باتجاه الرصاص، وكأنما غريزة الأمومة أقوى من غريزة البقاء. وفي لحظة لقائنا كانت ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها، مرددةً بلا توقف: «يا ابني .. يا ابني». مات من مات، وجرح من جرح، وأصبحت قريتي في حالة ثورةٍ. لم تكن مجزرة حماة قد حصلت بعد، بل كنا نحن في جبل الزاوية، كما في جسر الشغور، فاتحة المجازر. أُلقي القبض على الجرحى في المشافي، ثم تلت ذلك مداهماتٌ للمنازل، وعندما اشتدت الأزمة أرسلوا إلينا جيشنا الوطني. استخدمت أمي معي كل أساليب الترهيب والترغيب، كي لا أخرج في مواجهة العساكر حين مرورهم. لم تترك أمي صنفاً من الفاكهة إلا وأطعمتني إياه - كوني أموت حباً بالفاكهة - كي أسمع وصاياها بعدم الخروج. ولم تترك صورةً من المخيال الشعبي

القصصي عن صور الغول إلا وماثلتها مع جيشنا الذي وصفته بأن لا ضمير له ولا دينٌ، كي تخيفني منه. ومع هذا خرجت مع الخارجين، حين قدومهم، مردداً ما تعلمناه من إرثنا الثوري من أناشيد، مهددين عسكر النظام بقدوم ابراهيم هنانو الذي حرق عفش بيته زمن الاحتلال الفرنسي، وأعلنها ثورةً في جبل الزاوية: «طيارة طارت في الجو... فيها عسكر فيها ضو... فيها براهيم هنانو... راكب عضهر حصانو». لنختمها باللعنات الثورية: «يا فرنسا يا بنت الكلب من قلك تجي عالدرب». هكذا ماهينا في احتجاجنا اللفظي ما بين كل البدلات العسكرية وأشكال الاحتلال، على الرغم من أن جيشنا المحتل لم يكن فرنسياً بل سورياً مثلنا. وكنا نضيف ما تعلمناه من مدارس الدولة نفسها رابطين بعفويةٍ طفوليةٍ بين الاحتلال الصهيوني لفلسطين، الذي تملأ صور جنوده كتبنا، واحتلال عسكرنا الوطني لنا، مرددين مع إشارة النصر، نشيد: «فلسطين داري ودرب انتصاري». كان الجيش، كما وصفته أمي، بلا أي إنسانيةٍ في اعتقاله كل من وجد لديه كتباً قيل إنها ممنوعةٌ. خوفاً من تهمة القراءة، أحرقت جدتي الأمية كتب جدي، وكان منها كتبٌ مخطوطة باليد، ونسب العائلة، وهي عند جدي أغلى من روحه، فسقط مغمياً عليه، طريح الفراش مدة أشهرٍ. وحتى أنا نفسي أحرقت كتبي المدرسية للصف الأول ابتدائي، كرهاً لها، متذرعاً بالقول: «بلكي ما بيعرفوا يقروا وفكروها ممنوعة؟»، وأقصد العسكر. للأسف، لم يأتِ هنانو، فأعلنا جبلنا أرضاً محتلةً إلى الأبد. وما أطول الأبد! دامت أبدية الاحتلال هذه إلى أن خربش أطفال درعا على جدران مدارسهم مطالبين بإسقاط النظام، فأرسل حكماء النظام عسكرهم للرد. «يا إلهي ما أغباه! كيف خطر بباله أنه الناس رح تسكت على دخول زعران جيشه لدرعا؟ والله الناس لتسقطه، حتى ولو اضطرت لأكل ورق الشجر»، هكذا قال لي أخي معقباً على دخول الجيش إلى درعا. فجأة استيقظ هنانو سخطاً، بل ثورةً، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال: عاد في حنجرة غنّت «يا حيف»، وفي أخرى هتفت «سوريا بدها حرية»، وفي مظاهراتٍ جماهيريةٍ في الساحات العامة، وفي بيان ضابط جيشٍ يقول فيه: «أعلن انشقاقي عن جيش الطغيان وهذه هويتي». كم هو عجيبٌ عناد

الأطفال في استدعائه الطفولي لهنانو، وفي استنهاضه لتمرده، وفي جعله له يقوم ليهزّ في قيامه العظيم عرشاً بُني على الجماجم! كيف تراهم واجهوا، أطفال المدارس، في زنازين استجوابهم سلطة قلع الأظافر؟ ترى كم أمّاً صرخت، وهي ترتجف جزعاً، صراخ أمي المرعوب على ابنها قائلةً: «يا ابني .. يا ابني؟». موتٌ، في كلّ مكانٍ، وخرابٌ ودمارٌ واعتقالٌ ونزوحٌ، هكذا كان علينا أن نحتمل المأساة الحتمية، ضريبةً لاسترداد الكرامة، ولعودة هنانو، في سبيل عبورنا من هوة العدم إلى أرض الوجود. سنبلغها حتماً تلك الأرض، «حتى وإن أكلنا ورق الشجر»، كما قال أخي، وسنبلغها، ما دام قد عاد إلينا، وعاد فينا، هنانو. نعم يا «أولاد الكلب» يا من قتلتم أطفالنا ظلماً، واجتثثتم أعضاءهم، وحرقتم بيوتنا، وفتحتم جراحاً بحجم الوطن، لقد عاد هنانو بعد أبدٍ من الضيم ... لقد عاد، حقاً عاد.

* * *

كهنوت الوعي وثقافة الزومبي

يحكى عن أفلاطون أنه كان يعاشر عشيقته خلسةً في كهفٍ، ويمارس معها «الخطيئة» خفيةً، بعيداً عن أعين الناس ورقابتهم الأخلاقية، وأنه كتب بدافع الذنب والإدانة نظريةً، تخلط بين مفهوم الفضيلة ومفهوم الحقيقة، تسمى «نظرية الكهف»، ومفادها أن معارف الناس تبقى بعيدةً عن الحقيقة ما بقيت رهينة المحسوس وغير قادرةٍ على أن تتجرَّد باتجاه عالمٍ من الأفكار التي وُضعت في ذاكرتنا الإنسانية منذ الأزل؛ وما الحقيقة، في نهاية المطاف، سوى فعلٍ تذكري.

لم يأخذ أحد أفلاطون على محمل الجد لكونه بقي حريصاً على ارتباطه بعشيقته، يتحسسها ويتلمسها في كهفه حتى تجرّدت روحه عن جسده حين مات. وحده قسم «تحفيظ الفلسفة» في جامعاتنا السورية مَنْ أخذ الأمور على ظاهرها، دونما تمييزٍ بين المعنى المجازي والمعنى الحرفي، لينظّر كهنوته للانسلاخ عن الواقع، ضمن عمليات تبشيرٍ تلقينيةٍ تنويريةٍ تخلط بين التجرد والانسلاخ، محوِّلةً فلسفة العبث إلى نهجٍ إيمانيٍ روحانيٍ تطهيريٍ، عبر تمجيد مقولات القلق والقرف والهمِّ والغثيان. فكلُ من لا يستطيع الانسلاخ عن عالمه المحسوس يُعتبر بالنسبة إلى ثقافة الوعي الحفظي، من الغوغاء أو العامة أو البسطاء المساكين الذين يحتاجون إلى هدايةٍ أو تنويرٍ. كانت حلقات القرف (المحاضرات) طويلةً مملةً مضجرةً أكثر من خطب الجمعة، لا نتوقف فيها، نحن الطلاب، عن التثاؤب. وليس أصعب على ريفيٍ مثلي مغموسٍ مجبولٍ بالمحسوس من عملية الانسلاخ الفلسفي باتجاه ذلك المجرّد المنزوع قسراً عن المعاش. فريفنا الجبلي مجبولٌ جبلاً بالمحسوس، وحتى في أكثر عمليات التجرد، كفعل النميمة مثلاً، يبقى التجرد لدينا مجازاً مملوءاً بالمحسوس، فلا نتحدث عن بخل الجار إلا بوصفه بخلاً معاشاً، ولا عن نكايات الضرائر إلا بوصفها تجربةً ملموسةً، ولا عن كره السلطة إلا بوصفها معاناةً نعيشها وغير محكومةٍ بمنطقٍ تلتزم فيه؛ فلا مقدماتٍ تقول مثلاً: «خائنٌ كل نظامٍ يذل شعبه... نظامنا يذل شعبه... إذن نظامنا خائنٌ»، بل نقفز نحن

مباشرةً إلى النتيجة، مسلمين ببداهة المقدمات المعاشة. ما من نتيجةٍ حتميةٍ لحملات التبشير الانسلاخية تلك سوى المسخ الذي يحوّل الطالب إلى كيسٍ من الوعي التنويري الذي أسيء تعليبه. عمليات حشو الوعي، وانسلاخ الفرد عن محسوسه، تجعله يتحول إلى زومبي (كالأموات الأحياء في أفلام الرعب)، وهو تحولٌ أخطر من ذاك الذي تحدث عنه كافكا في قصته الشهيرة (المسخ). وكانت معظم طالبات الفلسفة مثالاً عينياً مشخصاً، يجسّد فعل التحول هذا؛ فطالبة الفلسفة الفهيمة تستطيع أن تميزها عن غيرها من على بعد مئات الأمتار، فتراها منكوشة الشعر وكأنها خارجةٌ من قبرٍ، شاحبة الوجه وكأنها لم تنم منذ أشهرٍ، ومترهلة العضلات، موهنة النفس، وتحمل حدبةً في ظهرها، منحنيةً في مشيتها وكأنها تبحث عن شيءٍ أضاعته، وتسحب، في مشيتها، رجليها سحباً وكأنها أرملةٌ في فترة العدة، أو كأنها تعاني من نخرٍ في العظام. أما أحاديثها، ولغة حوارها، فمحبطةٌ. ولي في ذاكرتي تجارب من الإحباط مع بشرى (هذا اسمها الحركي) التي كانت جميلةً بالرغم من وباء القلق الوجودي وتخمة الوعي الميتافيزيقي. ففي خلوة معها وفي حديث موضوعه الحس الجمالي واللغة الجمالية، وبزلة لسانٍ مني، قادتني إليها تعليقاتها عن غموض أسلوبي في الكلام، مستخدمةً تعابير من نحو: «مشتهيتك تحكي بوضوح شي مرة». ورغبة مني بالوضوح تحدثت بوحاً، كمن سُحِب منه اعترافٌ تحت التعذيب، قائلاً: «أنا مشتهيك». لم تكن جملةٌ من هذا النوع تمر، وفق تجربتي الطويلة مع النساء، دونما عقابٍ، وغالباً ما كان لطمةً على عيني اليسرى. لم أنل لطمةً ولا توبيخاً، بل سادت لحظةً من الصمت، تخللتها نظراتٌ من البلاهة، وكأنها تنتظر بقية الجملة، على الرغم من كون جملتي كانت كاملة المبنى والمعنى. ولأن الكلام بالمجرد يبقى غامضاً، جعلت عيني ترحل في جسدها متأملاً هضبتي صدرها الجميلتين كهضاب جولاننا المحتل، ومتنقلة إلى شفتيها، لتعود إلى هضابها مرةً أخرى، كمن يريد أن يقول لها: «هذا ما أعنيه بكلمة مشتهيك». كانت بشرى مسلوخةً سلخاً عن الواقع، لا تفهم لغة المحسوس، فعقّبت بعد أبديةٍ من البحلقة البلاهية بالقول: «دائما كلامك غامض إبستمولوجياً ووجودياً، وحتى أنطولوجياً، كثيف أنت وصعب الفهم». هكذا هو

فهم الزومبي لما هو معاشٌ؛ فهم خاوٍ لا روح فيه، يبقى حبيس المفاهيم التي تعميه لدرجة أنه لا يستطيع أن يفهم لغة المعاش، حتى ولو كان الحديث مثلاً عن مقتل طفلٍ تحت التعذيب.

لم أكن أنا زومبياً بالفعل، بل كنت أتظاهر بذلك، مع رغبةٍ دائمةٍ بالثأر من تحولنا الزومبي. ففي فترة دراستنا لدبلوم الدراسات العليا، حيث كان الدكتور محمود خضرة يأتي ليتلو علينا كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي، وكان عادة يسأل: «أين وصلنا؟» ليكمل من حيث انتهينا عملية التلاوة، ونكمل معه نحن فعل المتابعة بالأصابع في كتبٍ أمامنا، كنت أنا من يحرص على أن يجيب عن أسئلته، فجعلته، ثأراً من ثقافة التفريغ، ولمدة سنة كاملة يتلو علينا الفص نفسه، والنص ذاته، والصفحات نفسها، من دون أن يدري هو، أو أن يشعر معظم الطلاب بذلك؛ فالزومبيون لا ينتبهون إلى التكرار. وحين علم بذلك صدفةً حرن (زعل) وتوعد بأسئلةٍ صعبةٍ وقت الامتحان. وكانت الطرفة أنه في وقت الامتحان تأخرت ورقة الأسئلة، فكتب أحد الطلبة الإجابة من دون أن ينتظر الأسئلة. لماذا حدث ذلك؟ ببساطة لأن الأسئلة التي يطرحها الزومبي، مهما تنوعت صياغاتها ومفرداتها من طلبٍ للتحليل أو النقد أو التفسير، فهي، في حقيقة الأمر، لا تطلب من طلاب التحفيظ سوى كتابة ما قد حفظوه. ولم نكن كلنا زومبيين، فبعضنا كان يتظاهر بذلك، فقط لكي ينجح. فمن الصعب أن تعيش حقاً في قسم «تحفيظ الفهم»، إن لم تستطع أن تتظاهر بأنك ميتٌ فهماً، وهكذا فعلت أنا، وهكذا فعل حسام حين قام بالإجابة عن أسئلةٍ امتحانيةٍ، بدون معرفتها أو الاطلاع عليها. لقد تحوّل اليوم زملاء الأمس إلى مدرسين يحاضرون بطلابهم - على إيقاع أصوات القذائف التي يطلقها النظام في كل صوبٍ، وتستهدف الناس بوجودهم الواقعي المعاش - عن ضرورة التجرد عن الواقع، باتجاه الفكر والبحث عن حقيقةٍ تتسق مع ذاتها، داخل الفكر وحسب، أي حقيقةٍ لا لحم لها ولا عظم، ولا دم لها ولا روح: وهكذا يبقى الزومبي وفياً لثقافة الزومبي، ولحقيقة الزومبي.

* * *

الأمية الثقافية ومحنة اللغة اللعوب

يا إلهي، ما أصعب اللغة العربية، وما أصعب قواعدها! لم أكن في صغري أحب قواعد الإملاء، وأنا الذي يمقت كل القواعد. كانت جدتي عليا الأمية تجيب على أسئلتي عن كيفية كتابة كلمة (هذا)، هل هي بألف ممدودة (هاذا) أم بدون ألف، بالقول: «أي منهن أحلى، بألف ولا بدون ألف؟»، عند جدتي الجمال هو معيار الصواب والخطأ؛ فكل جميلٍ صوابٌ، وكل قبيحٍ خطأٌ. للأسف لم تكن نظريتها صالحةً لا لقواعد الإملاء ولا لأي قواعد، أخلاقيةً كانت أم علميةً أم لغويةً. ولم أكن الوحيد الذي يعاني من مشاكل اللغة، فسياسة البعث القومية العربية جعلتنا أميين في كل شيءٍ حتى في اللغة العربية. فحين دخولي قسم الفلسفة في جامعة تشرين، اكتشفت أن لدينا جيشاً من المثقفين الأميين. ففي محاضرةٍ حضرها كل أساتذة الجامعة، أخذ رئيس قسم الفلسفة برهان مهلوبي يضم المنصوب، وينصب المجزوم، ويصرف كل ما هو ممنوعٌ من الصرف، حتى بدا وكأنه في حفلةٍ ثأريةٍ من اللغة. لم يدعه عميد الكلية يكمل محاضرته، لأنه كان يخطئ مصادفةً في كل كلمةٍ يقولها. أما الطلاب فكان منهم من فقد حتى لغته العامية، في محاولته لقلب القاف ألفاً، فهكذا كان بعضهم يلفظ اسم «الزقزقانية» (وهي حيٌّ من أحياء اللاذقية): «الزأزقانية»، ليلفظ القاف، مرةً ألفاً، ومرةً قافاً، في الكلمة الواحدة. وحده الدكتور ابراهيم رزوق من لم يكن يعاني من مشكلة اللغة العربية، لأننا كنا نحن من يتلو المحاضرة ونحن من نتبع بالأصابع خلف من يتلو، بينما يكتفي هو بأن يحدثنا عن حياته ومغامراته في روسيا. وعانى مجمع اللغة العربية في جامعة تشرين من الأوجه الجائزة في اللغة العربية، لتجد تبدلاً دائماً في صياغة الأسئلة الامتحانية؛ فمرةً تأتي في صيغة (اختر واحداً من السؤالات التالية) ومرةً (أجب على الأسئلة التالية). طبعاً لم يصدف ولا مرةً أن استخدموا صيغة (أجب عن الأسئلة التالية). لحسن الحظ أن جيل المدرسين الجدد من أصدقائي هم في أغلبهم (بيلانج) يتقنون العامية بامتيازٍ، ويعرفون بعضاً من الفصحى (بلطشو تلطيش بالفصحى). ولا يعتقدنَّ أحدٌ بأن اللغة سهلةٌ،

ففي ذاكرتي الكثير من التجارب في محنة التعلم تكشف عن صعوبة هذه اللغة اللعوب. ففي جلسةٍ من جلسات الإملاء، كنت أتدرّب فيها على الكتابة، مستفيداً من حضور أبي الذي كان يحلق ذقنه في منتصف البيت - وأبي هذا حاصل على شهادة الصف السادس الابتدائي، وهي أكبر درجةٍ علميةٍ نالها شخصٌ من عائلة بيت هرموش في حينها - بدأت أسئلتي عن كيف تُكتب كلمةُ «مائدة»، ثم عن كلمة «المرء» و«المرأة»، وعن كل صيغ كتابة الهمزة في توسطها وفي تطرفها. وكنت، من حينٍ لآخر، أستفيد من تجاوب أبي معي، لأطرح أسئلةً ميتافيزيقيةً عن ولادتي: «كيف؟»، و«متى؟»، وأحياناً عن «لماذا؟»، وكان أبي يجيب بهدوءٍ عن كل أسئلتي، وهو الرجل طويل البال الصبور البشوش. كثرت أسئلتي في كل شيءٍ، وعن كل شيءٍ، وأخذت أحياناً شكل جدالٍ وسجالٍ يبحث عن التبرير، ولا يكتفي بمعرفة الصواب من الخطأ. وحين أخذت أسأل عن طريقة كتابة كلمة «المسؤول أو المسؤولين» كانت جراح أبي قد انتشرت على ذقنه كلها. «تُكتب على واو»، هكذا قال أبي بوثوقيةٍ حاسمةٍ جازمةٍ. عقبت أنا بالقول إن جدي يقول إنها تكتب على نبرة. أخذ أبي يفقد صبره وساد صمتٌ. أخذت ألحُّ أنا، كعادتي حين يجب ألا ألح: «وين بحط الهمزة، على نبرة أم على واو؟» لم يعقب أبي، فظننت أنها فرصتي لأهزم أبي لغوياً، بما أنني كنت على علمٍ بأنها تكتب بطريقتين، على نبرة وعلى واو. «وين بحط الهمزة في «المسؤول»؟» هكذا أخذت أكرر طرح أسئلتي وكأنني شريطٌ مسجلٌ. «وين بحط الهمزة في «المسؤول»؟»، فخرج أبي، الذي لا يطيق المسؤولين، عن طوره، بعدما سلخ ذقنه سلخاً قائلاً: «حطها بطيزه».

* * *

المثقف الفهيم وثقافة الحق على الحمار

يحكى أنه في قريتي النائية عن قرى الجوار، لم يكن هناك طاحونةٌ لطحن القمح، وكان الناس يرسلون أبناءهم إلى قرى بَلَغتها الحداثة مصادفةً، فبنت لهم طاحونةً تطحن لهم قمحهم. ولم تكن أم ثائر، الملقب بالديب، استثناءً في هذا، فعندما بلغ ابنها ثائر سن الشباب، أرسلته ليطحن لها مؤونة القمح، مُطمئِنَةً قلقه وخوفه من الخروج من قريته وضياعه، بالقول: «لا تخف، الحمار يعرف الطريق». والحق يقال، إن الحمير، عكس البشر، قوية الذاكرة، وتحفظ طرقها جيداً، ولهذا قيل فيها «إن الحمار لا يقع في الحفرة ذاتها مرتين». ذهب ثائر وصحبه خلف الحمار إلى الطاحونة، في تجربةٍ تثبت بلوغهم سن النضج. وفي منتصف الطريق، دار بين الصحبة حديثٌ عن الثقافة، لكونهم من جيل المدارس والمثقف العضوي. وهكذا أخذوا يتباهون فهماً، ويتنافسون وعياً، مرددين من حينٍ لآخر، كمن أدمن على شيءٍ لا يستطيع تركه، القول بأن «الدين أفيون الشعوب». وبما أن ادعاء الفهم أصعب من الوساوس القهرية والنزعات التكفيرية، أخذ سجالهم الفهمي شكل صراعٍ ومشاحنةٍ، كلٌّ يحاول أن يثبت أنه أفهم من الآخر. وحين بلغوا حالة التعب، قرروا أن أفهمهم هو من يحق له امتطاء الحمار، متناسين أن الحمار يحمل مسبقاً أكثر من طاقته. وتحول صراعهم الفهمي إلى مشاجرةٍ استنفد فيها كلٌّ منهم قواميس الألفاظ النابية، كحال أي مثقفٍ حين خروجه عن النصوص المحفوظة. كانت نتيجة سبابهم الفهمي، وصراعهم حول من هو الأكثر وعياً، أن سقط شوال القمح، وهرب الحمار مذعوراً عائداً من حيث جاء. ولأنه بدون الحمار لا يعرف الشباب المثقف طريقهم، أخذ كلٌّ منهم يلوم الآخر، في سبابٍ ثقافيٍ من السرة وما دون. لم يكن صعباً على أم ثائر أن تعلم بضياع ابنها المثقف بعدما عاد الحمار إليها وحيداً، فخرجت، وخرج معها بعض أهل القرية ليدركوا أبناءهم، قبل أن تأكلهم الذئاب. وحين وصولهم وجدوا أبناءهم في حالةٍ مزريةٍ، فمنهم من أكل أظافره خوفاً، ومنهم من بال على نفسه ذعراً، ولهذا أعطى أهل القرية لثائر ألقاباً جديدة منها «ثائر الشخاخ» (نظراً إلى بوله على نفسه)

أو «ثائر أبو الطحنة» (نسبة لقصة ذهابه إلى الطاحونة). والألقاب في قريتي إرثٌ راسخٌ، تماماً كما النميمة. فهكذا يمكن لشخصٍ أن ينسى اسمك، ولكن من المستحيل أن ينسى لقبك. وبقي الناس ينادون ثائر بألقابه حتى بعدما كبر، وأصبح له ترجماتٌ لكتبٍ ماركسيةٍ تنقل في صحيحها نقلاً تواترياً أقوالاً لسماحة الفيلسوف كارل ماركس. محاولةً منه بأن يغير فهم الناس لماضيه، ولواقعة الطحنة، ولألقابه التي ارتبطت بها، كتب ثائر كتاباً فلسفياً، بقراءةٍ ماركسيةٍ جدليةٍ، لفهم الماضي من خلال الحاضر، سماه «الحق على الحمار». نُشر الكتاب من قبل وزارة الثقافة السورية التي عمل فيها ثائر بعقدٍ يَمَدَّد إلى الأبد، وأصبحت أطروحة كتابه نهجاً فكرياً ثقافياً يمجِّد الوعي، واضعاً الأمور في نصابها، مستنداً إلى حدسٍ فلسفيٍ مفاده أن «ما للمثقف للمثقف وما للحمير للحمير». وحين عاد ثائر، الديبٌ سابقاً، والمفكر راهناً، إلى قريته النائية عن أوكار المدنية والصيرورات المتمفهنة، اكتشف أن ذاكرة الشارع القروي لا تنسى الماضي، لأنها دأبت على تحويله إلى تراثٍ؛ فكل ما هنالك أنها تضيف الجديد إلى القديم، ليجد أنه قد أصبح له، بفضل كتابه، ألقاباً جديدةً، من دون أن تُلغى ألقابه القديمة. وهكذا، أصبحوا يلقبونه: «ثائر الشخاخ أبو الحق على الحمار».

* * *

في مال الفقراء

كانت جدتي عليا فقيرةً لا تعرف كيف تخفي نقودها، فتضعها في طاقةٍ محفورةٍ في جدار بيتها الطيني، مكشوفةً يراها كل من يدخل البيت، من على بعد أمتارٍ. لم تكن المرة الأولى التي أسرق فيها نقوداً ليست من حقي، فلي في سيرتي الذاتية الطفولية تاريخٌ طويلٌ من السرقات كانت أمي ضحيتها. وتعلَّمَت أمي بعد سلسلةٍ من المحاولات الفاشلة كيف تخفي نقودها، فلم تعد تخفيها في درج الخزانة، ولا في فرشة نومها، أو في المخدة، بل انتهى بها المطاف إلى وضعها في مكان آمنٍ لا يصله سوى أبي بعد غروب الشمس، وهو عبارةٌ عن جزدانٍ موضوعٍ في عبها. كانت الطوَّق (جمع طاقةٍ) تزيّن جدران بيت جدتي بشكلها الفني، وهي المحفورة كأيقوناتٍ في كنيسةٍ مسيحيةٍ عتيقةٍ، وبما وضع فيها من صحونٍ قديمةٍ وكؤوس. وَضعتُ مخدةً فوق مخدةٍ لأصل إلى طاقة الكنز. لم يكن هناك سوى خمس خمساتٍ، فسرقت حاجتي وهي خمس ليراتٍ، وتركت ما تبقى. وكعادتي صرفت كل ما سرقت قبل أن يؤنبني ضميري الذي أعادني إلى جدتي حاملاً كيساً من الحلويات يسميه أهل قريتي ☒ «الغزل بنات». لم ترفض جدتي دعوتي لها بأن تشاركني أكل الحلو، وأخذت تسألني، وهي تمضغ ما أعطيتها، «من اين أتيت بالنقود؟». وكما أنا شاطرٌ بالسرقة، كنت أيضاً شاطراً بالكذب، في خبرة دفاعي عن نفسي التي اكتسبتها من مرافعاتي أمام محاكم أمي العرفية. «وجدتها في الطريق»، هكذا قلت لها. أخذت تسألني إن كان أهلي يعطونني مصروفاً، فوجدتها فرصةً لأشهّر بهم، ولآكل لحمهم نميمةً. ما من شيءٍ أحب إليّ من لعبة الثأر من أمي، فقلت فيها ما قاله الجاحظ في البخلاء. فجأةً وضعت هي من يدها غزل البنات، وذهبت باتجاه طاقة النقود قائلةً: «رح شوف أشو عندي لأعطيك». أخذت أشكرها رافضاً من دون جدوى، ورحت أصلي وأتوسل في سريرتي لربي بألا تفعل. عادت جدتي بقطعة نقودٍ من فئة ال «خمس ليرات»، لتمد يدها المرتجفة قائلةً: «هي الخمس ورقات إلك». جدتي تسمي الليرة بالورقة، وما العملة لديها سوى ورق. تحت إصرار جدتي، وبعدما كاد حبس الدموع يجرح حنجرتي، أخذت الخمس ليرات،

وأنا أمسح أنفي بكم قميصي. لم أعترف يوماً لجدتي بفعلتي بالرغم من أنها أمضت آخر عمرها في بيتنا، وبالرغم من أننا قضينا معاً ساعاتٍ من المزح والغناء وتبادل الأسرار. حين توفيت بالليل، كنت أنا من سهر معها، جسداً بلا روح، حتى الصباح، لأن أبي أراد ألا تُترك وحيدةً. قلت لها بعد أن تحولت إلى جثةٍ، وبطريقة من لا يعرف كيف يطلب السماح: «يا ستي الخمس ليرات ما كانوا من الطريق، كانوا من الطاقة، بس والله العظيم كانت آخر مرة بعملها». لا أدري كيف يسرق اليوم بعض الناس مال النازحين والمحتاجين، ولكن من خبرتي مع جدتي أقول: يا إلهي ما أصعب شعور الذنب والإدانة، وما أكره أن تسرق إنساناً فقيراً!

* * *

المسيح ودروس التسامح: التسامح طفولياً

كان لدى جدي يوسف اليوسف إنجيلٌ، أهداه إياه راهبٌ مسيحيٌّ، يتصفّحه كلما دفعه الفضول إلى معرفة دين صديقه. ولم تكن جدتي عليا تعرف لا القراءة ولا الكتابة، فكلما حملت الانجيل لتضعه مع الكتب الأخرى، كانت تقبّله ظناً منها أنه القرآن. وفي حرنةٍ من حرناتي (زعلي) عند بيت جدي أخذ جدي يحدثني بأسلوبه القصصي السردي عن كلمة الله عيسى بن مريم (المسيح)، ليزرع لدي روح التسامح في نقمتي الطفولية على أمي. كانت جدتي تكرر كلما ذكر اسم عيسى قولها (عليه السلام)، فأكرّر أنا خلفها الجملة ذاتها. «يعني للأطفال اللي متلك»، هكذا كان جدي يشرح لي قول المسيح: «لمثل هؤلاء ملكوت الله». وأسهب جدي في وصف حب المسيح للفقراء وللأطفال مثلي، لدرجةٍ جعلتني أتخيل أن الجنة ستكون حكراً على أطفالٍ يشترون ثيابهم من البالة. أغواني وصف جدي للمسيح الذي لم يدخل مدرسةً في حياته، ولم يكن ينفّذ وصايا أمه، وكان يمضي جل وقته مع أصحابه فرحت أرسم في مخيلتي صورةً لما سأكونه في المستقبل. فطفلٌ مثلي شقيٌّ، ويكره المدرسة حدّ المقت، وتعذيب أمه هو لعبته المفضلة، ووفيٌّ لأصحابه، معطاءٌ يشاركهم كل ما يسرقه من مونة البيت، يجسد بلا أدنى شك رسالة المسيح في قولها إن «السعادة في العطاء أكثر منها في الأخذ». وطفلٌ فيه كل هذه الصفات لا ينفع إلا لأن يصبح مسيحاً. ولا تنقصني الحيلة في دمج التسامح والغفران مع روح الشقاوة، فأنا، في النهاية، مسيحٌ طفلٌ. هكذا، عندما أتت أمي لتأخذني إلى البيت، كان شرطي الأول للصلح أن تغيّر اسمها من فاطمة إلى مريم. «ليش إشبو اسم فاطمة؟»، قالت أمي ممتعضةً، فساد جوٌّ لا يبشّر بالصلح. بوثوقٍ واطمئنانٍ، من خلف ظهر جدتي، أجبتها:» حتى صير مسيح»، وكأنه لا يمكن للمسيح أن تكون أمه فاطمة. تحوّلت صلحتنا إلى معركةٍ في عقر ديار جدي، فأمي تعيّرني بسرقة البيض وبوساختي، وأنا أغيظها، متقمصاً روح المسيح، بالقول «أنا مسامحك»، وكأنها هي من سرق البيض لا أنا.

* * *

أبي اللاوطني

لا أدري لماذا أُصبح حاقداً، حتى على نفسي، حين أتذكر أبي. كان يعود أحياناً مع الفجر من عمله بوصفه شرطياً، ليذهب فوراً إلى عمله الفلاحي. لم تكن الحداثة في حينها قد سادت في ريفنا الجبلي، فكان أبي يفلح الأرض عبر صمدٍ ونيرٍ ودابتي خيل. في ذهابه وإيابه السيزيفي، في حرثه للأرض، كان أبي يقتل الوقت غناءً بمواويل من العتابا. «يا الله ما أطيب صوته أحلى من أذان الفجر!»، هكذا كانت أمي تقول مدحاً بغناء أبي. لم تكن زوّادته سوى صندويشة بيضٍ مسلوقٍ وترمس شايٍ. كان يعاملني كضيفٍ، حين أزوره في فترة نضاله الفلاحي، فيقشّر لي تفاحةً ويأكل تفاحته بلا تقشيرٍ. أبي قليل الكلام في كل شيءٍ، وخصوصاً في السياسة، فحين كنت أسأله لماذا يحب أكرم حوراني يجيب: «كل الفلاحين بحبوه لأكرم». وكم هي غريبةٌ تلك الإجابات التي لا تبدأ بـ «لأن» أو بروابط السببية! هكذا هي إجابات أبي. وحين كنت أنغصه بأسئلتي السياسية عن محنة البلاد التي لا تملك قرارها وعن جبن شعبٍ أدمن الاستسلام، كان يكتفي بالقول: «بيكفي أنه لقمتنا بالحلال». لا يعرف أبي الوطنية، ولم يعشها يوماً، وليس الوطن لديه سوى الأرض. في كل ربيعٍ، وحين تزهر أشجار الكرز، كان أبي يمشي في الأرض زهواً، كملكٍ في حفلة تتويجه. «شايف ما أحلاها هالشجرة، أحلى من عروس!»، هكذا كان أبي يتغزل بأشجارٍ على وشك الحمل. كم يؤلمني تذكر أبي في غصته، وهو يأكل صندويشة البيض، ويجرع بعدها الماء من جرةٍ امتلأت بالغبار. وكم يذهلني، إلى حد الوجع، ارتباطه بالأرض، في حجه اليومي إليها، وفي حضورها الحسي في جسده، في بقعٍ من اليباس في كفيه، وفي لغته البوحية، حين يقول: «الأرض للفلاح أغلى من روحه يا ابني». لم يكن لأبي موقفٌ سياسيٌ من هجرة الأبناء ولا موقفٌ وطنيٌ من نزوح الشباب عن الوطن. حين أخبرته أنني مسافرٌ إلى فرنسا، قال لي: «يا ابني خليك هون، منبيع قطعة الأرض (الأرض التي وصفها بأنها أغلى من روحه)، ومنجوزك، ومنعمرلك أحلى بيت، وبضّل هون جنبنا، قريب منا، إش أخدك على بلاد برى، لا هني بيفهموا عليك ولا أنت بتفهم عليهن؟»

معاركي الطفولية والنضال التربوي لبعثيٍّ عتيقٍ: واقعة سرقة الحذاء

لم أكن في صغري أحب كتابة وظائفي المدرسية، لهذا كنت أكلف أمي بتلك المهمة. ولم تكن أمي الأمية تعرف سوى نسخ الكلام حرفياً عن الكتاب، لدرجةٍ يصعب معها التمييز بين النسخة الوظيفة والنسخة الأصلية. وحدها مواضيع التعبير ما كنت مضطراً لكتابته بنفسي. قال لنا أستاذ اللغة العربية «جمال» إنه علينا أن نكتب موضوعاً عن ميلاد حزب البعث العربي الاشتراكي، وحدّد لنا الخطوط العريضة لهذا الموضوع، ضمن جملٍ هي المفاتيح الأساسية للنص. منها، على سبيل المثال، «كيف انقض البعث على الإقطاع». وكان أستاذنا جمال بعثياً عتيقاً يعيش بعثيته، ككل البعثيين، عبر الحطِّ من الأحزاب الأخرى: «لينين لوطي وكل الشيوعيين لوطيين»، هكذا كان يقول الأستاذ جمال عن الشيوعيين. كان زوج خالتي ناصري الانتماء يقول: «ما حدا لوطي غير البعصيين»، ويقصد البعثيين. ولم أكن شخصياً أعرف عن البعثيين شيئاً، فلجأت إلى والدي الذي وصف ساخراً انقضاض البعثيين على الإقطاع بأنه كالكلاب المسعورة. اعتبرت الوصف مدحاً فسجلته تماماً كما قيل. وحين وصلت في سردي التعبيري عن أمجاد البعث إلى طريقة انقضاضهم على الإقطاع، انتفض الأستاذ جمال وكأنما قرصته عقربٌ: «يخرب بيتك، كلاب مسعورة يا كلب!» هكذا أخذ يصرخ، وهو يدفع بي دفعاً إلى خلف الباب، لأمضي عقوبةً تربويةً رافعاً قدماً وواقفاً على الأخرى، بطريقةٍ تحاكي استراتيجية البعث في حكمها للبلاد. بعد انصراف التلاميذ أخضعني الأستاذ إلى عملية تحقيقٍ، في سبيل معرفة من علّمني تلك الجملة. وبعد شدّ شعرٍ، وفرك أذنٍ، وكفوفٍ، تأتي دائماً من اليسار إلى اليمين في حملة تعذيبٍ عقائديةٍ، أطلق الأستاذ سراحي. ولو استمر في تعذيبه لي دقيقةً إضافيةً، لنسبت الجملة تلك لأمي التي هدَّدتها، أكثر من مرةٍ، بأني سأكتب فيها تقريراً. لم أجد وسيلةً، سلميةً أو عنفيةً، أثأر بها لنفسي، حتى روت لي جدتي عليا قصة كلبها «نجرو» الذي كان يسرق أحذية أهل القرية، فانتهى به المطاف بأن

مات مقتولاً، وقيل إنه اغتيل لأسبابٍ سياسيةٍ، لأنه سرق حذاء المختار. وجدتي هذه هي ملهمتي في كل حماقاتي الطفولية، فقررت سرقة حذاء الأستاذ. كان كل أهل القرية يجتمعون في المسجد، في صلاة الجمعة، ما عدا الشيوعيين الذين كانوا يمرون، جكارةً، من أمام المسجد، لحظة خروج المصلين، كي يقولوا للناس: «انظروا إلينا، لم نصلِ في الجامع مثلكم». طبعاً كان هذا قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، وتحول معظمهم المفاجئ إلى حجاج بيت الله الحرام، وإلى شيوخٍ يصلون في الصفوف الأمامية. وكانت قريتي منقسمةً إلى شرقيين وغربيين، حتى في مسجد الصلاة؛ فالبعثيون يصلُّون في الجانب الغربي، والآخرون يصلون في الجانب الشرقي منه. وكان المسجد في أيامها مفتوحاً للجميع، حتى لنا نحن الأطفال نلعب فيه؛ إذ كان مثل مركزٍ اجتماعيٍ يستخدمه البعض حتى للإعلان عن أشياء أضاعوها: «يا سامعين الصوت يا أهل الضيعة، اللي وجد بقرة شقرة معها عجل ابن شهرين في الحارة الشرقية إله حلوان (مكافأة) خمس ليرات»، هكذا كان يعلن من أضاع بقرته، من على سطح المسجد. طبعاً كان ذلك قبل أن تتحول المساجد إلى مخافر دينيةٍ. وكان البعثيون حريصين مثابرين على الصلاة، في سبيل كتابة التقارير المخابراتية، فقد كتبوا تقارير سياسيةً أكثر مما كتب الشعراء العرب في الحب العذري. ما إن ركع الناس في صلاتهم، وركع الأستاذ جمال مع الراكعين، حتى خرجت في غفلةٍ منهم حاملاً حذاء أستاذنا البعثي. دفنت الحذاء في حفرةٍ، في حقلٍ بعيدٍ، تماماً كما يدفن القاتل جثة ضحيته. أتى أستاذنا في اليوم التالي إلى المدرسة بحذاء أكثر جودةً، وكأنما يتحدى بذلك مؤامرةً حيكت من قبل الأحزاب الأخرى. في الجمعة التالية، كررت العملية، على الرغم من حذر الأستاذ، والتفاته الدائم عن القبلة إلى مكان حذائه. وهكذا، جاء إلى المدرسة، بعد واقعة سرقة الحذاء، بصندلٍ يشحطه شحطاً، كانسحاب جيشنا الباسل في نكسة حزيران. وتغيَّب بعد ذلك عن مهمته الأمنية الحزبية في صلاة الجمعة. كنت، من حينٍ لآخر، أرمي فردةً من أحذيته التي أتممتها في ساحة المدرسة، في حربٍ نفسيةٍ باردةٍ، كي أنال من عزيمته التربوية الأستاذوية. أزعجني توقفه عن صلاة الجمعة، فنشرت إشاعةً تقول إنه أصبح شيوعياً،

وحينما شعرت أنها لم تصله، سألته مباشرة عن مصداقية تلك الإشاعة. «أنا أصير شيوعي؟»، هكذا أجاب بامتعاضٍ واستخفافٍ من الشيوعية. «ما ناقص إلا يقولوا إني صرت من الأخوان كمان!» هكذا أضاف. وحين سألني عن مصدر الإشاعة، أجبت بأنه (الكل): «الكل عميقول هيك». والكل هذا هو دائماً مصدر الإشاعات في قريتنا. دخل الأستاذ في الجمعة التالية المسجد دخول من فتح الأندلس، ونسي حذره، ليتقدم إلى الصفوف الأمامية، مطيلاً في وقفته، وكأنه يريد من الجميع أن يرى ويشهد عودته. لم يكن صعباً عليّ سرقة حذائه، بعدما نسي هو، في مجاكرته السياسية، حذاءه، وراح يصلي في الصفوف الأمامية، سابقاً حتى إمام المسجد. ومن يومها ذاك لم يعد أستاذنا إلى المسجد، وانتشرت إشاعةٌ تقول بأنه يكتب حجباً (جمع حجاب)، ليسحر به حماته فصدَّقها الناس، بما أنه لا يُستبعد عن البعثيين أي شيءٍ؛ فكرهته القرية كلها، حتى أقاربه. وأقسم بالله، وبصلاة أبي، وبرأس أمي، أنه لم يكن أنا من نشر الإشاعة تلك. وحين طلب منا أستاذنا البعثي الجديد، الذي حلّ مكان الأستاذ جمال، كتابة موضوعٍ عن الحركة التصحيحية، كررت فيه ما قلته سابقاً في حزب البعث عن انقضاض قيادته على الفساد كالكلاب المسعورة؛ لأعترف، زوراً طبعاً، من أول كفٍّ أكلته، نتيجة صراحتي، أن الأستاذ جمال هو من علمني هذا الوصف. «معقول!»، هكذا سألني. «كاتب حجب ما بستبعد منه شي»، هكذا أضاف قبل أن يطلق سراحي، لأنتظره الجمعة التالية، في الصفوف الخلفية، في جانب مكان الأحذية تماماً.

* * *

في المعدومين فقراً

لا أدري أين كانت أمي تجد من هم أفقر منا، كي تعطيهم زكاة الفطر! كانت، قبل كل عيدٍ توزّع أموال الزكاة، تحت جناح الليل، في عرفٍ قرويّ، يتستر فيه المعطي والمعطى إليه. أرسلتني أمي، مرةً واحدةً، لأوزّع أموال الزكاة بدلاً عنها. كل محاولاتي بأن تدفع لي الأموال تلك باءت بالفشل، لأن الزكاة لا تعطى للأبناء، خصوصاً إذا كانوا أطفالًا مثلي. أمضيت كل الوقت، في طريقي إلى بيت أم عبدو، محاولاً طرد أفكارٍ تقول: «خذ المال، وقل لأم قواميس (أمي) بأنك أوصلتها لأم عبدو». رحت أصرف، في مخيلتي، كل النقود على ملذاتي الشخصية؛ فمرةً اشتريت بها طابةً بدل تلك التي صنعناها نحن من كيسٍ محشوٍ بخرقٍ قديمةٍ، ومرةً اشتريت بها بدلة رياضةٍ، كتلك البدلات التي نراها على التلفاز، ومرةً أخرى حذاء رياضةٍ، ومرةً صرفتها في عزيمة لعصابتي في فريق القدم في حفلة شرب الكازوز حتى خرج من عيوننا، وهكذا حتى وصلت بيت أم عبدو. قالت لي أم عبدو، حين فتحت الباب، بأن «تفضل بالدخول»، فتفضلت، على الرغم من أن أمي أوصتني بألا أدخل. هكذا أنا دائماً أفعل عكس ما يُطلب مني. كان البيت فقيراً خالياً من كل شيءٍ، وكانت وجوه الأطفال تغوص في فقرٍ تجاوز عتبة العدم. فإذا كانت ثيابي أنا مرقعةً، فثيابهم هم لم تكن شيئاً آخر غير الرقع. وكانت الأرض مفروشةً بحصيرةٍ ممزقةٍ من عهد الفرنسيين، وأرض البيت ممتلئةً بنتوءاتٍ عقرت خلفيتي حين الجلوس. بعد دقائق من حوار البحلقة، بيني وبين أطفال أم عبدو الذين كانوا يتأملونني وكأنني من طبقة النبلاء، أعطيتها الأمانة وانصرفت. وفي اليوم التالي، لم أترك أحداً إلا وأخبرته عن قصة المعدمين، لتكون فضيحةً في القرية، وكأنما العوز خطيئةٌ. وحين رأتني أمي بين أصحابي في عملية تأشيرٍ مستمرةٍ إلى خلفيتي المعقورة عرفت عما كنت أتحدث، فاستدعتني على عجلٍ، وعقرت ما تبقى من خلفيتي بمكنسةٍ، بينما أنا أقسم لها بأنني لم أخبر أحداً بالموضوع. قيل إن الفقر كفرٌ، والعوز فضيحةٌ، ولكن الفضيحة الحقة هو ألا

يُرى اليوم في هؤلاء المعدمين الذين ثاروا على عدمهم سوى انتماءاتهم الدينية أو الطائفية لينسى الجميع أن الفقر لا دين له.

* * *

إرهاصات الحركة النسائية السورية ما قبل العسكر

حضرت في طفولتي إرهاصات الحركة النسائية في سوريا، وكان ذلك في سنة ١٩٨٠. في بيت جدي يوسف اليوسف، اجتمعت أختي وابنة خالي وابنة عمتي حول جدتي، المنشغلة في تحضير الغداء، ليحرضنها على المطالبة بحقوقها الاجتماعية المتساوية مع الرجل: «المرأة نصف المجتمع»، قالت أختي. وكان الجيل الجديد من البنات طالبات المدارس ينقلن إلى البيت ما تعلمن في المدارس. ولم يكن مصطلح المجتمع، قبل ذلك، قد دخل قريتنا الضائعة في جبل الزاوية، ولم يمر من جوارها حتى مروراً. شَعَر جدي، الذي لم يكن يملك من المجتمع عشره، في بيتٍ تحكمه جدتي، بخطرٍ يتهدده، وهو العجوز المتقاعد عن كل شيءٍ سوى عن البقاء على قيد الحياة. «تَعَالْني لأحكي لكن حكاية»، هكذا قال جدي في محاولةٍ دبلوماسيةٍ لنزع فتيل المؤامرة النسائية. ولم يكن جدي في شيخوخته أكثر من حكواتيٍ يحوِّر التاريخ، ليجعل من نفسه بطل كل قصصه، بما أنه ما من شاهدٍ على صدقها أو كذبها، بعد أن مات أغلب أبناء جيله. لم تنطلِ الحيلة على الحركة النسائية المتمردة: «ما بدنا حكايات، قوم اطبخ لحالك، بدل مانك مخلي ستي المعترة تطبخ لك!»، هكذا أجابت ابنة عمتي. وبعد جدالٍ، فسجالٍ، فمماحكةٍ، تحول الحديث من دبلوماسيةٍ إلى شجارٍ. حاول جدي طرد أطراف التمرُّد، فانتفضت جدتي التي اختلط عليها الجد باللعب، مدافعةً عن حفيداتها، دونما أن تعي عواقب فعلتها. تحول الشجار إلى صراعٍ بين جدي وجدتي، فقفزت الحفيدات فجأة على ظهر جدي فوقع على الأرض يهدد ويتوعد، من دون أن يستطيع أن يخلص نفسه. «اهربي يا ستي»، هكذا بدأن يصرخن، وكأنما اللعبة أصبحت جداً. لم تجد جدتي سبباً وجيهاً للهروب، وهي التي ترى أن جدي بالكاد قادرٌ على التنفس بين يدي بناتٍ يدهسن جسمه النحيل دهساً، في محاولةٍ انقلابيةٍ على سلطة الرجال. «ولك اتركوه، رح يموت الختيار»، هكذا قالت جدتي، لترضخ بعد ذلك لطلب الحفيدات، لترضخ بعد ذلك لطلب الحفيدات،

ولتهرب معهن إلى بيت عمتي. بدأ جدي يضرب كفاً بكفٍّ، قائلاً: «يخرب بيتهن، ما إلي غير هالعجوز، وين أخدنها، وتركوني بين أربع حيطان؟». وذرع، بعد ذلك، البيت جيئةً وذهاباً. ولا يعرف جدي الفلاح المتقاعد شيئاً من أمور البيت، لا الطبخ، ولا الغسيل، ولا حتى كيف يحضّر إبريق شايٍ. فأخذ يحمّلني رسائل شفهيةً منه إلى جدتي، علها تعود إلى البيت. لم أنجح، في كل محاولاتي المكوكية، في أن أقنع جدتي بالعودة، لأنها كانت محاصرةً بحفيداتٍ يحاضرن بها عن حقوق المرأة والمساواة، مع قدحٍ وذمٍّ للرجال. وكاد جدي أن يحرق البيت، في محاولةٍ لتحضير الشاي، لأنه لم يكن يعرف كيف يستخدم آلة التسخين، بعد أن تحولت من ببورٍ إلى العمل على الغاز. وَجدتُها، أنا الطفل الملعون الخبيث، فرصةً، فحملت الخبر إلى جدتي التي انتفضت ضاربةً على صدرها قائلةً: «ولي .. ولي .. الله يخرب بيتك يا عليا، الرجال رح يحرق حاله!». وعندما حاصرتها الحفيدات في محاولةٍ لمنعها من العودة، شدّت زنارها، وربطت شملتها، قائلةً: «ما بدي نص مجتمع، يلعن أبو المجتمع، على أبو أهله؛ بكرة يا عفريتات، بس تكبرني، وتتزوجني، خدني المجتمع كله، مو بس نصه». وفي منتصف السنة من العام ذاته، قام البعثيون بمجزرةٍ رداً على مظاهرةٍ شعبيةٍ كانت تهتف ضد الأب القائد، ثم تلا ذلك دخول الجيش العربي السوري إلى القرية، ليضع حداً لتمرد الناس فيها، فابتلع العسكر المجتمع بمن فيه، مدخلاً الذهنية العسكرية إلى كل بيتٍ، لتحكم كل شيءٍ في علاقاتنا، حتى علاقة الزوج بزوجته أو الأب بأبنائه.

* * *

بوح نسائي وكاج افرنجي

لو كان لبوح النساء السري في تناولهن للرجال جوائز نوبل لكانت أمي قد احتكرتها كلها. حضرتُ لها، في صغري، بوحاً صوفياً موضوعه أبي، أسهبت فيه في وصف تضاريس الجسد. «ولي يا خيتي على طلته لما بيجي من الشغل! قلبي بفرخ من لما بسمع صوته في أرض الدار»، هذا كان بداية حديثها لضيفتنا الغجرية، وهي تضرب على صدرها، في شهقة من بلغ فيه الهيام عتبة الوجد. لم تدع أمي المرأة الغجرية، التي زارتنا طلباً للرزق، تمشي في حال سبيلها، بل دعتها إلى كأس شايٍ، وأمطرتها أسئلةً عن حملها، لأنها كانت حبلى منفوخة البطن، وكأنها ستنفجر. أشبعتها أمي نصائح عن كيفية النوم، والأكل، والمشي في فترة حملها، إلى أن تلد، ثم بالغت في شطحها النصحي، حول تربية الطفل ورعايته، بالرغم من أن أمي فاشلةٌ في التربية، كما هو حالها في الطبخ، وكما هو حالها في كل شيءٍ تقريباً. وتقفز أمي عادةً من موضوعٍ إلى آخر، بدون أن يكون بين المواضيع المحكية أي روابط واضحةٍ. وهكذا عادت إلى بوحها الوصفي لجمال أبي، ساردةً كيف كانت تحاول في سن عزوبتها أن تفتنه في جلسات طيشٍ على تنور الخبز، فلم يكن في زمانها من معلمٍ ثقافيٍ نسائيٍ سوى التنور: «كنت أنجل أطّلع في عيونه، يخرب بيت عيونه أشو جسرين! كنت أطّلع عليه من ورا، لم يدير ضهره، ويمشي. كان بنطرونه (بنطاله) لابسه لبس، يرسم جسمه مع كل حركةٍ، وفردات طيزه متل كاجتين افرنجيات، لما بيمشي كأنه برقصة عراضة، يعني مشوة فن، مو متلي بمشي كربجة وفشكلة، وفاتحلك هالقميص، وكاشف عن صدره، ورادلك شعرات غرته لورا، شي بياخود العقل. يخرب بيته ما أحلاه من رجال! بعد ما تجوزنا، كل ما حلق دقنه صرت أعطرله خده بإيدي، ما في أحلى من ملمس بشرة خده بعد الحلاقة. وشفايفه تقولي مرسومين رسم! يا خيتي ما بعرف ليش الرجال ما بيشبعوا من النسوان، الله لا يشبعهن فوق نسوان الدنيا بدهن حوريات! أنا ما بدي غيره، في الدنيا وفي الآخرة، وحتى في الآخرة رح خلفله عشر ولاد يعموا لُه قلبه». هكذا أسهبت أمي في استرتيجيتها النسائية

لاستنفاد قدرات أبي، عبر إنهاكه خلفةً، كي تستحوذ على السلطة. ثم استفاضت أمي في وصفها لجسد أبي في تفاصيل تفاصيله، وكأنما تشرِّحه وصفاً، أو كأنما تعاود رسمه، أو كأنها تنحت له، عبر بوحها الوصفي، تمثالاً من كلامٍ. قالت فيه كلاماً كثيراً، من رأسه إلى أخمص قدميه، بألفاظٍ حسيةٍ لمسيةٍ حتى في سرديات بوحي الفضائحية، أخجل أن أقولها. ولو كان في عهد أمي «جبهة نصرة» لكانت ماتت اغتيالاً، بحجة إشراكها بالله. «بحبه قد الله»!.. هكذا كانت تقول في حبها لأبي، بعد أن فصفصت جسده وصفاً غزلياً مشبعاً بالألفاظ الضلالية. لم تكن المرأة الغجرية وحدها من دخل في غيبوبةٍ من الدهشة والذهول من وصف أمي لأبي ولتضاريسه الجسدية، فأنا كذلك أصابني شللٌ ذهنيٌ، وأنا أتجسس على بوحيات أمي النسائية. «والله مانك هينة يا عفريتة، قال كاج أفرنجي قال!»، هكذا أخذت أردد في داخلي، بعدما جعلتني الدهشة من لغة أمي البوحية في حالة عطالةٍ.

* * *

من معاركي الطفولية:
معركة بنشرة دواليب الدولة

كنا في كل صيفٍ ننزح إلى سهل الغاب طلباً للرزق، حيث كان أبي يستأجر أرضاً في قرى لا نعرف سكانها، نزرعها خياراً وذرةً صفراء. حين انتهيت من الصف السادس ابتدائي، قال لي أبي بأنني أصبحت «زلمة البيت». هكذا وصلنا، أنا زلمة البيت وأختي عليا وأبي، إلى سهل الغاب قبل غروب الشمس. أخذنا نفتش بين أغراضنا عن فراشٍ ومخداتٍ وأغطيةٍ، لننام يومنا الأول في العراء، في صراعٍ مع البعوض الذي مصَّ دماءنا، من دون أن يعذبه ضميره. مع الصباح، بنى لنا أبي خيمةً من القش، لتحمينا من الشمس. كان أبي الشرطي يبقى معنا يوماً أو يومين، ثم يذهب ليعمل يوماً أو يومين، ثم يعود، بينما بقيت أمي الحامل، في بيتنا القروي، في انتظار الولادة. لا أتذكر أمي إلا امرأةً حاملاً (حبلى) أو أماً مرضعةً. كانت عليا أكثر مني نضجاً وحساً بالمسؤولية، وأكثر همةً في العمل، فقد كنت أتهرب من الشغل، بحجة «قضاء الحاجة»، عشرات المرات في اليوم الواحد؛ وكنت أتظاهر بالمرض حد افتعال الموت. كنا في خيمة نزوحنا معزولين عن العالم، لا تزورنا وسائل الإعلام، ولا ممثلة كأنجلينا جولي، ولا يرسل إلينا أحدٌ من المغتربين السوريين ثياباً باليةً. كنا نشتري ثيابنا القديمة من عملنا في أراضي النزوح. بعد أسبوعين أحضر أبي معه جدتي، لتساعدنا في العمل، فأصبح يجتمع على إيقاظي في الصباح، بدل العليا الواحدة، «عليتين». لم يكن لدينا ثلاجةٌ ولا تلفازٌ، ولا حتى كهرباء، وكان أقرب دكانٍ منا يبعد نصف ساعةٍ مسيراً. كنا نأكل البيض على مدار الأسبوع، حتى أصبحنا «نقاقي» كالدجاج. كانت أيام الاستراحة من العمل، في انتظار أن تكبر شتلات الخيار، مملةً مضجرةً، في غياب الجيرة، وعدم امتلاك تلفازٍ، فملأت أنا الوقت بعروضٍ مسرحيةٍ يوميةٍ أشبه بالسيرك. هكذا أنا، خُلِقت مهرّجاً بالفطرة، أصوغ نصوصي الارتجالية بمفردي. كنت أكتب، في اليوم الواحد، عشرات الرسائل، من دون أن أرسلها؛ بعضها كان شفوياً، معلناً بأسلوبٍ ساخرٍ: »من جدتي عليا إلى جدي يوسف اليوسف،

نخبركم بأن جدتي بخير، بعدما نجحنا ببناء كلة (ناموسية) تحمينا من البق (البعوض)»، هذا مثالٌ على رسائلي. ورسالةٌ أخرى كتبتها لابن خالي، وهي عبارةٌ عن جملٍ لا رابط بينها، مفادها: «عليا قالت لي أنه الوحدة لما بتولد ممكن تموت، فلازم ما نعمل شي سيئ ... أنا اللي سرق المئة ليرة من بيت خالتي... أنا ما بدي أمي تموت». وعلى الرغم من أننا كنا نسكن خارج خرائط الدولة، إلا أن سياراتهم كانت تعرف كيف تصل إلينا في مداهماتها اليومية، لتصادر لنا مضخات المياه، فتبتزّ بعض الفلاحين، ليدفعوا لهم رشاوى في سبيل استرجاع مضخاتهم، أو في سبيل إطلاق سراحهم، إذا ما تم احتجازهم. لا يحق للفلاحين ضخ المياه إلا بعد أن يشبع منها من يسميهم الناس هناك بـ «المدعومين». «الله لا يشبعهن ولاد الحرام»، هكذا كانت تقول جدتي فيهم. أخذت أجمع في عملٍ سريٍّ مسامير، لأضعها في طريق سيارة الدولة. قليلةٌ هي السيارات التي كانت تمر بجوارنا، وسهلٌ كان تمييز سيارة الأمن عن غيرها. «إذا كل واحد منا ببنشر سيارة من سيارات الدولة، منقطع أجرهن، ومنخلص منهن ليوم الدين»، هكذا كانت توسوس لي نفسي.» أيوه .. بنشرت دواليبها الأربعة والتعن دينها، خليكن تمشوا على دواليبكن يا ولاد الكلب»، هكذا كنت أصرخ في كل عمليةٍ ثأريةٍ ناجحةٍ من سيارة الدولة. وأيواتي (جمع أيوه) هي المعادل اليوم لصرخات التكبير الانتصارية. وحين تماديت في جرأتي ببنشرة الدواليب تم اكتشافي، وأخذ الشرطة يركضون ورائي، أنا الهارب في سبيل النجاة، حتى وصلت خيمتنا. خرجت جدتي على صراخي، وأنا أقول: «يا ستي، اهربي، إجت الدولة!». لم تفهم جدتي ما الذي حدث، إلا أنها كانت تستشعر بوجود معركة بين حفيدها والدولة. ربطت جدتي شملتها إلى الخلف، كما يفعل القراصنة في وضعية المقاتل، وشدت زنارها، وحملت حذاءها، وخرجت تصرخ قائلةً: «والله والله اللي بمد ايده عليه، لأقطع هالصرماية على راسه». لم تعد السيارة تنفع في ملاحقتهم لي، فأخذوا يلهثون في ركضهم خلفي، وكأنهم يركضون أول مرة في حياتهم: «تعال لهون ولاك»، هكذا كانوا يصرخون وهم يحاولون التنفس بصعوبة. كانت كروشهم أثقل من أن يحملوها. وحينما احتدمت مواجهتهم مع جدتي، التي لم تعطهم

هويتها كونها لا تحمل أصلاً هويةً، اضطررت أنا إلى أن أخوض معهم حرب كَرٍ وفرٍ. أهرب كلما ركضوا خلفي، وأعود لأُمطرهم بالحجارة بمقلاعي الذي نسجته لي جدتي. فاجأهم استبسالنا في معركةٍ أسقطت هيبتهم، فتقدم واحدٌ منهم، وقال بنبرة من يريد أن يحسم الأمر: «وهي رح أحرقلكن الخيمة». لم تكن خيمتنا سوى كومة من القش ومع ذلك اجتاحتني قشعريرةٌ، وكأنما قد تحولت الخيمة إلى وطنٍ. انتابني شعورٌ غريبٌ، كمن قبل، على خوفه وجبنه، فجأةً فكرة موته. أصبحت مستعداً لأن أموت في سبيل خيمةٍ. تعالى صراخنا، وازدادت حجارتي واقترابي منهم، ورمت جدتي بأحذيتها الشرطي، وأخذت تضرب يمنةً ويسرةً، زاحفةً مرةً، وواقفةً على رجليها مرةً أخرى. وأتى الفلاحون من حولنا، بعدما شدهم الفضول، وأذهلهم استبسالنا، فقرر الغزاة الاحتفاظ بما تبقى لهم من هيبةٍ، والذهاب قبل وصول الناس، مع التهديد بالعودة. لم أعد من يومها أزرع المسامير في طريق سيارات الحكومة؛ اكتفيت بالثأر منهم عبر السخرية. كنت يومياً أُحيي عرضاً مسرحياً موضوعه «أولاد الدولة»، مرةً على سفرة الأكل، ومرةً على كومة خيارٍ في وسط الخيمة، ومرةً على مسطبةٍ في سهرةٍ ليليةٍ. كان أبي، كلما قلدت شرطياً وهو يشد بنطاله لاهثاً مع سعالٍ وضراطٍ، يضحك حتى تدمع عيناه، وكانت جدتي تضحك من تقليدي لها وهي تحاول ضرب الشرطي بحذائها حداً يجعلها تتوسل قائلةً: «يا ابني من شان الله وقف، وجعتني خاصرتي من الضحك، رح موت بسكتة قلبية». هكذا بقينا نضحك في حفلات سيركي اليومي حتى التعب، في خيمةٍ من القش، لم يعد للدولة فيها أي هيبةٍ.

* * *

ثقب الجنة ورقصة يارا

لم تشغل بالي كثيراً قصة الجنة والنار، قبل دخولي صف العاشر ثانوي، وسكني بعيداً عن الأهل في مدينة إدلب. أسهب الشيخ عبد الرحيم، في حصة التربية الدينية (مادة العقيدة)، في وصفه للجنة، من نساءٍ فاتناتٍ، وأنهار خمرٍ، وفاكهةٍ، حداً جعل شخصاً مثلي، لا يعشق في حياته سوى النساء والعنب، يموت توقاً إلى الآخرة. والبحث عن الجنة يبقى مجازاً إن لم يجد له أساساً واقعياً يستند إليه. وشاءت الأقدار أن وجدت في مطبخ الشقة التي أقطنها ثقباً يطل على غرفة الجوار. كان هذا الثقب بمثابة صراط عبور إلى الجنة، حيث كنت أتسمر في المطبخ، لأشاهد جارتي يارا وهي ترقص في مطبخ بيتها المجاور، بعيداً عن رقابة الأهل، متظاهرةً بعدم معرفتها بأنني أراها. لم يكن يفصل بيننا سوى جدارٍ وثقب. وكانت يارا في أول صباها وأول مراحل تحولها من طفلةٍ إلى امرأةٍ. كان صدرها لا يزال في طور التكوين، ككأتين تحاولان اختراق قشرة الأرض، أو كتينتين عجرتين، وكان وجهها صافياً كصفاء الحليب، خالياً من أي تجاعيد أو شامةٍ، مشدود البشرة كقالبٍ من جليدٍ. وكانت يارا تعيش، في كل صباحٍ، طقوس اكتشاف محاسنها ومفاتنها أمام المرآة، حيث تسرّح شعرها، ثم تخربه، لتعاود تسريحه في لعبة «الهكذا أجمل أم هكذا؟»، وفي عودٍ عبثيٍ من التنقل بين جمالٍ أقل إلى جمالٍ أكثر. واكتشفت يارا في تعايشها مع جسمها الجديد سطوة الفتنة والجمال في رقصها الصوفي أمام الثقب الذي كنت أقبع خلفه في حالة غيابٍ عن كل شيءٍ سواها. كم كانت حالةً فذةً تلك التي كنت أعيشها أمام رقصات يارا التي حوَّلت وجودي إلى غيبوبات تأملٍ وجدانيٍ بلغ، في الكثير من اللحظات، عتبة النشوة. ليس في الوجود ما هو أجمل من امرأةٍ ترقص فرحاً، في نشوة الاستحواذ على قلب عاشقٍ، حتى وإن كان متخفياً خلف ثقبٍ. كانت ثيابها ترسم في كل حركةٍ منها تفصيلاً من تفاصيل جسمها. فمرةً ترسم ارتجاج نهديها خلف ثيابها، صعوداً ثم نزولاً، مع تنهيدة تعبٍ، ومرةً ترسم التصاق قميصها بخصرها، ومرةً تكشف عن ارتسام مثلثٍ على تنورتها أسفل البطن.

هكذا كنت أتأمل تفاصيل تفاصيلها، كمن يحاول أن يطبع نسخةً عنها في مخيلته. وكنت أستدعيها في أحلام يقظتي مغمض العينين، نازحاً في الخيال إلى الجنة حيث كانت كل الحور في جنتي نسخةً طبق الأصل عن يارا. ما من رومانسيةٍ في رسائلي الغرامية الأولى ليارا، فكلها كان بوحاً مشبعاً بالمحسوس، تبدأ بجملٍ فقدت مقدماتها التمهيدية من نوع: «يا إلهي قديش مشتهيكي!» وجملٍ أخرى تغوص في تفاصيل الشهوة، وأخرى تعطي أمثلةً حيةً عن الشهوة. هكذا كنت أغوص في الخطيئة، دونما خوفٍ من فضيلةٍ، لأنه في غياب الناس ما من فضيلةٍ. وفجعني الشيخ عبد الرحيم في الحصة التالية في حديثه عن النار، وفي إسهابه في وصف العذابات الأخروية، بين نساءٍ معلقاتٍ من نهودهن، ورجالٍ معلقين من أعضائهم التناسلية، كمن يتشفى، بروحٍ ثأريةٍ، من أصحاب الخطيئة، متجاوزاً، في مخيلته السادية، كل ما كتبه ماركيز دي ساد نفسه، أو حتى كل القصص الفظيعة التي تُحكى عن أقبية السجون الأسدية. هَوْل الوصف جعلني أتقيأ أول مرةٍ في حياتي، في حصةٍ مدرسيةٍ. بقيت جملة الشيخ عبد الرحيم ترن في أذني هكذا: «من يمارس العادة السرية، تأتي يداه حبلى في يوم الآخرة». صدمتني تلك الجملة لأنني كنت أمضي ثلث حياتي سراً، في عتمة غرفتي، مغمض العينين، أفكر بيارا. هل يعقل أن يعذبني الله كل هذا العذاب على خطاياي السرية؟ قال لي صديقي إياد بأنه عليّ أن أختار ما بين الله ويارا: «إما الله وإما يارا»، هكذا قال لي، بعدما تحول حبي ليارا إلى إدمانٍ، وبعدما أن أخذ حبي ليارا ينخر في عروقي كالنيكوتين. جعلتني محنة الاختيار ما بين الحب والإيمان، يارا أم الله، أبحث عن تأويلٍ للدين وللألوهة خارج فهم الشيوخ، إلى أن وجدت نصوصاً لمتصوفٍ اسمه محي الدين ابن عربي، يقول فيها بأن الله يتجلى في مخلوقاته وأن أعمق الحب هو أن تحبه في كل صوره. وهكذا خرجت مني في لحظة شطحٍ صوفيٍ، في الجواب على خيار «الإما، أو»، جملةً اسميةً سقط منها الفعل، فكانت أشبه بدعاءٍ وبتوحيدٍ معاً، مفادها: «يا ربي، يارا!»

* * *

مرحاض بيت جدي

«صحيح يا شيخ أن تعمير مرحاض فرض على كل من يملك الإمكانية؟»، هكذا سأل جدي شيخ ضيعتنا، بعد أن انتهى من صلاة الجمعة. بقيت أنا بعيداً، على الرغم من إلحاح جدي بأن أقترب منهم، كونه أنا من كَذب على جدي في فتوى بناء المرحاض. وكان جدي الوحيد في القرية الذي لم يبنِ بعد مرحاضاً، بعد أن دخلت الحداثة إلى ضيعتنا. شيخ ضيعتنا دائم الابتسامة والهدوء والثقة بالنفس، وممتلئ يقيناً قاطعاً، وكأنما كل الحقائق في جيبه. قال مرةً في صيغة النصيحة لمن يخاف من أن يخطب أمام حشدٍ من الناس: «تخيلهم أكياساً من البطاطا». كانت الخطبة، في ذلك اليوم، مملةً مضجرةً، حد الغثيان، كأغلب الخطب، ولم يتوقف الشيخ فيها عن تحريم بازار القرية. وبازار القرية هذا يحضره الباعة من كل صوبٍ، ويحضره أهل القرية كلهم؛ فتجد فيه حلقات نسوةٍ وتجمعات ختياريةٍ، ونساء تزيّنّ، وشباباً في سن الزواج يبحثون عن عشيقةٍ، وكأنه مهرجان احتفالٍ في صباح العيد. لم يرق لأصحاب الدكاكين وجود البازار الذي تباع فيه الأشياء بنصف قيمتها في قريةٍ لم يتجاوز أهلها يوماً عتبة الفقر، فاشتكوا منه إلى شيخ القرية الذي حرّمه. «طبعاً فرض يا حج مصطفى، على الأقل بتستر على الحجة عوّاش (جدتي عيوش)، وما بتخلي الناس تتفرج عليها كل ما طلعت لتقضي حاجة»، هكذا أجاب الشيخ على سؤال جدي. «ومن إمته كانت طيازنا يا شيخ فرجة للناس! طول عمرنا منخرى برى، وما حدى بيتفرج علينا»، هكذا قال جدي بانفعالٍ، قبل أن ينتقل إلى موضوع البازار، بدون أي رابطٍ، وليدخل في خطبةٍ تقريعيةٍ بلغة الحياة اليومية بما أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولا يعرف سوى قول الأشياء كما يعيشها: «وبعدين ليش عمتحرّم البازار يا شيخ؟ بضل أرخص لهلناس المعترة، ومكان بتلتقي فيه كل الضيعة. انزل يا شيخ على البازار وشوف قديش عميجتمع ناس، البس متل هالناس، واحكي متل هالناس، وخليك واحد متل كل هالناس، يا رجل اللي بيسمعك عمتحرّم لمّة الناس، بقول إنك شيخ جاي من حلب، مو شيخ ابن هالضيعة!

هادا بازار بيلتقي فيه ختيار مع ختيار، وبتلتقي فيه نسوانا وبيلتقي فيه الشب الداير على عروس والبنات بسن الزواج. هيك الناس بتتعرف وبتخطب وبتتزوج. خليهن يتعرفوا على بعض قدام عيونا، مو أحسن ما يروحوا يتلاقوا بالسرقة؟ هي سنّة الحياة لا تحرّم عليهن حياتهن. ما بتتذكر أنت لما كنت شب، كيف كنت تروح وراها لأم محمد قبل ما تخطبها. كل ما راحت تحوش حويش كنت أنت تلحقها. يا أخي هلق ما عاد العجيات (البنات) يحوشني حويش. ما بتتذكر؟ أنا مرة كعشتك (مسكتك) عمتلعب بزبك في الحفة بأرض طريشة، ما بتتذكر؟ لو كان فيه بازار ما كنت احتجت تتخبى في الحفة، وتلعب فيه». «عيب عليك تقول زبه، نحن في بيت الله»، هكذا قال أبو إسماعيل، معلّقاً على حديث جدي، قبل أن يستفسر عن الموضوع. «طيب خيو كان عميلعب في بيضاته، في الشياع تبعه»، هكذا أعاد جدي تسمية الأشياء. «أشو القصة يا شباب، خير ليش صواتكن طالعة؟»، هكذا سأل عبد المحسن، ليعود جدي ليسرد الأشياء، وفق ترتيبه الخاص، بدءاً من يلعب ببيضاته، إلى تحريم البازار، ثم قصة المرحاض. وكلما قدم شخص جديد، كان جدي يعيد شرح القصة من جديد. كم تمنيت أن تنشق الأرض لتبتلعني وأنا أعيش محنة الخزي والعار من جدي وحديثه المعيب. وللحقيقة لم أكن الوحيد في محنتي تلك، فكذلك كانت حالة الشيخ الذي أغمض عينيه، وأخذ يتمتم في شفتيه استغفاراً وحمداً لله، قبل أن يلتزم الصمت، وكأنه تحوّل هو هذه المرة إلى كيس بطاطا. «فعلاً صدق من قال: ما ناقشت عالماً إلا وغلبته، وما ناقشت جاهلاً إلا وغلبني»، هكذا قال محمد الخليل، بعد أن أرهقهم جدي في حديث المرحاض والبازار ولعب الشيخ الفاضل ببيضاته. «مين هادا الفهيم اللي قال هالمقولة؟ النقاش يا أبو محمد للتفاهم، ومانه للغلبة، أشو صار لبط بحاش؟» هذا كان رد جدي، قبل أن يخرج من الجامع، غير مقتنعٍ بفتوى المرحاض.

وعلى الرغم من عدم اقتناع جدي بضرورة بناء المرحاض إلا أن جدتي قررت بناءه، فبنى جدي البخيل مرحاضاً بدون سقفٍ، قائلاً: «إذا ما شفت السما

بختنق، ما بدي سقف، كلفة عالفاضي». في صباح اليوم التالي استيقظ جدي على صراخ جدتي، وهي تقول: «الحق يا مصطفى، إجت الدولة بدها تهد المرحاض». ولا تأتي الدولة عادة إلى قريتنا إلا إذا أرادت أن تهدّ شيئاً ما. لا أدري ما هي الحجة التي قدمها أصحاب البلدية في طلبهم لهدّ المرحاض، إلا أن جدي لم يتركهم يكملون قراءة بيانهم، إذ خرج حاملاً عصاه، يزأر زئيراً، وهو يقول: «هي الأرض أرضي، والمرحاض مرحاضي، روحوا على الجولان اللي عبته إسرائيل مراحيض، وخريت عليكن، مو جايين تتمرجلوا على مرحاضي أنا!». حاول موظف البلدية أن يُفهم جدي بأنه مجرد عبدٍ مأمورٍ، فزاد الطين بلة. «ومن إيمته عندنا في الجبل عبيد؟ والله إن ما رحتوا من هون لكسر هالعصاي عليكن»، هكذا قال جدي، وهو يهز عصاته. وبعد عملية كرٍ وفرٍ، كاد موظفو البلدية أن يفقدوا فيها حياتهم، انصرفوا على أمل العودة في غيابه. شغّلنا جدي بعد ذلك نواطير لمرحاضه، وأخذ يطوف على البيوت قائلاً بأن الدولة تريد أن تهدّ مرحاضه، ليكسب دعمهم، حتى إننا قضينا ليلة القدر، في تلك السنة، نقوم الليل في الجامع، ضمن حلقات لعنٍ للدولة، ما أزعج شيخ الجامع. كان جدي يقول في الشيخ: «من لما تعلم شيخنا من شيوخ حلب، غشاشين الزيت، تحوّل جامعنا لمخفر دين». ولم يترك جدي بازاراً إلا وشهّر فيه بالدولة المعتدية، وهكذا انتقلت قصة مرحاضه مع باعة البازار من كنصفرة إلى كفرنبل، ومنها إلى المعرة، فحلب في الشمال.

وبقي جدي مصطفى السليم ناقماً على الدولة، إلى أن دنا أجله، وأخذ في محنة احتضاره، بعدما أصابه انسداد المسالك البولية، يدعو الله قائلاً: «يا ربي، ما بدي غير روح على المرحاض لشخ!». وكان في كل صحوةٍ، من غيبوبات احتضاره، يُفرط في طلب السماح من جدتي، على عادة أهل الجبل الذين يؤجلون طلبات السماح من نسائهم إلى ما قبل الموت، ويعاود رواية حلمه الذي يرى فيه أمه، وهو الذي عاش حياته يتيماً، وهي تقول له: «يا ابني اشتقتلك»، ويسبّ على الدولة، كمن يسجل وصيته، وهو يقول: «لا تخلوا الدولة الملعونة، من بعد غيبتي، تهد المرحاض».

* * *

يوم استفردت النساء بأبي

هرباً من الملل والضجر، كانت النساء تجتمع في غرفة نزوحنا الموسمي، في سهل الغاب، لتمارس فعل النميمة على الرجال. عادةً يعمل الناس، في سهل الغاب، أسبوعاً، ويستريحون أسبوعاً، في جوٍّ حارٍّ، ونُهُر صيفيةٍ طويلةٍ تجعل الناس تكرّر نميمتها عشرات المرات، وتعاود تناولها للشاي أكثر من مرةٍ. اعتاد أبي أن يأخذ قيلولته في فترة تجمع النسوان النمّامي في غرفتنا اليتيمة. هكذا كانت النساء تراقب تحركات أبي الذي يرتدي جلابيةً واسعةً وتحتها كلسوناً واسعاً أيضاً تتدلى منه خصيتاه، ظاهرتين للعيان، في حالة استهتارٍ ولا مبالاةٍ وتجاهلٍ لبصبصات النسوة. كانت تنهيدات النسوة تعلو وتخبو على وتيرة حركات أبي الاستعراضية، في غيبوبات قيلولته، وفي تكشف خصيتيه واحتجابهما، ليتحول تنفسهن أحياناً إلى نشيجٍ تنهديٍّ كمن يشكو من مرض السل. ما إن ذهبت النسوة من بيتنا حتى علا صوت أمي الامتعاضي كطائرةٍ نفاثةٍ وقد فتحت جدار الصوت: «فاتحلي سيقانك، ومدندل خصواتك، قدام اللي رايحة واللي جاي؟»، هكذا أخذ صوت أمي التقريعي يردح في غرفتنا مفتوحة الشبابيك المطلة على دور الجوار. اضطر أبي بعد موشحات اللوم والتأنيب إلى أن يرتدي صاغراً سروالاً تحت جلابيته، على الرغم من حرّ الصيف. أخذت جارات أمي، في الأيام التي تلت واقعة دندلة الخصيتين، يطلقن رسائل شفهيةً رمزيةً موجهةً لأبي المتمسك بسرواله في قيلولاته منها: «أشو هالشوب يا خيتي، والله والله لو كنت رجال لكنت طلعت من تيابي!». ولم يقع أبي في خطيئة الاستهتار، بعد تلك الواقعة، سوى مرة واحدة. كان ذلك حين قرر أن يحفر جورةً في قناة الري، كي يسقي بستان القطن، لأن الدولة قطعت مياه القناة، فأصبحت شحيحةً، فاضطر أبي إلى حفر جورةٍ عميقةٍ تستجلب ما تبقى من مياهٍ، وتجرها إليها، لتمكّنه من تشغيل المضخة. من شدة الحرّ، نزع أبي عنه كل ثيابه، مستبقياً فقط كلسونه القطني الطويل الذي بللته المياه، فالتصق على جسمه، ليفضح مناطق يُفترض أن يسترها. «قويك الله بالعافية يا أبو يوسف»، هكذا فاجأت أم عبدو بسلامها أبي.

«قويكي الله بالخير»، أجاب أبي، وهو يدور على نفسه، بغية تجنّب أن يرى نفسه مرئياً. «يلعن أبو هالدولة، كل سنة نفس القصة، بيقطعوا المي لما لازم يجيبوها، وبجيبوها لما ماعاد فيه حاجة إلها»، هكذا قالت أم عبدو، وهي تجلس على الأرض، وكأنها قررت البقاء. «كأنه إلهن معنا تار، ولاد الستين ألف كلب»، أضافت أم عبدو، وهي تفتح كيس زوادتها، مرسلةً عينيها تسرح وتمرح في جسد أبي المفضوح. «قويك الله بالعافية يا أبو يوسف»، هكذا قالت أم سليم التي وصلت للتو، لتجلس بجانب أم عبدو، قبل أن تبدأ موشح سب الدولة، وحفلة البصبصة على أبي. ثم بدأت النساء يتواردن، مجتمعات على طرفي القناة حول أبي. واحدةٌ أخرجت بذور عباد الشمس، لتفصفص، وكأنها تشاهد فيلم سينما، وأخرى خلعت حذاءها، لتفرغ ما تجمّع فيه من ترابٍ قائلةً: «يلعن أبو هالعيشة، مغمسة بالتعب والشقا». «قويك الله بالعافية يا أبو يوسف»، هكذا ألقى عبد الحميد الخليل التحية على أبي مضيفاً بدون أن ينزل عن جحشته وبدون أن يتوقف، «شايف حالتك حالة، والله علّقك بإيد هالنسوان ... حلني عن الزلمي يا صبايا... يخرب بيت النسوان ما أدبقهن!». «وينها فاطمة؟»، سألت مريم، وهي تربط شملتها إلى الخلف. وفاطمة هي أمي، والتي لو كانت حاضرةً حفلة استفراد النساء بأبي، لأصابتها سكتةٌ قلبيةٌ، ولأصبحت أنا يتيماً بلا أمٍ ترقع لي ثيابي. «في البيت»، قال أبي الذي لم يكن يتكلم إلا إذا وجهت اليه الأسئلة. «والله هالحردون كبران، صاير زلمي»، قالت خديجة. والحردون هو لقبي الذي ورثته عن عمي، تماماً كما ورثت عنه اسمي. ثم أخذت النسوة يتحدثن عني، أنا الذي يتفرج على النسوة اللواتي يتفرجن على أبي؛ فواحدةٌ تقول بأن عيني تشبه عيني أمي، وأخرى تقول بأن شفاهي تشبه شفاه أبي، وأخرى تقول بأني سأصبح أزعر مثل أبي حين أكبر. وبينما كان أبي يستمر في الدوران حول نفسه، متصنعاً العمل، لعدم قدرته على الخروج في زحمة العيون النسائية التي تراقبه في كل حركةٍ، جاعلةً منه موضوع تلذّذٍ نظريٍ، كانت النسوة يتحدثن عنه في حضوره، وكأنه غائبٌ، ويتغامزن ويتلامزن في استخدامهنّ لكلماتٍ حمّالة أوجهٍ، معظمها ذو دلالاتٍ جنسيةٍ. وفي حين كان حديثهن يطلع وينزل في مستوياته،

لم تتجاوز نظراتهن البحلقية لأبي مستوى الصرة. «قويك الله بالعافية»، قال الحج إبراهيم العفلوك. «يلعن أبو هالدولة اللي رح تخلينا نحفر قبرنا بإيدنا إذا ضلت على هالحالة!»، هكذا قال، قبل أن يتوجه لمجموعة النساء المتمركزات على ضفتي القناة: «يخرب بيتكن! شايفات الزلمي في الزلط، وما خرج يطلع طالما أنتن محاصراته! رحني على بيوتكن، واتركني الرجال يطلع!». وهكذا بفضل إبراهيم العفلوك، انفض حصار النساء لأبي. وللنساء قدرةٌ على نشر الخبر تتجاوز الاتصالات السلكية واللاسلكية؛ ولمعرفة أبي بأن الخبر سيصل حتماً إلى أمي، قال لي، ونحن في طريقنا إلى البيت: «الله يستر، اليوم علقتنا علقة مع أمك، ويمكن تبيتنا برة، والله لياكلنا البق».

* * *

حرامٌ في حلب، حلالٌ في جبل الزاوية

قرر الشيخ حسن القادم من حلب أن يكون كتب كتاب مريم من سليم وعقد قرانهما وعرسهما في يومٍ واحدٍ، بينما كان كتب الكتاب عادةً، في جبل الزاوية، في يومٍ، والعرس في يومٍ آخر. «هيك أسلم شرعاً»، هكذا قال الشيخ القادم من حلب. والشيخ حسن هو أكثر شيخٍ غريبٍ طالت إقامته في القرية التي بقي فيها شهراً كاملاً، بينما لم يُقم الشيخ الحموي، الذي قبله، أكثر من أسبوعٍ، لرفضه عقد زواجٍ بالخطيفة. في حلب الأمور أكثر انضباطاً من جبل الزاوية الذي كان يعيش أهله، في حينها، كيفما اتفق. تفاجأ الشيخ، حين وصوله بيت أهل العريس، باجتماع كل أهل القرية في حلقات دبكةٍ تتقدمها النسوة، فأعلن، فور اجتماعه بوجهاء القرية، بأنه لن يكتب الكتاب حتى يتم فصل النساء عن الرجال، مبرراً رفضه بأن دبكتهم الجماعية تلك حرامٌ شرعاً. «أشو حرّم الدبكة يا شيخ، ما طول عمرنا مندبك في الأعراس؟»، هكذا قال أبو العريس الذي حاول إقناع الشيخ بكتب الكتاب. «أنا بكل رمضان بختم كتاب الله، وما شفت فيه حرمة الدبكة»، هكذا عقّب أبو إسماعيل. «أهل العلم في حلب لا يرضون بهذا يا جماعة، الله يرضى عليكن، دبكة النسوان والرجال سوا حرام»، قال الشيخ. «يا شيخنا، الدبكة حرام في حلب، حلال في جبلنا، فلا تفضحنا مع المعازيم»، قال أبو العروس. «الاختلاط هو سبب الحرمة، يا جماعة الخير». قال الشيخ، وهو يُصلح عمامته. «يا شيخ، طول عمرنا مخلوطين خلط، الله وكيلك منّام تلت عيل في غرفة وحدة، وأبو إسماعيل بنيم حتى البقرة مع عيلته في البيت». قال محمد الأعرج. لم تنجح كل محاولات وجهاء القرية بإقناع الشيخ المُصرّ على رفض الدبكة. أصبح الناس يتململون، فدخلت أم العريس، لتعرض على الشيخ عنزتها كحلوان (هدية) كتب الكتاب. لم تفهم شرح الشيخ لها لأسباب رفضه لكتب الكتاب، فأخذت تضرب يداً بيدٍ، وهي تقول: «عليّ ستين طلاق ما بتطلع من البيت لتكتب الكتاب!». لم يسبق للشيخ أن سمع امرأةً تحلف بالطلاق، فأخذ يبحلق باندهاشٍ في الناس حوله. أخذ الناس يتوافدون إلى البيت،

بعدما علت الأصوات في داخله، ليصبح الطبّال وأصحاب العتابا في وسط البيت. «سمعونا بيت عتابا يا شباب للشيخ!». هكذا قالت أم العروس، تكريماً للشيخ، وتشجيعاً له، كي يكتب الكتاب، فصدحت الأصوات بالأوف واليابا، وكأن العرس عرس الشيخ. أخذ الشيخ يسبّح ربه، مغيّراً مسبحته من يدٍ إلى يدٍ، كأنه يحاول أن يستدعي عوناً إلهياً يخلّصه من أناسٍ لا يفهمون شرع الله، بعدما أغلقت حشود الناس طريق الخروج. «جيبوا نظير، هادا الشيخ بحتش، وراكب راسه، وما رح يكتب الكتاب!». قالت العروس، بعدما فقدت صبرها. و«نظير» هذا أسطورةٌ من الأساطير، أشبه بالغول في قصص الأطفال، وقد شيّب الفرنسيين في زمن ثورة الجبل. وقيل إن له فهمه الخاص لشرع الله، حيث إنه أجبر ثلاثة شيوخٍ على أن يكتبوا له كتابه على خديجة التي خطفها من أهلها في حماة. «هالمخلوقة بتحبني، وأنا بحبها، وهي رايدتني، وأنا رايدها، وبدنا تزوجونا اليوم على شرع الله وسنة رسوله، غصباً عن أهلها، وعن اللي بيرضى واللي ما بيرضى»، هكذا قدّمها للشيوخ الذين كتبوا له الكتاب، من دون أن يسألوه عن اسمه. «يقبرني، مع الناس متل الوحش، ومعي متل الطفل الصغير». هكذا كانت تقول فيه خديجة. ولا يمشي نظير بدون خنجره في خصره، وخيزرانته في يده. ويقال إنه إذا ضرب الشخص ضربةً يرسله فوراً إلى الآخرة. «والله لدبكه اليوم على أجر وحده لهالعرصة». هكذا سُمِع صوت نظير خارج البيت قبل دخوله. وما إن دخل نظير حتى قال: «السلاااااام على من اتبع الهدى، يا جماعة الخير، ما في حدا غريب في الضيعة، غير شيخنا، ورح انجوزه جميلة، وبصير منا وفينا، وعرس سليم اليوم، وبكرة عرس شيخنا، سمعونا الفاتحة». وجميلة هذه هي امرأةٌ مختلةٌ عقلياً بلغت سن العنوسة لرفض الشباب الزواج منها. كتب الشيخ بعدها الكتاب مكرهاً، وحضر حفلة الدبكة مكرهاً، وكان يهز رأسه مكرهاً، ليحيي كل من هتف له بالقول: «شابوش خمس ليرات لشيخنا حسن خطيب جميلة». لم ينم الشيخ ليلته تلك في القرية، فهرب قبل شروق الشمس، وقبل أن يزوجوه من جميلة. وهكذا، يكرر اليوم التاريخ ذاته،

على شكل مسخرةٍ؛ ففي زمن محنة «الموت ولا المذلة» حاولت بالأمس عصابةٌ ترفع راية الإسلام فرض معتقدها على أهل كفرنبل، فدخلوا مدرسةً واعتدوا على مدرسيها فقط، لأنهم يدخنون السجائر، وقيل لهم بأن التدخين محرمٌ، في شرع شيوخ السعودية. يا جماعة الخير، التدخين حرامٌ في السعودية، حلال في جبل الزاوية، فافهموها، وحلوا عن دين الناس ... ولك وينك يا نظير!

* * *

محنة حنينٍ

لم تكن المرة الأولى التي آخذ فيها حماماً بكل ملابسي، لكنها كانت المرة الأولى في كندا. دخلت الحمام من دون أن أنزع حتى حذائي. سندت رأسي على الجدار، وتركت مياه الحمام تغمرني كزخّ المطر. أخذَت الصور تتداعى في ذهني، بلا أي روابط تجمعها؛ صورةٌ لي في سيارةٍ تقلني من الدامور في شمال لبنان إلى الجنوب، وصورةٌ لي في مطار دمشق في رحلةٍ إلى فرنسا، وصورةٌ لبتول وقد فتحت أزرار قميصها وكشفت عن تفاصيلها قصداً، وصورةٌ لي في مطار هيثرو في لندن في جلسة تحقيقٍ. لم أعد اشعر بما حولي، عندما بدأ تداعي الذكريات يذهب بعيداً في الزمن. كنت واقفاً، فجلست في البانيو، بعدما سددته، لتغمرني المياه. لم يعد التداعي مجرد صوَرٍ، بل تحوّل إلى أصوات ضحكاتٍ وجملٍ كاملةٍ لم يسبق لها أن انتهكت ذاكرتي. كل التداعي كان ينزح إلى طفولتي. فصورٌ لأول يومٍ لي في المدرسة مع ملمس كتبٍ جديدةٍ. كان للكتب الجديدة رائحةٌ تملأ الأنف وألوانٌ جذابةٌ. لكل شيءٍ في حينها طعمٌ ومعنىً: مدفأة بيت جدي الطيني، صورة جدي وهو يقرأ القرآن، تكرار جدتي لجملة: «يلعن أبو الزلم، ما أقل شرفهن!»، شجارنا حول سفرة إفطارٍ في شهر رمضان، دعاء أمي وهي تقول: «الله يكبرك ويريحني منك!»، خيام الغجر في أرض البيدر، ملمس سنابل القمح في موسم الحصاد، هروبي من الناطور بعد سرقة العنب. أخذت أتكور على نفسي وأتقلص، حينما جعلتني الذاكرة أرى نفسي صوتاً وصورةً، وأنا أسأل ابن خالي من على شجرةٍ في تلةٍ من تلال قريتنا: «أشو اسمها هالضيعة؟»، هكذا سألته، وأنا أشير بسبابتي إلى قريةٍ مجاورةٍ، وكأنني اكتشفت للتو بأن ثمة عالماً حولنا. «هي كفرنبل»، هكذا أجابني. «طيب واللي بعدها؟ اللي بعدها في الأخيييير، آخر شي؟»، هكذا أخذت أسأل، مشيراً إلى آخر نقطةٍ بدت لي في الأفق، حيث تلتقي السماء بالأرض. «ما في غير آخر الدنيا»، هكذا أجاب ابن خالي. «بس أكبر رح روح لآخر الدنيا»، هكذا ختمت كمن يقطع عهداً. أصبحت، في تكوري في البانيو، كجنينٍ في رحم أمه؛ ألمٌ في الحنجرة، ومغصٌ في البطن، كمن يحاول عبثاً

أن يهرب من ذاكرةٍ أطبقت عليه. مع ألمٍ ممزوج بالندم، وفي محنة تكوري في بانيو في آخر الدنيا، رحت أصارع صوتاً حبسته في حنجرتي، وابتلعت جمل حنينه التأنيبي لي، وهو يقول: «من آخر الدنيا، أريد الرجوع إلى طفولتي».

* * *

قَصولي ياه، ولاد الكلب

«قصولي ياه»، هكذا قلت وأنا ارفع جلابيتي. «قصولك ياه، ولاد الكلب»، هكذا قالت بسمة، وهي تتأمل بفضولٍ عضويَ المقصوص. لم يكن طهوري حدثاً عابراً، إذ إنه تحول إلى أول ثورةٍ أخوضها في حياتي. ما من محاكم يلجأ إليها الأطفال، في حال طهورهم، فلجأت إلى الساحات العامة. كانت الناس في الرقة تحوّل طقس الطهور إلى حفلةٍ شعبيةٍ، إلا أن أهلي الريفيين فضّلوا أن يتكتموا على فعلتهم. كانت أمي تضرب بيديها على صدرها كلما رأتني أرفع جلابيتي أمام أطفال الحارة، لأكشف عن عضوي المقصوص، مكرراً ما تعلمته من جارتي الرقاوية بسمة، قائلاً: «قصولي ياه، ولاد الكلب». «فضحنا هالحردون»، هكذا كانت أمي تقول بعدما أوهنت نفسيتها، عبر التشهير بها وبأبي. لم ينفع معي خطابها التحريمي ولا إدانتها بمفاهيم العيب الاجتماعي لحملتي الإعلامية التشهيرية، إذ إنني لم أترك طفلاً في حارتي ولا صاحب دكانٍ إلا وأخبرته عن جريمة قصّهم لعضوٍ من أعضاء جسدي. فحتى الخوجا (مديرة حضانة الأطفال في حينها) جعلتها، بدون استئذانٍ، وبحركة سحبٍ من جلابيتي، تشاهد ما تم قصه. لم أكن أحتاج في حملاتي التشهيرية سوى لسحب جلابيتي، إذ إنني لم أكن أرتدي بنطالاً حينها، في مدينةٍ لا يرتدي فيها المحافظ نفسه بنطالاً. «كيف كان قبل؟»، هكذا سألتني مريم، وهي ترف بعيونها دهشةً واستنكاراً. وعلى الرغم من أنني لا أتذكر كيف كان سابقاً ولم أكن أدرك قيمته الأخلاقية والسياسية والوجودية المحورية الذكورية إلى أن تم قصه، إلا إنني رحت أبالغ في وصفي لما كان عليه قبل القص. «هالقد كان قبل ما قصوه ولاد الكلب»، هكذا أجبت على أسئلة مريم الاستفسارية. لم يدم صراع تأكيد الذات طويلاً، اذ اجتمعنا أنا وزلمة البيت أبي على طاولة حوارٍ تساوميةٍ، فرضت كل ما أريد من مطالب طفوليةٍ استحقاقيةٍ. وفي محاولته لكسب الود وتهدئة الأجواء، باح لي أبي أنه هو أيضاً خضع لعملية القص تلك، وبدون إرادته. انفجر أبي ضحكاً، عندما فاجأته بموقفي التعاضدي، وأنا أمسك بيده قائلاً: «قصولك ياه، ولاد الكلب؟!».

عقلية الإجماع (الكل)

في جلسات الختيارية في بيت جدي كان يتمُّ تناول كل قضايا الحياة الاجتماعية، على صعيد الحكي، لا على صعيد الفعل. وكثيرٌ من المواضيع كانت تتحول إلى سجالاتٍ ختياريةٍ خلافيةٍ غالباً ما تنهيها جدتي عليا بالضربة القاضية. «ما في إجماع علماء يا حج ابراهيم، والفقه علم رأي، لا أكتر ولا أقل، بيختلف من زمان لزمان، ومن مكان لمكان، لهيك ما في إجماع علماء، فمين هالعلماء اللي أجمعوا، وعمتستشهد فيهن؟»، هكذا قال جدي في رده على الشيخ ابراهيم الذي كان يحتمي بإجماع علماء الدين في كل قضيةٍ يتناولها، وكأن كل الامور مبتوتةٌ، غير قابلةٍ للسجال، واضحةٌ، نالت في سالف الأزمان إجماع علماء الدين. «الكل، كل العلماء أجمعوا يا أبو محمد»، هكذا أجاب الشيخ ابراهيم. وانتقلوا، بعد ذلك، إلى أحاديث النميمة عن امرأةٍ اسمها مريم، قيل بأنها امرأةٌ لعوبٌ (فلتانة) تغوي الرجال ولا تحترم العيب الاجتماعي. «عمتظلموها للمرة، حرام عليكن، منين جايبين هالحكي؟»، هكذا عقّب جدي على حديث الحاج ابراهيم النميمي. «الكل، كل الناس عمتحكي عنها هيك»، هكذا، أجاب الحاج إبراهيم، وهو يستغفر ربه، ماسحاً لحيته. لم تستطع جدتي عليا أن تتمالك نفسها، بعد «كُلّات» (جمع كُلّ) الشيخ ابراهيم وبديهياته القطعية الجازمة في النميمة، كما في الدين، فتقدمت حاملةً صينية الشاي، وهي تقول: «يخرب بيت هالكل، ما أقل أصله، وما أقل ضميره! الله وكيلكن هالكل هو سبب كل مصايبنا وبلاوينا، والله وتالله لولا العيب لأبصق بنص وجهه».

تغيرت جلسة الختيارية على عجلٍ، فكانوا ممدودي الأرجل فطووها، وكانت أصواتهم عالية فساد صمتٌ.

«مين قصدك يا أم محمد؟»، هكذا سأل أبو جميل. «الكل يا أبو جميل، ليش في غيره هالابن الحرام؟ الكل، الله يخلصنا من حيونة الكل وغشم الكل». في هذا الجو المشحون، كانت الهريبة ثلاثة أثلاث المراجل، فنهض جدي واقفاً ليقول

بعد محنة الصمت المطبق: «خلونا نطلع يا جماعة لبرا، اختنقنا، على المصطبة برا الهوايات أحسن». وحتى من على المصطبة خارج البيت كنا نسمع صوت جدتي وهي تقول من داخل البيت: «نعمى، نعمى، يخرب بيته هالكل ما أجحشه!».

* * *

العلقة بلسان النسوان

أحمد الجديرو، صديق أبي، رجلٌ حسن المعشر، حلو اللسان، طويل القامة، واسع العينين، نموذجٌ للجمال الرجولي في جبل الزاوية. كان كلما مرَّ مستعجلاً في قريتنا دعاه أبي إلى كأسٍ من الشاي، ليتحول مروره المستعجل إلى إقامةٍ لأسبوعٍ أو أسبوعين، في قريةٍ ما من قيمةٍ للوقت فيها. عمل مرةً في النجارة، منتقلاً في قريتنا من بيتٍ إلى بيتٍ. في بيت عمتي، التفت النساء حوله، وهو يقص الخشب، ليصنع خزانةً. «يخرب بيته على هالعيون، ما أحلاهن!»، هكذا قالت سارة، في جلسة شرب الشاي، حول النجار أحمد صديق أبي. «في كل الجبل ما فيه بطوله وبقامته، سبحان اللي خلقه!»، هكذا قالت عمتي. «يا أحمد، قوم وقف لشوف»، هكذا قالت جميلة، ليقف أحمد، دونما تردد، وهو مستغرقٌ في أخذ القياسات. بدا عليه أنه متعودٌ على حديث النساء عنه في حضوره وكأنه غائبٌ. غيَّرت النسوة إبريق الشاي بآخر جديدٍ، لتغير الجديد بآخر أجَدّ، في جلسة البحلقة على أحمد. لم يدعن شطراً من جسده إلا وأفرطن في مدحه، في لغةٍ استعاريةٍ مجازيةٍ تقارب بين تفاصيل الرجال وتفاصيل صحن الكنافة. «اشلح الشمله لشوف»، هكذا قالت خديجة، ليشلحها أحمد، ثم ليعاود وضعها، عندما قالت سارة بأن الشملة «بتلبقله أكتر»، وأنه أحلى بالشملة. «الله لا يعلق حدا بلسان النسوان، ما بدكن يشلح الجلابية ويطلع من هدومه كمان؟ حلني عن الرجل، قرض أصابعه، وهو عميدق المسامير!»، هكذا قال خالي، عندما وصلت الأمور إلى طلبات نزع الشملة. «يا ريت .. يا ريت... إي والله يا ريت»، هكذا أخذت كل واحدةٍ منهن تردد في تعليقها على اقتراح خالي عن خروج أحمد الجديرو من ثيابه.

* * *

ذهنية الأمجاد الغابرة

"فتح أجدادنا العالم من الهند حتى الأندلس في إسبانيا، ولو عدنا إلى نهج الأجداد لكنا في مقدمة الأمم"، هكذا كان يقول لنا الشيخ عبد الرحيم في كل حصةٍ من حصص الدراسة في زمن محنة خدمتنا القسرية في المدرسة الحكومية. لم يكن يحدثنا أستاذ التربية الدينية سوى عن أمجاد الفتوحات العسكرية. وحين سأله طالب من الطلاب عن أمجاد الأجداد الأخرى غير تلك التي سطّرها حاملو السيوف وراكبو الخيل، أجاب الشيخ الجليل، الذي لم يقرأ كتاباً واحداً في العلوم، بالقول: سأترك لكم أن تكتبوا مواضيع عنها للأسبوع القادم. وحين عرضنا عليه ما اخترناه من مواضيع، حذف كل ما يتعلق بالفلسفة والفن والأدب، تاركاً لنا جانب الإنجازات العلمية كي نكتب عنها، معقباً بالقول: «ابتعدوا عن الفسق، واكتبوا عن الأمجاد فقط».

ذهبنا على إثر ذلك في رحلةٍ بحثيةٍ طلّابيةٍ جماعيةٍ إلى المركز الثقافي في مدينة إدلب ننبش في الكتب بحثاً عن أمجاد الأجداد. فجعتنا كتب السيرة والتاريخ التي تتحدث عن ذبح الأجداد للأجداد، وعن هدمهم، في صراعاتهم السياسية فيما بينهم، لبيت الله الحرام في مكة المكرمة. وفجعنا تاريخنا المملوء بالفتن والحروب والصراعات، وقتل العلماء، وحرق كتبهم، وحتى أنه ينقل عن أبي حيان التوحيدي أنه حرق كتبه بنفسه لاعناً جهالة عصره وخواءه الثقافي. وفي حال يأسٍ، قال موسى وهو الأول على دفعتنا: «خلونا نروح على المركز الثقافي في حلب لأنه مليان كتب عن أمجاد العرب». وحدي أنا من خلّص موسى من محنة اليأس، حين أخذت أحدثه عن ابن الطلسمي البغدادي وعن إنجازاته العلمية. فقد كرس له المستشرق البريطاني عبد الرحمن العجمي، الذي اعتنق الإسلام على إثر اطلاعه على مخطوطات وكتب ابن الطلسمي، كتاباً خاصاً يعرض فيه أهم أبحاثه واكتشافاته ومنها اختراع الكهرباء. وقد ختم العجمي كتابه بجملةٍ تختصر مدى إعجابه بابن الطلسمي، سابق عصره ومغيّر عصرنا، حيث يقول: «ما من شيء في العلم المعاصر إلا ونجده في كتب ابن الطلسمي، فكل اكتشافاتنا

في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب وفي الصناعة إنما ندين بها جميعها لما قدمه ابن الطلسمي في عصر الدولة الإسلامية، ولولا وقوع كتبه بين أيدينا لبقينا نحن الغرب نعيش في بحرٍ من الظلمات». للأسف إن كتاب العجمي لم يترجم إلى اللغة العربية، وسحب من الأسواق كي لا يحدث ضجةً عالميةً بكشفه عن سِرّ حرص الغرب على إخفائه؛ وهو سرقتهم لكتب العرب واكتشافاتهم ونسبها لهم.

وحين روى موسى، في الأسبوع التالي، قصة ابن الطلسمي، كان الشيخ عبد الرحيم يصول ويجول في القاعة زهواً، وكأنما يرقص في مولدٍ. «بارك الله بك يا موسى»، هكذا قال الشيخ، وهو يطبطب على كتف موسى الذي أطربنا جميعاً في حديثه عن أمجاد العرب المسلمين. وفجأة تحوّلت الكهرباء بالنسبة إلى شيخنا عبد الرحيم إلى اكتشافٍ إعجازيٍّ وحدثٍ تاريخيٍّ غيّر مسار التاريخ، وإلى دليلٍ محسوسٍ ملموسٍ على فضائل العرب على الإنسانية جمعاء. «لا أخلاق ولا قيم لمن لا يعترف بقيمة إنجازٍ كهذا»، هكذا عقّب الشيخ. ثم استفاض شيخنا في ذمّ الغرب الناكر للجميل المتآمر على ديننا وحضارتنا وأمجادنا التي ملأ نورها الأرض من أقصاها إلى أقصاها، خاتماً بالقول: «والله لن تقوم لنا قائمةٌ إلا إذا عدنا إلى نهج الأجداد في وحدة صفهم، وقوة عزيمتهم، وإيمانهم الخالص بربهم». ومشكلة شيخنا، الذي يؤمن بالتواتر، بوصفه نهجاً علمياً، مسلماً بصدق النقّال، دونما محاكمةٍ عقليةٍ، أنه صدّق قصة ابن الطلسمي التي لم تكن إلا من اختلاقي أنا! ومثلي في هذا كمثل من ألّف أحاديث في بركة شرب بول البعير وفضيلة إرضاع الكبير.

بقي شيخنا إلى آخر السنة كلما أراد أن يمتدح طالباً يقول له: «والله إني لأرى فيك طلسمي عصرك». ولأنه لم يكن باستطاعتي أن أعترف بالقول إنه ما من طلسمٍ في تاريخنا المملوء بالأمجاد، وأني أنا من اخترع قصته، وأن مكتشف الكهرباء إنما هو كافرٌ من كفّار الغرب واسمه توماس إديسون، فقد اكتفيت، كإجابةٍ على إدانات شيخنا للغرب في تساؤلاته الناقدة المُدينة الساخطة التي لم تجد نقطةً بيضاء في تاريخهم، ولا إنجازاً إنسانياً، ولا قيمةً أخلاقيةً نبيلةً تُذكَر

لهم، بالقول: «إنهم دعاة حريةٍ وتحرر». فجأة خرج شيخنا عن طوره، ضارباً الطاولة بقبضة يده، صارخاً في وجهي، كمن يسترجع أمجاده: «قلتللي حرية؟ قيم الفسق والفلتان والإباحة الأخلاقية! حرية وتحرر! أي طز».

* * *

مسرح الجمعة

كانت النساء في قريتي ينشغلن في كل جمعة بالغسل والشطف وتعزيل البيوت والطبخ، بينما يذهب الرجال إلى صلاة الجمعة.

وصلاة الجمعة هذه عبارة عن مسرح خطابيٍ أسبوعيٍ يمارس فيه شيخ الضيعة النميمة والتحريض باسم الدين على المرأة. فمرة يحرّم باسم شرع الله مشاركة المرأة بالرقص والدبكة في الأعراس، ومرة يتحدث عن نساءٍ معلقات من نهودهن في عذابات الآخرة لخروجهن على طاعة الرجال. ولم يخلق الله في أصقاعه نساءً يعصين الرجال كما يعصي نساء جبل الزاوية رجالهن. ويصمت الناس عادة في حضورهم المسرحي، فلا تصفيق، ولا هتافات تمجيدٍ، ولا حتى نخنحة تعكر صفو نميمة الشيخ الجليل في خطبة صلاة الجمعة. وترى الرجال مستريحين مسترخين في أرض المسجد يسندون ظهورهم إلى العواميد، ويغط بعضهم في نومٍ عميقٍ وبعضهم في إصغاء شماتةٍ بالنساء المعذبات.

واظب الحاج أبو محمد على الجلوس بجوار عامودٍ يسند إليه ظهره ويغط في نومه على هدير الشيخ، مسترخياً كطفل يسمع حتوتةً من أمه قبل نومه. رأيته مرةً يميل على طرفه اليمين رافعاً وركه ليصدر منه ريح كريه كريح الجيف. ثم راح يرفع ساقه اليسرى مع وركه، فصدر عنه دوي اخترق جدار الصمت في المسجد، فانتفض من نومه يصرخ: "الله أكبر، الله! الله!" متظاهراً أنه قد أخذته الحال وهزه الخشوع وهو يسمع حديث عذابات الآخرة التي تفوق عذابات سجن تدمر في زمن حكم البهيميّة العسكريّة الأسديّة. هكذا غطّى أبو محمد في تكبيراته على ضراطه.

كان بيت جدتي (عليا) مجمعاً للنساء العواجيز اللواتي تقاعدن عن الحصاد وقطف الزيتون وتدبيس العنب ليتفرّغن للنميمة الثأريّة من الرجال في مجالس شرب الشاي والزهورات على نية إضاعة الوقت في سبيل لا شيء. ولم أكن أنا المهرج في طفولتي أعرف القراءة لأقرأ مسرحيات شيلر، أو تشيخوف، أو موليير،

أو سعد الله ونوس، لهذا كانت كل مسرحياتي الترفيهيّة في بيت جدتي في مجالس العواجيز من وحي صلاة الجمعة... وهكذا ما إن أسمع عجوزاً تقول: وينه هالحردون أحمد يجي يضحكنا؟ حتى أصعد المصطبة في صدر البيت الطيني وأبدأ مسرحيةً ارتجاليّةً أسميتها بـ: "أبو محمد الضَرَّاط"!

تبدأ مسرحيتي بشيخ الجامع وهو يحرّض على النساء في أدعيةٍ ساخرةٍ وهو يشدّ شعره ويمزّق ثيابه ويلطم وجهه ويقول: اللهم هدّ النسوان. يا رب العن أبو النسوان، احرقهن، انتف لهن شعرهن، هالفتانات الفلتانات، نكد عيشتهن يا رب، يلعن أبو النسوان، يلعن أخت النسوان، يحرق حريش النسوان.

وكانت العواجيز ينقلبن على ظهورهن ضحكاً وهن يرددن: كمان، مرة تانية، عيد، من أول وجديد،.. لأعيد أنا مشاهدي الساخرة من شيخٍ طويل اللحية على شكل مكنسة جاحظ العينين وكأنه مصاب بالسل.

وكان مشهد أبو محمد الضراط أكثر المشاهد إثارةً للضحك حيث كنت أزحف زحفَ الجريح في أرض المعركة مقلداً أبا محمد في ضراطه وأنا أهتف في صراخ المستجير: الله!، الله!، يا رب انهد حيلي وخلص أيماني، طظط طيظط، خلص إيماني آه..آآآه يا رب دخيلك فضيت وفضي بطني من الإيمان. ثم أتقلب في حالة احتضارٍ على صوت الضراط كأفعى أفرغت سمّها، أو كبقرة تخور وهي في أنفاسها الأخيرة ترتجف ألماً ثم ترفع أرجلها إلى السماء لتفارقها روحها مع آخر ضرطة تفرغ ما تبقى من ريح في بطنها.

الأجر الوحيد الذي كنت أتقاضاه على عروضي المسرحية كان بعضاً من (غزل البنات) وهي نوع من الحلويات، والكثير من ضحك العواجيز على الرجال أصحاب الفضيلة.

* * *

خرزات أمي

لدى أمي خرزات تعود لأيام صباها. تسميها أمي بـ»خرزات السعد». حين أصيب أبي في حرب حزيران وأعلنت الحكومة في حينها موته كانت أمي تجلس كل يوم أمام باب الدار لتفرك خرزات السعد لأجل أن تعيده لها حياً. يئس الجميع من عودته وبقيت أمي ممسكة، في صلاتها الدعائية لله، بخرزات سعدها متأملة أن تعيده إليها. ولم يخذل أبي خرزات أمي فعاد من موتٍ لم يكتمل إلى الحياة ليمازح أمي فور وصوله بالقول: «خرزاتك ما خلوني موت وجابوني زحف من الجنة لبيت العيلة». وتذكر أمي من فضائل خرزاتها هروب أبي من السجن ليعود لها بعد منتصف الليل، وهروبه من دورة الشرطة، ومن السجن ثانية، ومن المستشفى حين قرروا أن يجروا له عمليةً جراحية. كل هروبات أبي الليلية من الدولة إلى حضن أمي كانت، بحسب زعم أمي، بفضل خرزات سعدها.

في أرض الحنطة في موسم الحصاد كانت أمي تخرج خرزاتها في غياب أبي وتأخذ تفرك فيها قائلة: «حتى إذا ما إجا هلق على الأقل بفكر فيني». لا تطيق أمي، ككل نساء الأرض، الانتظار. في كل غيابٍ لأبي تفرط أمي في محنة انتظارها بفرك خرزات السعد التي ما من سلطةٍ لها سوى على قلب أبي.

وفي نزوحها اليوم لا تحمل أمي سوى خرزاتها وقصاصات ورقية كتب عليها اسم أمي واسم زوجها وقريتها حتى إذا ما ماتت أمي في أرض النزوح لا تقيد في قبرها باسم مجهول. لا تتحمل أمي فكرة أن لا يكون لها بعد موتها قبر نزوره.

* * *

بوح الخطايا

ما أقبح الأخلاق حين تحول الحب إلى خطيئة! في غرفة في الطابق الأرضي في اللاذقية كنت أحبس أنفاسي كلما سمعت وقع خطا مريم في نزولها كالوحي على الدرج. لم يكن حبنا في الأيام الأولى سوى بصبصة وغواية. وكانت مريم في السنة الثالثة ثانوي وكنت أنا في السنة الأولى في الجامعة. في كل يوم وطيلة شهرين واظبت مريم على شطف الدرج عدة مرات في اليوم الواحد. وكانت تنظر إلي في البداية نظرات من يريد التأكد من أنني أنظر إليها في غواية أنوثة تحب أن ترى نفسها مرئية. ما من غواية للجمال بدون عين تقدره. مع الزمن تحول استعراضها الشطفي للدرج إلى طقس من طقوس شقاواتنا اليومية. وكانت مريم تواجه نظراتي التي تشتهيها بساقين مكشوفتين رفعت عنهما الحجب وعلت ستائرها إلى ما فوق الركبة. وكانت تبدّل ثيابها بعدد شطفاتها اللهوية فمرة ترتدي فستاناً طويلاً ومرة تنورة قصيرة محظورة وفق قوانين الطوارئ الاجتماعية. في تجليها أنوثة تنزل الدرج كان جمالها يفيض غواية مع اهتزاز تنورة على إيقاع قفزها الغوائي صعوداً فنزولاً كرقص البجع على مسرح من درج. وهكذا كانت تصعد جميلة وتنزل أجمل. وحده الله يعلم لماذا تتصلب عروقنا نحن الرجال كلما أزيحت الحجب عن أفخاذ مصقولة كعواميد من مرمر!

وكانت مريم كلما انحنت تبدى خلف سدرة منتهاها نهدان شامخان بارزان رغماً عن حمّالات صدرها كقطتين توأمين في بحث عن الشقاوة. لم يخلق الله في أكوانه المملوءة بالفتنة والجمال أجمل من نهدي مريم أو أكثر جسارة من نهديها المنتصبين كمئذنتين، الخفّاقين كرايتي ثورة في حرب على الأبدية. وكانت عيناي تتسمران في ترقبهما لانزياح سترتها عن نهدين مكورين مكعبين كتينتين في طور التكون أو كقباب أشيدت على مقامات الأولياء. وكانت أنفاسي تعلو وتنخفض على إيقاع حركاتها وارتسام تفاصيلها خلف ثياب تكاد تتمزق من عبء الغواية. وكنت أتقلب على فراشي، دونما إرادة مني، تقلب موجوع يصارع فراشه. وكان ازدحام الدم في عروقي يواكب ارتفاع حرارتي وتعرق جسمي ونزيف رطوبة ما

بين ساقي. ما أصعب انتصاب مشاعر الذكورة في حضرة أنوثة شقية! وهكذا كلما ازداد حضورها كثافة ازداد غيابي عن عالمي محدقاً في تفاصيلها كترقب ذئب جائع للفريسة. كم كان يحضرني الغيب كلما انحنت هي انحناءة تشد إليها ثيابها راسمة مرة أطراف ثيابها الداخلية ومرة حلمة منقوشة على سفح كعبة. يا الهي ما أشهى تجلي الأنوثة!

وكنت أواجه استسلامها لي، في خلوات وجودنا تحت الدرج، بعنف يطقطق عظامها. وكانت هي عكسي في بوحها الجسدي وفي تقلص بطنها وخرمشات نهديها المنتفختين الممتلئتين شهيقاً بلا زفير كرئة أضاعت في غمرة الوجد رشدها. وتحولت مريم إلى مهرب لي من قلقي ومن شكي ومن تساؤلات فلسفية تدعي في هذياناتها أنها قتلت الله تاركة العباد يتامى بلا معبود يعبدونه. «بعبدك»، هكذا كنت أجيبها كلما طرحت عليّ سؤالها الميتافيزيقي الذي يقول: «بتحبني؟». وأدمنت، في محنة الحب، كتابة الرسائل لها في طقس من السرية محولاً الحب والهيام إلى سرديات من جنون. «بتهربي معي؟» هكذا كنت أسألها أنا الذي لم أكن أملك مكاناً أهرب إليه.

في طريقي إلى الامتحان في الجامعة كنت أرى في كل النساء مريم وكأنهن لسن سوى تجليات مريمية. وكنت أتقيأ على عجل، في جامعة التحفيظ والتلقين، أجوبة تعرّف الفلسفة على أنها حب الحكمة، بينما أنا في الحقيقة لا أحب في الحياة سوى مريم الخطيئة.

* * *

بوح الندم

«ما عشت حياتي يا ابني» هكذا أخذ جدي يقول لي وهو يمسك بيدي بعد أن سمع خالتي زوجة عمي تقول: «ختيار عاش عمره». لم يعد جسم جدي يقبل الأكل فما إن يأكل شيئاً حتى يتقيأه. ولم تتوقف خالتي عن تحسس قدميه الباردتين شامتةً بدنو أجله. كان، كلما انفض الناس من حوله، يمسك بيدي ليفيض بوحاً ندمياً يسرد فيه خطايا شبابه بعدما أن استعجل احتضاره طلب الصفح والمغفرة. لم يكن جدي يترك يدي إلا حينما يمسح دموعه. أخذ في بوحه الندميّ يسرد لي قصة سارة التي أحبها في مطلع شبابه وخذلها بعد وعود بالزواج لتدعو هي عليه الله بأن لا يسامحه. وماتت سارة عازبة في سن صباها كمن أراد أن يثأر من الخذلان بالموت دونما وداع أو مغفرة. وكانت سارة، وفق وصف جدي لها، امرأة شقراء بعينين زرقاوين وبشامة على خدها الأيسر وبفم صغير وبوجه يفيض بشاشة ووداعة. ولم يستطع جدي نسيانها ولا تناسيها إذ واظب على زيارة قبرها وإعادة ترتيب حجارته على الرغم من بعد قريتها وعلى الرغم من مشقة المسير وتعب الحج الوفائي لعجوز تجاوز سن المائة من عمره.

ولم ينس جدي أشعاره التي قالها لها وفيها، ولم ينس ابتسامتها واحمرار وجنتيها حين الخجل، ولا صوتها الكراوني وهي تغني. وتحول جدي في رقوده الاحتضاري في فرشة لا يستطيع أن يغادرها إلى ذاكرة تستحضر الماضي الجميل وعذابات الندم. وبينما كان الناس مهمومين بموته الوشيك كان هو غارقاً بعذابات الذنب والإدانة بسبب وعدٍ حبّيٍ لم يف به. لم يغتصب جدي امرأة في حياته لا باسم الدين ولا باسم الطائفة، ولم يسرق جرة غاز، ولم يلق برميل بارودٍ على أناس أبرياء، ولم يشرعن القتل باسم الوطن والوطنية، ولم يسرق أموال اليتامى باسم ثورة، ولم يعتد على أحدٍ في حياته كلها، ومع هذا كان الندم يأكله أكلاً في بوح آثامه ممسكاً بيدي. وكان كلما استفاق من غيبوباته المرضيّة يمسك بيد جدتي كغريق يمسك بقشة خلاصه ويقول: «سامحيني يا عليا!».

يا الهي، ما أصعب الموت على ندم، وما أصعب العيش رهن الذنب والإدانة! كم أتذكر جدي وبوحه الإثمي كلما أفقت على ندم أبحث عن يد أمسك بها.

* * *

القسم الثاني: ميخائيل سعد

في التعصب:

ولدت في قرية صغيرة من قرى مصياف، وبقيت فيها حتى سن الرابعة، لا أعرف حتى القرية التي تجاورنا. كل سكان القرية من المسيحيين الذين يتكلمون العربية ويلفظون حرف القاف صحيحاً على طريقة العلويين والدروز والكثير من سكان القرى السورية. لا أعرف حتى الآن سبب ذلك، على الرغم من وجود قرى مسيحية لا تبعد عنا عشرة كيلو مترات، تنطق حرف القاف كأهل المدن.

كنت في ذلك العمر مثل كل الأطفال، أعرف المحيط الأقرب، أي القرية وأهلها والبقرات والماعز والحمير وكلاب القرية، وكنت أعرف الكنيسة والكاهن الذي كان يأتي من قرية أخرى كل أسبوعين ليقيم قداس الأحد. وكان في القرية راديو وحيد يعمل على بطارية كبيرة وآنتيل، كنا عصابة الخمسة نتواجد أغلب الصباحات تحت شباك غرفة ابن خالتي، الأستاذ جبرا، لنسمع المطربة صباح.

في ذلك الزمن، كنت أعتقد أن كل العالم الخارجي هو مسيحي مثل أهل قريتي، وكل البشر يتكلمون العربية مثلهم، وبقيت في ذهني هاتان القناعتان حتى بعد أن التحقنا بأبي في دمشق عام ١٩٥٤، بعد أن أنعم الله عليه وأصبح شرطياً.

في دمشق اكتشفت المدينة، واكتشفت أنني ابن ضيعة، واكتشف زملائي في الروضة أن لهجتي مختلفة وكانت سبباً لضحكهم أحياناً، وربما من أجل ذلك كنت أظن أن المعلمة تحبني، ولكن والدي قال لي فيما بعد إنها تحبني لأنني شاطر ومهذب.

في الصف الأول الابتدائي اكتشفت أن هناك في سوريا، مسلمين ومسيحيين. في السنوات التي تلت، كان بإمكاني مغادرة الصف أثناء درس الديانة الإسلامية، إذا أردت أو أراد أهلي ذلك، ولم يحدث ذلك مطلقاً، فقد كنت أفضّل البقاء في حصة الديانة الإسلامية، مما كان يعطيني امتيازاً عند الأستاذ، ومديحاً مجانياً منه، كنت أحبه، لأنني مسيحي، وأحضر درس الديانة الإسلامية، حتى أنهيت الإعدادية.

في دار المعلمين، وكان عمري خمسة عشر عاماً، تعرفت على الأديان والطوائف. فقد كانت دار المعلمين في حمص هي أهم مدرسة في سوريا لتخريج المعلمين القادمين من كل المدن والأرياف السورية، ولكن سرعان ما تم تخريبها بعد حرب ١٩٦٧ وتحويلها إلى مدرسة إيديولوجية لتخريج المعلمين البعثيين.

في عام ١٩٦٩ تخرجت معلماً وعينت في إحدى قرى عفرين. قرية كردية صغيرة، يأتي الأطفال إلى الصف الأول لا يعرفون أي حرف عربي، وتبدأ معاناة الطالب والمعلم. ونتيجة نقص المعلمين والحاجة الماسة لوكلاء كنت تجد أحياناً معلماً وكيلاً كردياً من إحدى القرى الكردية، وكان وجوده يساعد الطلاب على سرعة التقدم بالتعلم. لأن القطاعين الممنوعين على الأكراد السوريين هما التعليم والكليات العسكرية في ذلك الوقت. هناك تعرفت على وجه جديد من وجوه سوريا، إنه الوجه الكردي السوري، وعرفت بعض الظلم الذي يقع على سوري لأنه غير عربي.

عودة إلى البداية، إلى مرحلة عدم المعرفة أو محدودية المعرفة، مرحلة القرية حيث كنت أظن أن العالم كله يجب أن يكون مسيحياً كأهل قريتي، ويتكلم العربية مثلهم. لقد صادفت ولا أزال وأنا على أبواب الثالثة والستين من عمري وفي كندا، أن هناك كثيراً من السوريين وغير السوريين ما يزالون على قناعاتهم الفكرية منغلقين مثل الطفل ابن القرية الذي كنتُه، ويظنون أن العالم ينتهي عند باب دارهم، ولا يستطيعون قبول الآخر إلا إذا كان كما يظنون ويعتقدون، حتى لو كان ذلك من باب خداع الذات.

إننا الآن، ونحن في الشهر الرابع عشر لثورتنا، بأمس الحاجة إلى أن نتعرف عن قرب على مكونات المجتمع السوري الذي يعتبر من أغنى المجتمعات المحيطة بنا من حيث تنوع أعراقه وأديانه وطوائفه وقومياته. هذا التنوع هو مصدر غنى إذا استثمرناه، ومصدر كوارث إذا تركناه يسير في الاتجاهات التي تعمل عليها السلطة وبعض أصحاب المصالح الضيقة، مما يدفع إلى مزيد من التعصب وانغلاق العقل وانسداد الأفق، ويزيد من تشرذم المجتمع السوري وتفتته،

وصولاً إلى تفتيت الوطن ذاته.

إن التعصب هو المرض الذي سيدمر سوريا إذا استمر انتشاره، ونأمل أن تنهيه الثورة.

* * *

المطبخ النسائي السري والانقلاب على ديمقراطية الذكور

قبل الوصول إلى المطبخ والبحث فيه عن السكاكين التي سنقطع بها قالب حلوى عيد زواجنا الثلاثين، لا بد من الإشارة إلى أن الديمقراطية هي اختراع ذكوري بامتياز، ولا علاقة للنساء بها لا من قريب ولا من بعيد، إلا أن تطور الحياة البشرية حولها إلى مطلب جماهيري لأسباب قد تختلف من منطقة إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر. فديمقراطية النساء في كندا مثلاً يختلف مضمونها عن ديمقراطية النساء في سوريا أو في مصر؛ كما أن للأولاد ما دون الثامنة عشرة من العمر تفسيرهم المختلف للديمقراطية عن أنفسهم عندما يصبحون بالغين. وهنا لا أريد الدخول في تفاصيل وأنواع الديمقراطية، فليس لي مصلحة في دخول «عش الدبابير»، وإنما سيقتصر كلامي على التحولات الديمقراطية في منزلي، فما ينطبق علي قد ينطبق على غيري، مع فارق أنني قد أحرقت سفني وقررت نشر غسيلنا القذر على الحبال، ولست خائفاً بعد الآن من شيء، فقد نلت نصيبي من زوجتي ديمقراطياً، لذلك قررت أن أرمي في وجهها، ووجه مثيلاتها، هذا الاعتراف، وليحدث الطوفان بعد ذلك، كما حدث في الكتلة الديمقراطية بين الأستاذ ميشيل كيلو «والمطبخ السري» للأستاذ أحمد الجربا، رئيس الائتلاف السابق. ورغم أن تعبير «مطبخ سري» يوحي بالفتنة المعوية أو أفضل سبل الوصل إلى قلب الرجل، أو الأكلات السرية التي تعيد الشيخ إلى صباه، فإن ما تسرب عن مطبخ الائتلاف المعارض أصابنا جميعاً بتلبك معوي حاد شجعني على نشر غسيلنا المنزلي؛ فما دام زعماء الشعب السوري غير قادرين على ممارسة الحوار الديمقراطي، بالرغم من أن السيد نبيل سليمان كان قد نشره قبل سنوات في «دار الحوار»، فلا عتب علي، أنا الديمقراطي الصغير، في فضح ممارسات مطبخنا المنزلي.

ولنبدأ بالحكاية منذ بداية زواجنا، أو قبل ذلك بقليل، فقد استمرت خطبتنا

ثلاث سنوات، حصل خلالها الكثير من الأمور، منها مثلاً، سقوط بيروت تحت الاحتلال الإسرائيلي، وتدمير حماة بعد ذلك بقليل، من قبل جيش حافظ الأسد، وانتصاره التام والساحق على المجتمع المدني السوري وقواه السياسية والثقافية، وعودتي إلى سوريا، وافتتاحي مكتبة، آملاً بالمساهمة في نشر الثقافة الديمقراطية، على الرغم من أن هذا الأمل كان يتناقض كلياً مع المقدمات التي أرساها حافظ الأسد في سوريا، ولكن الإنسان على ما يبدو يحب أن يخدع نفسه، ولا يصدق المقدمات التي تشير إلى نهايات مأساوية كما هي حالتنا الآن في سوريا. منذ ذلك الوقت، بدأ حوارنا الديمقراطي. كنت أنا الطرف القوي فيه؛ فأنا الرجل أولاً، وأنا الذي كان يسكن في عاصمة الثقافة العربية بيروت. وبما أن خطيبتي كانت ككل المثقفين السوريين الحالمين بالهجرة من سوريا، والذهاب إلى أي مكان في الدنيا لا يوجد فيه آل الأسد، فقد رأيت في بيروت مكاناً معقولاً كبداية، على أمل الوصول إلى كندا في ما بعد. لذلك، كانت في حواراتها الديمقراطية معي سهلة وسلسلة الانقياد، وبعد أن تزوجنا واستقررنا في سوريا، كنت أنا الزوج الديمقراطي الذي تصفق له زوجته بعد كل نقاش حميمي بيننا يتخلله الضم والعبط والقبلات، وينتهي في السرير. في ذلك الزمن، كانت زوجتي متفرغة للمطبخ، تحضر فيه كل الوجبات السرية التي تجعل قلبي يخفق فرحاً. كانت تقول لأصدقائي: إن ميخائيل أفضل رجل ديمقراطي، فهو يأكل كل ما أحضره في المطبخ، ولا يتذمر مني إذا تأخرت في كوي ثيابه، ولم يجبرني مرة على الذهاب إلى بيت أهله، أو زيارة أقربائه، وكان يتركني أذهب إلى عند أهلي ويزودني بالمال اللازم لذلك، فهل رأيتم أحسن من هيك ديمقراطي؟ هكذا كانت تختم كلامها.

وبما أن دوام الحال من المحال، فقد قرر الأسد، في نهاية الثمانينيات، أن يرسلنا إلى كندا، لا بوصفنا مهاجرين قسريين كما قد يخطر ببالكم، وإنما بوصفنا باحثين عن المتعة لتذوق الديمقراطية الغربية في مطابخها الحقيقية. قال: حاجتكم «نق هون» على الديمقراطية، روحوا تعلموا معناها هناك، ثم «نقر» كل واحد منا

كفاً على «نقرته»، ونحن على أبواب الطائرة. في البداية كانت زوجتي منزعجةً جداً من فكرة مغادرة سوريا، خوفاً من المجهول، لكنها سرعان ما اكتشفت، كجميع المهاجرات، حجم المكاسب التي تتمتع بها المرأة الكندية، سواء كانت عاملة أو سيدة مطبخ، متعلمة أو أمية، مهاجرة أو بنت البلد الأصلية. لا فضل لامرأة بيضاء على أخرى سوداء عندما يرن جرس هاتف الشرطة، ويكون الموضوع هو شكوى المرأة على زوجها. وبما أن الرجل هنا هو المشكوك في ولائه لزوجته وفي ديمقراطيته، فإنه يتم القبض عليه مباشرة ووضعه في السجن مدة ثلاثة أيام، قبل سؤاله لماذا اعتدى على زوجته أو نظر إليها «شزراً»، فهذه الكلمة العربية تحمل قدراً من العنف يحاسب عليها القانون. لذلك وضعت «طماشات» على عيوني كي لا أستطيع النظر «شزراً» في وجه زوجتي، إلا أن ذلك لم يكن يمنع عني رؤية التحولات في لهجة زوجتي. فبعد أن كانت كلمات مثل: «حبيبي، حياتي، عزيزي أبو عمرو الغالي»، تسبق طلباتها؛ تبخرت ليحل محلها كلمات مثل: «وينك يا أخونا»، «شوباك أبو عمرو»، «ولك ليش ما عم تعمل اللي بطلبه منك»، إلى آخر المعزوفة الديمقراطية النسائية الكندية الوافدة إلى مطابخنا الشرقية وغرف نومنا. أما التغير الكبير فقد كان بعد أن بدأت تعمل، وأصبحت هي المنتجة الرئيسية في البيت، فقد أصبحت تصدر الأوامر كما كنت أفعل أنا أيام سوريا، بل كانت لا تتوانى عن تحديد نوعية الغزل الذي يجب أن أقوله لها في غرفة النوم وأمام صديقاتها اللواتي كن يتنافسن فيما بينهن حول قيادة بيوتهن.

أخيراً، لا بد من الإشارة إلى أن الكثير من بيوت الأسر السورية المهاجرة، التي أصبحت المرأة فيها هي المنتجة، فقد فيها الرجل سلطته أو سطوته، وتم ترسيخ مفهوم جديد للديمقراطية داخل المنزل، تكون فيه المرأة، صاحبة المال، هي المقرر الأساسي، وما على الرجل الذي لا يعجبه الأمر إلا حزم حقائبه والمغادرة بالتي هي أحسن، وليتكلم بعدها، وهو خارج البيت، عن عيوب الديمقراطية قدر ما يشاء. لقد انتهت ديمقراطية الذكور الآن، كما انتهى معها عهد المطابخ السرية بعد أن انتفت الحاجة إليها، فقد أصبح الأكل كله مستوراً من الخارج.

* * *

شلة الختيارية:

بعيداً عن ساحات الوغى وقرقعة السلاح وشحذ السكاكين العلمانية الأسدية والإسلامية الداعشية، هنا، في مونتريال، مجموعة كبيرة من المراكز التجارية المكيفة صيفاً، والمدفأة شتاءً، حيث السلام والاستقرار يسودان، ليس لوجه الله ونشر دين المسيح، وإنما لإخراج الدولارات من جيوب المواطن بطريقة حضارية وديمقراطية دون إكراه؛ ففي النظام الديمقراطي الغربي لا إكراه في الصرف، ستصرف مدخراتك وأنت «حباب»، وليس كما في سوريا تحت تهديد عصا رامي مخلوف ورفسات الأبواط العسكرية. لذلك لا مبرر لأن يلتقي الناس مع بعضهم في البيوت، «فأكل السوق دائماً أطيب وأرخص»، والمكان أوسع، والنقود «الفراطة» الموجودة في جيوب شراويل الختايرة العرب، تبقى في جيوبهم. وأكثر ما يمكن أن يتكارم فيه أحدهم على نفسه أو على الآخر هو ثمن فنجان من القهوة، يقدمه اليوم على أمل استرداده غداً. وعادة يوجد مركز أو أكثر في كل منطقة، ومنها المناطق التي يتواجد فيها العرب بكثرة، ومن هذه المراكز مركز «لافال» التجاري، حيث تتواجد مجموعة من السوريين كل يوم، من الساعة الثانية عشرة إلى الثانية بعض الظهر، يجتمعون على نية التفاخر بما أنجزوه في يومهم السابق، والنميمة بحق من يتأخر عن الجلسة، ويتبادلون الأخبار السورية، ويرشدون بعضهم على الدكاكين التي تبيع الخضار والفواكه بسعر رخيص، ويتبادلون المعلومات الطبية الحديثة التي تستخدم العلاج الطبيعي المعتمد على النباتات، وخاصة تلك التي تعيد الدماء إلى العروق الجافة، أو التي تخفض الضغط والسكر بأقل جهد عضلي ممكن. ولما كنت قد أصبحت عملياً في عداد المتقاعدين، فقد اتصل بي صديقي الدمشقي أبو رياض لمعرفة ما إذا كنت سأحضر جلسة اليوم، فأخبرته بنيتي الحضور. وهكذا وجدت نفسي من جديد في شلة الختايرية. صحيح أنني أصغرهم سناً، وأكثرهم شباباً، فأنا في مطلع الخامسة والستين فقط، إلا أن علم التصنيف يضعني في شلتهم، ولا مهرب من حكم الزمن رغم الفوارق التي تصل إلى عشرين عاماً بيني وبين أكبرهم وهو

الصديق أبو رامي. أما القاسم المشترك الآخر، غير تصنيف التقاعد الذي كان يجمع ما بين هذه «الأحجار الكريمة» من العرب المهاجرين، فهو اهتمامهم بالنساء العابرات قرب طاولتهم، فقد كان مرور صبية رشيقة القوام، كعب كندرتها «يرقع رقعاً» على البلاط، يقطع عليهم التركيز في حديثهم عن حرب الإسرائيليين على غزة الجريحة، ورغم الشعر الكثيف الذي يتواجد عادةً على بوابات أنوف العجائز، مشكلاً عائقاً طبيعياً أمام استنشاق روائح المجازر الأسدية أحياناً لبعد المسافة، فإن ذلك لم يكن يمنع تسلل عطر هذه الفتاة أو تلك، كما يتسلل اللصوص، إلى رؤوس هؤلاء المسنين، فيطيش صوابهم، وهم في ذلك محقون وأنا أولهم. وقد شكرت الله، سراً، أن حدود كندا بعيدة عن حدود سوريا، وأن كندا لا تقبل لاجئين سوريين تحديداً، وإلا لكان وجد كل عجوز منا لاجئة سورية شابة أو أكثر فتزوجها بحجة ستر عرضها، كما يحدث في دول الجوار السوري، في الأردن والسعودية والعراق ولبنان وتركيا، وداخل سوريا ذاتها، هناك حيث لا يلاحظ الناس الفرق في الأعمار بين زوجين: عجوز في السبعين وصبية في الخامسة عشرة، وإنما يهمهم أكثر هل «اللحم» حلال أم حرام؟. وقد لفت انتباهي في أحاديث هؤلاء «العقلاء» عن النساء أن المسيحي فيهم مثل المسلم، رغم إنكارهم هذا، فهم يتفقون مع المسلمين على صحة التشريع الإسلامي الذي يتيح للرجل حق الزواج من أربع نساء، وأن القوانين الغربية عامةً، والكندية خاصة، قوانين جائرة بحق الرجل في منعها تعدد الزوجات، والأنكى من ذلك، في مساواتها بين الرجل والمرأة في الحقوق. وكنت أسأل نفسي مستغرباً كيف أنهم، أقصد الرجال المسيحيين والمسلمين، يتفقون على هذا الأمر بينما يتذابحون على أمور أبسط من ذلك بكثير.

وقبل أن أختم نميمتي هذه، لا بد من الإشارة إلى أن الطاولات المجاورة كانت تضم خليطاً متعدد الأعراق، فهناك طاولة أرمنية يتحدثون العربية بين وقت وآخر، وإلى جنوبها طاولة حلبية مسيحية صرفة، وإلى الغرب منها طاولة إسلامية، وإلى شرقها قليلاً طاولة تجمع سرياناً سوريين وعراقيين، يتبادلون الأماكن حول

حول الطاولة بسهولة. فهنا، الحدود الموجودة بينهم في سوريا والعراق، قبل تهجيرهم من الموصل، والتي كانت تعيق حركتهم وتزاوجهم، غير موجودة. ما بقي من تلك الحدود هو اللهجة العراقية واللهجة السورية، وأنواع الطعام المختلفة والأذواق المختلفة في الملبوسات وأشياء أخرى سورية وعراقية! ولكن «المهم» أن الإيمان واحد.

للأمانة التاريخية، بقيت ضرورة الإشارة إلى أن طاولتنا طاولة علمانية، متعددة الأديان والطوائف والمناطق والتوجهات السياسية؛ والحوار، في أغلب الأحيان، ينتهي بود يسمح لنا بتجديد موعد الجلسة القادمة.

* * *

عن عمي رستم والعنزة الضايعة:

كان عمي رستم، رحمه الله، يمتاز بخصلتين لا تخطئهما حتى العين قصيرة النظر، وهما فقره الشديد، ونكتته الحاضرة دائماً. ويمكن لأبناء القرية، النائمة في حضن جبلين، أن يضيفوا له بعض الصفات الموسمية؛ ففي ليالي الشتاء، مثلاً، كان يقوم بدور الحكواتي بمهارة عالية، رغم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وفي الربيع كان يصبح الراعي الرسمي لمواشي القرية، رغم أنه لم يكن يمتلك أي نوع من الماشية، بما في ذلك الحمار رغم توفر الحمير في القرية وكل الأرياف المجاورة، والتي تحولت في السبعينيات، بقدرة قادر، من حمير إلى مسؤولي أمن.

يروى عنه في الأربعينيات أنه كان يجلس في باحة الكنيسة مستنداً إلى جدارها يفلّي ثيابه من القمل، وكان اليوم مشمساً، أو كما يقال (يوم عربي)، وإذ بامرأة من قرية قريبة تمر به حاملة بيدها رسالة للقراءة من زوجها المهاجر إلى الأرجنتين. وبما أنه لم يكن في قرية المرأة من يقرأ فقد توجهت إلى قريتنا، ففيها على الأقل الخوري والمختار ممن يلزمهما عملهما تعلم القراءة والكتابة، وقد أضيفت إلى مهامهما في عصر البعث كتابة التقارير بالفلاحين والمؤمنين. قالت المرأة لعمي رستم: «خيي بو جرجس، الله يخليلك ولادك اقرالي هالمكتوب»، ودون تردد تناول الرسالة وفتحها ثم بدأ يحرك رأسه يميناً ويساراً متظاهراً بالقراءة، والمرأة المسكينة تتابع بقلق كبير تمتمات شفتيه، وتسأله من حين لآخر: «طمني خيي بو جرجس». ولكن بو جرجس قام أخيراً بطي الرسالة وإعادتها إلى المغلف قائلاً: «خيتي، الله يرضى عليك خدي هالمكتوب لواحد تاني، أنا ما بحب أنقل الأخبار العاطلة». كادت المرأة أن تموت بمكانها، فهي تنتظر خبراً من زوجها المسافر، والذي رهن أرضه وبيته لقاء أجرة الطريق التي كان يطلق عليها في ذلك الزمن (الناولون). وإذا لم تصل النقود فإن التاجر ابن المدينة سيستولي عليهما. ابتعدت المرأة عن رستم سائلة عن قارئ يفيدها، فوجدته، وقرأ لها أخباراً جيدة، ومنها أن زوجها حول لها قيمة (الناولون). وعندها سألت الرجل عن سر تصرف رستم، وما جرى بينهما، ضحك بقوة إلى أن وصل صوت ضحكته إلى

القرى المجاورة، قائلاً: «ولك كل المنطقة تعرف، إلا أنت، أن رستم لا يعرف القراءة ولا الكتابة».

أما طرفته عن العنزة الضائعة فقد فاقت غيرها وانتشرت في وادي مصياف الجنوبي كله. فمن المعروف والمنتشر في القرية وجوارها أن رستم من أفقر الناس ولا يملك، كما أسلفنا، أي نوع من الحيوانات. وفي أحد الأيام الشتوية، حيث كثافة المطر وقوته وزخاته كانت تتجاوز أحياناً ما تشهده سوريا الأسد هذه الأيام من قوة وكثافة زخات الرصاص المنهمر على رؤوس السوريين من الطائرات، كان رستم قد استطاع، في هذا اليوم الماطر، إسكات أصوات معدات أفراد أسرته ببعض خبز الذرة الصفراء، الذي استعاره من أحد الأقرباء، والسليق الذي استطاعت امرأة عمي رستم جمعه من البراري، فاستلقى قرب (موقدة) النار، التي كانت تصدر الدخان المنبعث من (الجلة) أكثر مما تصدر من حرارة، وإذ بصوت صاحبه أبو مخول يصيح عليه من أعلى السطح الترابي لمنزله: «يا خيي بو جرجس، يا خيي بو جرجس». فرد عليه رستم وهو مستلقياً: «خير خي بو مخول، تفضل فوت». قال أبو مخول: «من فضلك ابحث لي بين عنزاتك إذا في واحدة ليست لك، فقد عاد قطيع الماعز من الحرش، ولكن بقيت إحدى عنزاتي ضائعة، فقلت لنفسي ربما تكون قد ضلت طريقها ودخلت لعندك». ابتسم رستم وقال: «انتظر سأحاول البحث عنها، ولكن الأمر، كما تعرف ليس سهلاً، فعندي أكثر من عشرين راس معزي، والدنيا ليل والسراج ضعيف». رد أبو مخول: «خذ وقتك خيي بو جرجس».

كانت حبات المطر تصطدم بالأرض تاركة أصواتاً حزينةً، تتجول في القرى الجبلية الفقيرة، دافعة الناس للتدثر بما تيسر من أغطية، كما هو حال السوريين هذه الأيام في مخيمات اللجوء أو في مراكز تجمع اللاجئين داخل سوريا. وكان أبو مخول ما يزال ينتظر جواب صديقه أبو جرجس، والذي يشبه في كثير من جوانبه انتظار الشعب السوري، وهو يعاني الأمرين تحت رصاص الأسد وعصابته، جواب المعارضات السورية في الخارج المسترخية في فنادق النجوم

الخمس، والتي وعدت موهومة، أنها وجدت عنزة التدخل الخارجي وكذبت، ووعدت أنها وجدت عنزة وحدتها الخارجية وتوحدها وكذبت. وبعد أن كاد أبو مخول يموت من البرد والمطر، كرر سؤاله صائحاً بصوت مخنوق: «شو صار معك خيي بو جرجس، لقيت لي هالعنزة؟» قال رستم: «يا بو مخول، يا صاحبي فكرتك أذكى من هيك، مين قال لك إنو عندي معزي، مين قال لك إنو عندي أكل، مين قال لك تجي لعندي؟» يا خيي بو مخول، روح دور على عنزتك عند الناس اللي عندهم معزي، قبل ما الذئب يأكلها، مثل ما عم تحاول المعارضة السورية أن تأكل ثورة الشعب السوري هذه الأيام.

* * *

بكيت مرتين:

في عام ١٩٦١ كان والدي شرطياً في مخفر الأكراد، حي الأكراد الذي أصبح يعرف فيما بعد بحي ركن الدين. في أحد الأيام، كنت عائداً من مدرستي، فقررت أن أزور والدي في مخفره مفتخراً بذلك أمام رفاقي؛ فوالدي شرطي قد الدنيا. ما إن دخلت المخفر حتى دبت فيه حركة غير عادية، ثم وقف رجال الشرطة الستة الواحد قرب الآخر وبدأ ضابط، عرفت فيما بعد أنه ملازم أول، بتفتيش رجال الشرطة من حيث نظافتهم ونظافة ثيابهم وأحذيتهم العسكرية. وصل الدور إلى أبي، وبدأ التفتيش وأنا أنظر إليهم من طرف القاعة الآخر. كادت الأمور أن تسير على ما يرام لولا أن الضابط اكتشف أن الزر الأخير في بدلة والدي كان غير مغلق، فما كان منه إلا أن صفع والدي كفاً على وجهه.

شعرت وكأن العالم انهار من حولي، فخرجت من المخفر راكضاً، وأنا أبكي... وبقيت أتجول في الحي عدة ساعات إلى أن هدأت روحي وجف الدمع من عيوني، واشتقت أكثر إلى أبي، وتساءلت: لماذا أبي ليس هو الرئيس، إنه حائز على الشهادة الابتدائية منذ وقت طويل؟ وكانت المرة الأولى التي بكيت فيها...

عندما حدث انقلاب ١٩٦٣، أحسست، من دون أن أعرف السبب، أن الانقلاب هو انتقام لأبي من الضابط الذي صفعه. ثم شيئاً فشيئاً بدأت تتوضح الطبيعة الفلاحية للانقلاب. وكنا بحكم أصولنا الفلاحية مع النظام الجديد بغض النظر عن الأحزاب التي كان أهل قريتنا ينتمون إليها وهي البعث بشقيه والحزب القومي السوري....

في عام ١٩٧٠ كنت معلماً، وقبل ذلك بثلاث سنوات كنت قد أصبحت بعثياً. ومع انقلاب حافظ الأسد قررت أن أقف ضده، لأني قررت أن أرى فيه، مع آخرين، سيطرة عسكرية على الحزب.

سجنت بعد ذلك وأنعمت علي الدولة فسرحتني من عملي. ووجدت نفسي عام ١٩٨١ في بيروت أعمل في الصحافة. في أحد الأيام تلقيت اتصالاً هاتفياً من أخي

في حمص يخبرني فيه بضرورة العودة لأن والدي في العناية المشددة.

وصلت إلى حمص وذهبت فوراً إلى المشفى الوطني برفقة أخي الذي شرح لي الوضع قائلاً: خرج والدي كالعادة في الخامسة صباحاً من البيت كي يذهب إلى مرآب مؤسسة الإسكان العسكري ليأخذ السيارة التي يسوقها ليجمع بها بعض عمال المؤسسة. وجد الحي مغلقاً ومحاصراً من قبل الجيش وقوات الأمن، فقد كان الصراع مع الإخوان في ذروته. قال أفراد الحاجز لوالدي عد إلى منزلك، ممنوع المغادرة. أعطاهم هويته، وشرح لهم ضرورة أن يجمع العمال، لكنهم أصروا عليه بضرورة العودة إلى البيت. في أثناء العودة، أوقفه حاجز طيار، ومن دون أن يسأله، ضربه أحد عناصر الأمن بأخمص الروسية على رأسه عدة مرات، فسقط فاقداً الوعي، ووجد نفسه في المشفى.

كنا قد وصلنا غرفة العناية المشددة، وجدت أبي الذي أعبده، في أسوأ حالاته، والدمع يتساقط من عيني ابن الستين شارحاً لي كيف أن الرفاق الذين كنا نظن أننا منهم، وأنهم منا، قد ضربوه لأنه كان يود القيام بواجبه الوظيفي.

بكيت هذه المرة وأنا أعانق أبي، وكانت المرة الثانية التي أبكي فيها خلال حياتي، وأقسمت أن أنتقم له، لكنني لم أستطع وقتها ولا لاحقاً، إلى أن جاءت الثورة، فشعرت أن شباب سوريا قد انتقموا لي ولأبي ولأجيال السوريين الذين صلبتهم هذه السلطة القاتلة.

* * *

سباق المسافات

في روايته» سباق المسافات الطويلة»، يأخذ الروائي عبد الرحمن منيف الوثيقة التاريخية فيلبسها الثياب، ويضخ في عروقها الدماء، ويطلقها حرةً في شوارع طهران تروي لنا أحداث ثورة في منتصف القرن العشرين.

بداية أفول شمس الإمبراطوية البريطانية، والتنافس الأمريكي البريطاني على الهيمنة على إيران والأساليب التي لجأت إليها الدولتان لإجهاض ثورة شرقية، وهزيمة بريطانيا وصعود النجم الأمريكي.

عبر أساليب لا تمت إلى الأخلاق بصلة، تقوم المخابرات الأمريكية بخلق منظمات يسارية متطرفة، وأخرى يمينية متطرفة، وثالثة معتدلة، وتجعلها تمارس كل الأعمال التي تقوض الثورة وتجعل الشعب الإيراني يبتعد عن الثورة الحقيقية. عمليات اغتيال تطال كل الأحزاب السياسية، عمليات اغتيال متبادلة بين المنظمات التي خلقها الأمريكيون أنفسهم. عمليات تشويه سمعة الخصوم السياسيين عبر الجنس والأموال. عمليات قتل جماعية لأفراد بعيدين عن دائرة الثورة بهدف تشويه صورة هذه الثورة. خلق مراكز إعلامية هدفها بث الإشاعات المغرضة، شراء ذمم رجال دين ليهاجموا الثورة ورجالاتها، أساتذة جامعات، تجار.

كما نلاحق أيضاً في الرواية التفاصيل المثيرة لشق صفوف المعارضين وأساليب زرع الشكوك فيما بينهم. يتلهى الإيرانيون بأنفسهم، ويخسر البريطانيون امتيازاتهم، ويسطع نجم الأمريكيين. تخسر إيران الشعب، ويعود الشاه قوياً ولكن: أمريكي الصناعة.

لو نظرنا إلى الساحة السورية الآن لرأينا كيف أن السلطة السورية تلعب في الداخل السوري الدور الأمريكي في إيران في ذلك الوقت. فهل ننتبه؟ هل نفوِّت على النظام القاتلة لعبته الأخيرة قبل موته؟؟؟.

* * *

الموسيقى الكلاسيكية وسمير ضاهر:

على سيرة المثقفين السوريين، خطرت ببالي قصة جلسة الموسيقى الكلاسيكية التي كان يقيمها في حمص المرحوم الدكتور سمير ضاهر كل يوم ثلاثاء في عيادته، حيث يجتمع «رهط» من المثقفين الذي يحبون الإيحاء للناس الآخرين بأنهم أكثر ثقافة من سميعة الزمر والطبل. وكان المرحوم سمير ضاهر من القلائل في سوريا الذين يملكون، في ذلك الوقت، أكثر من ثلاثين ألف أسطوانة، يعرف قصة كل منها، ويستطع تحديد اسم المقطوعة بمجرد سماع الثواني الأولى منها. وقد خطر في بالي أن أتردد إلى سهرته الموسيقية، لعل العدوى تصيبني وأصبح من عداد الفهمانين والمثقفين المتنورين؛ لأن شرط «التنوير» في ذلك الزمن هو مدى قربك من ثقافة الغرب ولو بالقشور فقط. فقد كان يكفي أن تعرف أسماء بعض الكتب وبعض الكتّاب مثل سارتر وهوغو وكولن ولسون، وأسماء بعض الموسيقيين مثل باخ وماخ وبعض الرسامين مثل بيكاسو كي يعدك الوسط الثقافي السوري مثقفاً. وبعد أن توكلت على الله، قررت أن أكون الثلاثاء القادم في جلسة الموسيقى الكلاسيكية، وكنت على معرفة جيدة بالدكتور الضاهر من خلال النادي السينمائي في حمص. قرعت الباب، فاستقبلني المضيف أحسن استقبال، ودخلت قاعة الانتظار في العيادة، والتي تحولت ليلتها إلى قاعة استماع «لمرضى الموسيقى». سلمت على الحضور، فقد كنا على معرفة مسبقة ببعضنا البعض، ولاحظت كيف أن نظرات الجميع قد تعلقت بجاكيتي المخملي الأسود، وكنت قد اشتريتها أخيراً من البالة الحمصية، بعد أن دفعت زيادة في السعر لصاحب البالة الذي كان يدللني ويخبرني دائماً بموعد فتح بالة جديدة، كي يكون لي شرف وامتياز انتقاء الثياب منها قبل الآخرين، بحثاً عن التميز الذي كنت آمل أن يفتح أمامي باب الانتساب إلى اتحاد الكتاب في حمص. المهم أن الدكتور سمير قطع على محبي الموسيقى متعة النظر إلى جاكيتي المخمل، ودعا الجميع إلى الاستماع إلى أسطوانة كلاسيكية جديدة كان قد أحضرها معه في سفرته الأخيرة إلى سويسرا. ساد صمت مطبق وبدأت الموسيقى تغزو فضاء

قاعة الانتظار في عيادة طبيب العيون الدكتور سمير ضاهر، ومنها تتسلل إلى آذان الحضور.

ولما كنت لا أفهم في الموسيقى، لا الكلاسيكية منها ولا العادية، فأنا لا يطربني الا صوت الربابة والطبل والزمر، فقد انصرفت إلى مراقبة الحاضرين، وبدأت أتابع تقلصات الوجوه، وانحناءات الرؤوس يميناً ويساراً، واتساع حدقات العيون أو تضيقها حسب «السحبة» الموسيقية». وكانت تدهشني حجم انفعالات الحضور من «شوية» أصوات، إلى أن وصل بهم الأمر إلى أنهم جميعاً تقريباً قد أغلقوا عيونهم وبدؤوا في هز رؤوسهم وهم يسمعون. نظرت إلى الجميع، وقررت أن مكاني ليس هنا، حتى لو تكلمت غداً حمص كلها عن جهلي وتخلفي ورجعيتي، وأنه علي، قبل تعويد أذني على الموسيقى الكلاسيكية أن أفهم أم كلثوم وفيروز وصباح ونصري شمس الدين وفهد بلان وخاصة سميرة توفيق وأغنيتها» جسر الحديد انقطع من دوس رجليا». نظرت مجدداً، فرأيت الجميع نياماً، فتسللت غير نادم إلى الباب الخارجي مودعاً جورة الشياح حيث العيادة إلى بستان الديوان حيث بيتي. وما إن وصلت حتى أخرجت عشرات الكاسيتات الكلاسيكية والثورية وألقيتها في الزبالة، وأعلنت نفسي جاهلاً.

* * *

الخلافة والخوف من الإسلام:

كتبت قبل فترة نصاً صغيراً، في الفيسبوك، عن تفهمي لرغبة المسلمين في رؤية الخلافة الإسلامية كحقيقة قائمة، جاء فيه «أنا أتفهم مطلب المسلمين برؤية الخلافة قائمة، فوجودها يعني أننا أصبحنا دولةً كبيرةً يهابها الأعداء والأصدقاء، ويعني لي، بوصفي أحد رعايا هذه الخلافة، أنني لست بحاجة إلى جواز سفر كي أجوب ثلث العالم، ولن تكون تجارتي خاضعة لمزاج فلان من الناس أو لجشع لص في جمارك هذا البلد أو ذاك. ولن يستطيع أحد أن يمنع عن أطفالي الحليب، لأنني لن أكون بحاجة إلى استيراده من خارج حدود الخلافة؛ وسأستطيع حينها أن أخاطب الغيوم، بدون أن أترجاها أن تلقي بحمولتها من الأمطار فوق أرضي، كما فعل هارون الرشيد. كما أتفهم حاجة المسلمين إلى خلافة لا يستطيع فيها عسكري أن يتربع على كرسي الرئاسة لأجيال، ولا يستطيع فيها ملك أهبل توريث ابنه، الأكثر هبلاً، الأرض والبشر، ولا يستطيع فيها مفتٍ سافل، كالمفتي حسون، الكلام باسم الإسلام والمسلمين والمتاجرة بهم أمام سيده الأسدي. بسبب كل ما سبق، أنا مع هذا الحلم الجميل، ولو أنه غير قابل للتحقق، لأنه يبقى حلم المقموعين الجائعين العطشى إلى «الحرية والقوة والعدل».

كنت، فيما كتبته، أحاول صادقاً أن أعبّر عن قناعاتي وتفكيري «الإسلامي» بواقعية، كما كتب ياسر نديم سعيد في الفيسبوك؛ طبعاً من دون أن أنسى أنني مسيحي الدين، إلى هذه الدرجة أو تلك. فكوني غير مسلمٍ لا يعني أنني أفكر «أوروبياً»، وأن الخلافة الإسلامية لا تهمني ولا أفكر فيها، ما دامت تهم عدداً كبيراً من مواطني بلدي، ولم يتوقفوا مطلقاً عن التفكير في إحيائها.

هذا ما كنت أفكر فيه عندما كتبت ما كتبته، وإذ بإحدى الصديقات تكتب تعليقاً يصفعني ويجعلني أتوقف عنده طويلاً. كتبت الصديقة: «ما معقول لأي درجة بتحب تزاود يا ميخائيل، أول شغلة تجرأ وعيش بالخلافة الإسلامية، راس مسيحي كافر غالي جداً».

أولاً، وبدون أن أنفي رغبتي أحياناً في المزاودة في النقاشات السياسية التي أحضرها، وغالباً ما تكون رداً على مزاودة آخرين، إلا أنني، في هذا المجال، لم أكن أزاود على أحد؛ فأنا لا أعيش في بلد إسلامي، وليس لي مصالح مع أحد الزعماء المسلمين، بما فيهم البغدادي أو الجولاني اللذان يتنافسان الآن في سوريا على لقب «خليفة المسلمين»، كي أزاود عليهم في طروحاتهم. فما كتبته عن أسباب حاجة المسلم للخلافة يتنافى مع سلوك كل الزعماء المسلمين الموجودين حالياً، ويقترب أكثر من تصور القوميين والاشتراكيين للدولة القومية.

ثانياً، تطلب السيدة مني العيش في خلافة إسلامية كي أعرف قيمة رأس المسيحي الكافر. ولا أعرف ماذا تقصد فعلاً: هل تقصد من كان يعيش من المسيحيين تاريخياً في دولة الخلافة، أم أنها تفترض أن «داعش» هي الخلافة المقصودة؟

لن أدخل في جدال عن وضع «الملل» في الخلافة الإسلامية، وهو التعبير الذي يعادل تعبير «الأقليات» هذه الأيام، وذكر ما كانوا يتمتعون به من حقوق مقارنة مع الأقليات الدينية في أوروبا في ذلك العصر، ولن أدافع عن بعض التجاوزات التي وقعت بحق المسيحيين في فترات معينة من فترات الخلافة الإسلامية، لم يكن مصدرها الإسلام بوصفه ديناً، وانما فهم الحكام، كما كتب الصديق حسين العودات في تعليقه على النص نفسه: لم يظلمهم الإسلام وإنما ظلمهم الفقهاء والحكام، ولكن سرعان ما تراجعوا عن هذه القرارات، ويدل ذلك على أن القضية مزاجية وليست دينية.

أخيراً لا بد من الإشارة إلى أن السبب الحقيقي، بتقديري، لانزعاج السيدة مصدره ديني؛ فهي مسيحية، وتختزن، عن غير وجه حق، خوفاً من الإسلام والمسلمين وكل ما يتعلق بهم من خلافة وخلفاء، كرسته الحكايات الشعبية وكتابات المستشرقين. وأفضل ما يمكنني الاستشهاد به، في هذا المجال، هو ما كتبه الدكتور ياسر نديم سعيد على صفحته الفيسبوكية:

«مو ضروري تصير إسلامي لتفكّر بطريقة إسلامية... ومو ضروري كان تكون

مسلم لتفكّر بطريقة إسلامية... ما تخاف ما رح تصير من الإسلام السياسي إذا فكّرت بطريقة إسلامية... طالما عم نفكّر بالإسلام هيك من خارجه ما رح نوصل لشي... رح نضلّ نعيد الحكي يللي انحكى من ١٠٠ سنة... هاد تراث الجميع وتاريخ الجميع وفيه كل شيء من الملحد للمؤمن، ومن «الأورتودكسي» للهرطوق ومن المذاهب جميعها ومن الخوارج ومن المرجئة ومن المادي إلى المثالي ومن الثوري إلى الفوضوي إلى الإصلاحي إلى الانتهازي إلى فقهاء السلاطين... لن تنفع كل كتب العلمانيين والماديين والملحدين واليساريين عن الإسلام إلا أصحابها وجمهورها فقط... ما كتير تعذبو حالكم في «هداية» المسلمين...»

* * *

حبّة مسك:

أيام زمان، في قريتنا، وككل القرى، كانت هناك تسعيرة للفلاح الذي يملك زوجاً من البقر للفلاحة، وتسعيرة أخرى لزوج الحمير، وتسعيرة ثالثة للزوج الهجين المكون من بقرة وحمار، لأن الفلاحة كانت تحدث مع المحراث الروماني الذي يربط على دابتين أو دابة. كانت أفضل الأسعار تُعطى للفلاح الذي يملك زوجاً من البقر المدرب، لأن البقر يسير بخط مستقيم ويفهم أوامر الفلاح، يأتي بعده في ترتيب الأسعار الفلاح الذي يقتني زوجاً من الحمير، وأدنى الأسعار كان يدفعها الناس للفلاح الذي يستخدم زوجاً من الهجين المكون من البقر والحمير.

في أحد الأيام، اتفق عمنا «أبو إلياس» مع الفلاح «أبو طنسي» على قلب (حراثة) قطعة الأرض القريبة من بيادر الضيعة؛ فطلب «أبو طنسي» أجرة ذلك (مسحة دره صفره)، يعني تنكة من عشرين ليتراً، وردَّ «أبو إلياس» : مسحة دره و»حبة مسك» يا «أبو طنسي».

انتهى «أبو طنسي» من حراثة قطعة الأرض بعد ظهر اليوم التالي؛ لأنه يملك زوجاً من البقر الممتاز المخصص للفلاحة؛ وجاء إلى ساحة الكنيسة، التي كانت تعتبر مقهى للختارية، حيث وجد «أبو إلياس»، وطالبه بأجرته. ولما كان بيت «أبو الياس» ملاصقاً للكنيسة، فقد صاح بأعلى صوته على «أم إلياس»، لتعطي الفلاح أجرته، وتم الأمر. ولكن «أبو طنسي» عاد ليطالب «أبو إلياس» «بحبة المسك» التي وعده بها. ضحك «أبو إلياس» وبقية شلة العجايز، وظنوا أنّ «أبو طنسي» يمزح، لأن مصطلح (حبة المسك) معروف على أنّه نوع من قفلة الكلام أو الموافقة على الطلب. ولكن «أبو طنسي» أصر على تنفيذ الاتفاق كما ورد حرفياً، قائلاً: «الشرط شرط وآخرتو رضى».

استهتر «أبو إلياس» بكلام الرجل وإلحاح «أبو طنسي» وانفعالاته، ثم ترك شلة الختارية وذهب إلى بيته ليرتاح. في الصباح، وجد أهل القرية أرض «أبو إلياس» مليئة بأحجار ضخمة. لقد أزيلت فائدة حراثتها. فاجتمع عقلاء القرية

وزعماء العائلات فيها، بناء على طلب «أبو الياس»، وتناقشوا في أفضل السبل لإقناع «أبو طنسي» بتحديد السعر الذي يريده «لحبة المسك» التي اندلقت من فم «أبو إلياس» وسقطت بين الأقدام، مقابل رفع الحجارة من الأرض! من وقتها دخلت «حبة المسك» في تسعيرة الفلاحة، وكانت تشكل، في بعض الأحيان، سبباً في نشوب صراع دموي بين عائلات القرية!

* * *

العيد الفضي لهجرتي!

قد يكون يوم الاحتفال بهجرتي القسرية هو من أتعس الذكريات؛ ففي كل عام، في الثاني من تموز، وهو يوم مغادرتي لدمشق ووصولي إلى مونتريال، تنتابني مشاعر متناقضة، وإن كان يغلب عليها الحزن والقلق، بدون نسيان الإحساس بالأمن. ولكن لذكرى هذا العام طعمٌ مختلفٌ، فهي عدا عن كونها تقع في اليوم التالي للعيد الوطني الكندي، وبعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على ثورة الشعب السوري ضد الطغيان، فإن للذكرى اليوم قيمة تاريخية، فهي تسجل مرور خمسة وعشرين عاماً على إقامتي الكندية ومثلها عن بعدي عن سوريا. أعرف أن سوريا «الأسد» قد تفوقت عالمياً في نفي أبنائها وقتلهم وتعذيبهم، وأن مأساتي لا تشكل نقطة في بحر عذابات سوريين آخرين، ولكنها تبقى شهادتي أنا رغم تواضعها.

لن أتكلم، في «اليوبيل الفضي» لهجرتي، عن الجوانب الإيجابية والسلبية لهذا الفعل الإجرامي الذي فعله آل الأسد بنا، بوصفنا سوريين، وسأكتفي بنقل رسالة أرسلها لي والدي العجوز منذ ذلك الوقت، تعكس بعض الألم الذي يعيشه والد لفراق أبنائه ومنهم أنا، خاصة إذا عرفنا أن هذا الوالد كان قد عاش يتيماً، بعد أن تركه والده طفلاً، وهاجر إلى الأرجنتين ولم يعد؛ فقد قرر الوالد أن لا تتكرر المأساة مع أبنائه، وعمل على تأمين الحد الأدنى كي يبقوا بجانبه في وطنهم، ولكن ما لم يحسبه هذا الوالد المسكين هو وصول حافظ الأسد إلى السلطة وتحويل سوريا إلى مزرعة خاصة، على الجميع فيها طاعته أو الموت أو ترك المزرعة، وهذا ما حصل يا والدي، سامحنا إذا كنا قد قصرنا في المحافظة على وطن جميل كسوريا.

* * *

رسالة من عطية سعد إلى ولده ميخائيل

ولدي وحبيب قلبي، أبا عمرو، أدامك الله وحماك ووفقك دائماً وأبداً، أما بعد، كيف صحتك أيها الحبيب وكيف أحوالك وأعمالك، عساها على ما أرغب لك، لا أعرف بماذا أبتدئ، هل ببث شوقي إليك أم بالدموع التي تتساقط، دون إذن، من مقلتي، وانا أجر القلم لأخط إليك رسالتي هذه، لكن شوقي إليك دفعني أن أبتدئ وأحرر هذه الأسطر، وكل كلمتين أو أقل أمسح دموعي التي تنهال خوفاً من أن تبلل الرسالة.

تركتني يا ميخائيل ولم أكن أنتظر منك ذلك، ولم أكن أصدق نفسي أن تكون قاسياً عليّ هكذا، تركتني وتركت قلبي يحترق ويذوب رويداً رويداً، تركت أباً عجوزاً كان سعيداً بقربك، وفرحته لا يبيعها بكنوز الدنيا، تركت الأب العجوز الذي كان يظن أنك ستكون سلواه، ويعيش ما تبقى من عمره بين أحضانك، إذا جعت أنده يا ميخائيل، وإذا عطشت أنده يا أبا عمرو، وخاصة عندما أمرض أقول اجلبوا لي ميخائيل، فمن أين لي هذا بعد غيابك عني، جميعه ضاع وضاعت أحلامي التي كنت أحلم بها، قاتل الله الزمن العاطل والظروف التي حرمتني كل من أحب وأبقيتني وحيداً فريداً بين مخالبها، تركتني وأخذت الأحبة من عندي، وأخذت ألتفت يمنة ويسرة، فلا أجد حولي سوى الهموم والأحزان. لقد سافر قبلك إخوتك فعلاً، ولكن لم يشكلوا فراغاً عندي مثل سفرك، لقد كنت ابني ورفيقي وصديقي في كل الأوقات، وإذا كان يمضي يوم لا أشاهدك فيه يكون مثل غمامة علي، ولا أتمكن من الجلوس حتى أراك، حتى عندما كنت في السجن، كنت أحسك قريباً مني، ولكن وقد ذهبت بالسلامة إلى مكان بعيد، حيث لا يمكنني رؤيتك بعده، وهيهات هيهات يا أبا عمرو، إن كان الزمان يعود ويجمعنا سوية. سامحك الله يا حبيبي، حتى مع ذهابك سراً عني.

بالفعل يا أبا عمرو أنا ضعفت بعدكم، وأخذت أعصابي تنهار وجسمي ينحل ونظري يشح من كثرة البكاء على فراقكم، فأشكو هذا الزمان العاطل إلى الله

وحده، وأشكو له لوعتي وحرماني من أحبابي، وأكثر ما زاد عليّ الهموم هو بيع أملاكك وعقاراتك التي بيعت بالكساد، فجميع ما جنيت طيلة عمرك ذهب مع الريح كالقش اليابس. أنظرُ إلى كل هذا وأحترق. ولم يبق أمامي إلا الدعاء لكم من عمق قلبي، طالباً من الله أن يجعل لكم في كل خطوة سلامة ويوفقكم ويرزقكم، وهذا الدعاء أكرره كل يوم عندما أضع رأسي على الوسادة.

أما من ناحية الحبيب والغالي عمرو، فهو والحمد لله أصبح شاباً ويفهم كل الأمور ولا يُسر إلا عندما يأتي لعندنا. وفي اليوم الذي لا تحضره أمه، يأتي لوحده، ويطلب حكايات مني ومن جدته، وهو والحمد لله بصحة جيدة، وكلما قلت له بعد ذهابك إلى كندا كيف ستحضر لعندنا؟ يقول: أقول لأبي وهو سيجلبني لعندكم.

نحن جميعاً بخير يا أبا عمرو، ما دمنا في بيتنا وعلى أرضنا، لا تحمل همومنا أبداً وانتبه إلى عملك.

ختاماً، أقبل خديك مراراً وتكراراً، ودمت لوالدك المشتاق

...

عطية سعد، حمص في ٢٢-١١-١٩٨٩

* * *

الكذب ملح الرجال

لم أعرف ماهية العلاقة بين الكذب والملح والرجال، إلى أن وقع بين يدي كتاب يتحدث فيه كاتبه عن بداية الاستعمار الأوروبي للمناطق البكر في القارة الإفريقية، حيث اكتشف الأوروبي أن ابن تلك المناطق لم يكن يستخدم الملح في طعامه، ولم يكن يعرفه أصلاً، فقدمه الرجل الأبيض هدية ثمينة إلى زعيم القبيلة، وأخذ مقابله كل ما يريد. وفي كل مرة، كان زعيم القبيلة يقبل فيها هدية الملح الأبيض من المستعمر، كان أبناء القبيلة يلاحظون التغيرات التي تطرأ علي زعيمهم، فإقباله على الطعام يزداد، و»صحته» تجاوزت الحد المألوف، وقدرته على الكلام والتعبير أضحت أكثر طواعيةً وتليناً، وأصبح يطلق حِكَماً لا يفهمون معناها ومدلولاتها، وعهدهم به لا ينطق بكلمة غير مفهومة. وعندما كانت تثور ثائرته لأتفه الأسباب كانوا يعرفون أن مؤونته من «الغذاء الأبيض» قد نفدت، ما دفع بالفضوليين إلى البحث عن السر، فوجدوه عند الرجل الأبيض، الذي كان قد بث هديته في غير مكان، ولأكثر من زعيم، فأدت إلى معارك دامية بين القبائل والفصائل المسلحة، وبين الأفراد الذكور في القبيلة الواحدة والطائفة الواحدة، وتغيرت، مع انتشار الملح، المعايير الأخلاقية، ووصلت إلى درجة تنطوي على قدر كبير من الزيف والنفاق، وظهرت قيم الأنانية، والتزاحم وحب الظهور، والرغبة في التسلق على أكتاف الآخرين في أوساط من كانوا يدعون الطهارة والموت فداء للوطن، كل ذلك جرى برعاية الرجل الأبيض، وملحه الأكثر بياضاً.

وفي فصل آخر من الكتاب، يعلق الكاتب قائلاً: إن الملح قد عرف في المجتمعات القديمة، وانتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، وأصبح ضرورة يومية لا يمكن الاستغناء عنها، واشتد الطلب عليه ما دفع ببعض الحكومات الأوروبية والأمريكية، في ذلك الزمن، إلى فرض ضريبة الملح على المواطنين في محاولة يائسة للحد من استخدامه، وفي الوقت نفسه لجني أرباح طائلة من وراء تحصيل هذه الضريبة.

أما في مجتمعات العالم الثالث، حيث الحكومات تذوب وتختفي كما يذوب الملح في الماء، عندما يتعلق الأمر بصحة وسلامة مصالح شعوبها، فإنها فرضت ضريبة الدم على الناس، وأغرقت الأسواق، في الوقت نفسه، بكمية كبيرة من الملح، الذي ينقل عدوى الكذب إلى الناس وخاصة في أوساط ما يُسمى «هيئات المجتمع المدني ونشطائه»، وهكذا أصبحنا نسمع قصائد المديح الكاذب والطرب الكاذب والثقافة الكاذبة والسياسة المنافقة في كل مكان، وخاصة في أوساط من يطلقون على أنفسهم ألقاباً طنانةً، كلقب ثائر ومناضل وناشط ومعارض وسياسي. وهكذا أيها السادة أسقطنا كل قيمنا الأخلاقية، ورفعنا راية جديدة وشعاراً وحيداً: «الكذب ملح الرجال».

وبسبب ازدياد نسبة الكذابين في ثورتنا السورية، «وجودة» أصنافهم، أصبحنا نستطيع الحصول على الملح بأرخص الاثمان، ومن أجود الأنواع...

* * *

هل فكرت بالمستقبل يا أحمد؟

في مطلع ١٩٨٩ كنت ضيفاً على مدرسة الأمريكان في طرابلس، ليس كمدرس أو كصحفي ولا كناشر، وإنما كسجين سياسي، تم نقله من فرع فلسطين في دمشق إلى مملكة غازي كنعان في عنجر، ومن ثم تم إرسالي إلى طرابلس، حيث مقر فرع المخابرات العسكرية السورية وسجنه المؤقت. استدعاني، في اليوم التالي لوصولي، رئيس قسم الحقيق وأنا مطمش العينين، مربوط اليدين خلف الظهر، وطلب مني بصوت هادئ الإجابة على أسئلته، ما شجعني على الطلب منه أن يرفع الطماشات عن عيني وفك قيودي إذا أراد الحصول على إجابات مريحة وحقيقية عن أسئلته. كان لكلامي وقع حسن عند المحقق، فطلب من العسكري أن يفعل ما طلبته، ثم قال للعسكري أن يخرج. كان شاباً بحدود الأربعين، جميلاً ورشيقاً وهادئاً، من دون أن يعني ذلك أنه غير قاتل، كما قال أثناء الحديث. تعارفنا، وعرفت أنه من قرية حصين البحر، حيث الصديقان حيدر حيدر وسعد الله ونوس. وعرف أن هناك مكيدة ضدي مرتبة بين بعض تجار الكتاب في دمشق وبين رئيس فرع فلسطين آنذاك مظهر فارس. أمضينا أربع ساعات في مكتبه، تغدينا وطلب لي باكيت دخان من حسابه، وقال لي أنه كان ملحقاً عسكرياً في السفارة السورية في باريس، وأن رئيس الفرع في طرابلس هو حمصي سني، وقد كان مع غازي كنعان منذ أن كان في حمص. في نهاية اليوم، عرض علي نص الكتاب المرافق لي، والصادر عن رئيس فرع فلسطين، وتركني أقرؤه، وفيه:

نرسل إليكم الموقوف ميخائيل بن عطية سعد للتحقيق معه بتهمة التعاطف مع حزب القوات اللبنانية وإعادته إلينا بعد تأكيد التهمة المشار إليها.

التوقيع العميد مظهر فارس.

كتب رئيس قسم التحقيق في طرابلس تقريره عن التحقيق معي، نافياً فيه التهمة الموجهة لي، وكان لصالحي بالكامل. وقال لي إنه بناء على ما كتب، يجب أن أعود إلى عنجر ثم إلى دمشق خلال يومين، عندما يعود رئيس الفرع من حمص

ويوقع التقرير. وقبل أن أخرج من مكتبه، طلب من العسكري وضعي في أفضل مكان في القاووش.

مرت الأيام والأسابيع بطيئة بانتظار العودة إلى سوريا، ومما خفف من وطأة القلق أنه في أحد الأيام، فتح الباب ودخل أربعة عساكر لقضاء عقوبتهم المسلكية معنا، لأنه لا يوجد مكان آخر في مدرسة الأمريكان ليكون سجناً خاصاً بعناصر المخابرات. كان الجنود شرسين مع المعتقلين، ويطلبون منهم أن يخدموهم، وكان استخدام «البوكس» أو الكف مسألة لا تستوقف لا العسكري ولا حتى السجين، فهو سلوك شبه عادي في المجتمع، فكيف ونحن في سجن المخابرات السورية، حتى اللبنانيين والفلسطينيين الذين كانوا معنا في القاووش كانوا قد تأقلموا مع السلوك السوري.

ولما كنا في الزاوية الأكثر نظافة في القاووش، فقد احتلت عناصر المخابرات الأماكن الأفضل بيننا، ووضعوا بطانياتهم وحاجاتهم فيها، وكان بقربي العسكري أحمد، الذي كان الأشرس بين المجموعة في تعامله مع الموقوفين. كنت أراقبه بشكل خاص، للهجته الحمصية، منتظراً اللحظة المناسبة للاحتكاك به، وجاءت منه، قال: أنت من وين؟ قلت: من حمص. وكانت للكلمة تأثير السحر وكافية لأن يقفز أحمد واقفاً على قدميه وينظر إلي متأملاً، ثم قال: من وين؟ قلت: من بستان الديوان. فاحمر وجهه وقال: من وين؟ قلت من زاوية الغسانية. أنا صاحب مكتبة دار الكتاب، هل تعرف المكتبة؟ صمت طويلاً وتغير لون وجهه ما بين الأحمر والأحمر القاتم، ثم صرخ بأقرب الموقوفين إلينا أن يبتعد ببطانياته عنا.

مر بعض الوقت لم يعد يوجه نظره نحوي. مساءً جلس بقربي فسألته: أنت حمصي، هذا واضح من لهجتك، ولكن من أي حي؟ قال دون أن ينظر في عيني: من باب الدريب. قلت له: يعني نحن جيران. قال: أنا بعرضك، عندما تخرج من هنا، لا تقل ما شاهدته مني هنا، في الحارة. سألته كم بقي من خدمته الإلزامية، فقال بقي علي ستة أشهر. سألته ماذا كان يعمل في الحياة المدنية

قبل الجيش؟ قال: لا شيء، كنت قد تركت المدرسة بعد الابتدائية وعملت في سوق الهال وحداد، وشو ما كان، حتى أتيت إلى العسكرية واختاروني لأكون في المخابرات. قلت له: وبعد انتهاء العسكرية، ماذا ستفعل؟ قال: أفكر أن أبقى هنا في طرابلس، فهنا على الأقل قد أجد عملاً، بالإضافة إلى أنني أحب فتاة طرابلسية. قلت له: ألا تعرف يا أحمد أن أغلب الموقوفين هنا هم طرابلسية؟ قال: أعرف وين المشكلة؟ قلت له: سأسألك، ماذا لو أن أحد الطرابلسية الذين ضربتهم وتضربهم الآن صادفك في الشارع مع زوجتك الطرابلسية، وعرف أنك لم تعد في المخابرات، هل تعتقد أنه سينسى أنك ضربته عندما كان بين يديك؟ وماذا ستكون ردة فعله، عليك وعلى زوجتك؟ وهل تعتقد أن المخابرات السورية ستدافع عنك بعد أن تكون قد أصبحت مدنياً، وهل أنت متأكد أن الصبية التي تحبك، ستبقى على حبك بعد أن تترك المخابرات؟

أصيب أحمد بالخرس وهو يصفن بما قلته، ثم قال: ماذا يجب أن أفعل؟ قلت له بقي أمامك يومان في القاووش وستة أشهر في الخارج، عليك أن تحسن علاقتك بالجميع كي تضمن احترامهم لك كإنسان.

بعد خروج أحمد من القاووش بيومين، جاء إلى النافذة الوحيدة والعالية جداً وصاح على أكثر الموقوفين شباباً وعضلات قائلاً له: ضع الأستاذ ميخائيل على كتفيك وارفعه إلى النافذة. اقترب وجهه من شبك النافذة وقال: خذ هذه الزجاجة، قلت له: ما هذه الزجاجة؟ قال: نصية عرق، أكيد أنت مشتاق للعرق؟ قلت له: شكراً يا عزيزي أحمد، أنا لست في المكان المناسب لشرب العرق، ثم ماذا لو أن معلمك عرف بقصة العرق ألا يخرب بيتك؟ قال: أي والله يا أستاذ، بس أنا حبيت أن تكون مبسوط، لا تتصور قديش كانت نصيحتك لي مهمة. قلت له: اذهب واستبدل العرق بدخان وسأقبل هديتك.

بعد أيام تم ترحيلي إلى سجن عنجر ومنه إلى سجن بيروت في البوريفاج، إلى إن وقعت حرب عون مع السوريين وهرب إلى السفارة الفرنسية.

بعد أن خرجت من السجن، قال لي أبي إن شاباً لطيفاً اسمه أحمد، من باب الدريب قد مر إلى هنا عدة مرات وسأل عنك، وقال إنه سيعود، لكنه أوصاني أن أقول لك إن كلماتك أنقذته وأنها محفورة في قلبه. سافرت ولم ألتق أحمد أو أعرف ماذا حدث له، فقد دمر جيش الأسد حمص القديمة كاملة بما فيها حي بستان الديوان وحي باب الدريب.

سألتقي أحمد يوماً ما في حمص المحررة من الكابوس الأسدي.

* * *

دفاعاً عن العاطفية

في زحمة الموت السوري، حيث فقدت الكلمات معانيها، وتحجرت الدموع في العيون، وماتت قلوب البشر، واختلطت معايير الخير والشر، بعث لي أحدهم رسالة قصيرة ينتقد فيها كتاباتي العاطفية التي تفتقد إلى الموضوعية وعلم الإحصاء والبحث. كتبت، ليس رداً للتهمة، وإنما لتأكيدها.

***

صديقي السوري رجل حالم، فهو من البشر الذين يعشقون القضايا الخاسرة، يفتش عنها ليل نهار، وعندما يجدها يندفع إليها بحماس الأطفال، في اللحظة التي ينفضّ عنها البشر. لا تخطر بباله حسابات الربح والخسارة. فقط تأسره، تستحوذ عليه ومضة حق تكاد أن تُطمر تحت نفايات هذا العالم الخرافي، فينبري للدفاع عنها. ميزان العدل والحق عنده ليس لحظة البربرية المعاصرة التي تسود العالم، إنه ميزان الإنسانية الذي بُني قطرة قطرة، وكلمة كلمة، وومضة ومضة، عبر عشرات الآلاف من سنوات بربرية البشر.

صديقي يرقص طرباً داخلياً عندما تلتقط أذناه كلمة حق، ويُصاب بإحباط مميت عندما يكتشف أن كلمة الحق هذه سكّين أُريد بها نحر أناس أو مجموعة من البشر، فيلملم قطرات دمه المبعثرة بين أقدام الخنازير وسياط الألسن وينقّيها من شوائب الكلمات والحروف السامة ليعيدها إلى أصلها، وينام متعباً على وسادة منسوجة من أحلام الأطفال الوردية.

وصديقي رجل صادق، صادق في حبه لوطنه في أوقات المحن والسعادة، في السرّاء والضرّاء، ينقد سلبياته التي يعرفها جيداً، لا بهدف التدمير والشماتة، وإنما بهدف بلوغ أعلى درجات الانسجام بين تلوينات عناصر تكوينه، التي تبدو للسائح أو المغرض نشازاً، بينما هو يراها كأوتار آلة العود، كل وتر يُطلق النغم الخاص به، والجميع معاً يعطون اللحن المبدع، المتناسق، المنسجم، الذي يُطرب الآذان ويُرقص الجسد ويغني الروح. أو كلوحة الفسيفساء المكوّنة من ألوان

مختلفة وأحجار متنوعة الأحجام والقياسات، ولكنها في مجملها العام تكوّن لوحة فذة في تناغمها.

وهو صادق في حبه للآخرين، لا يشوب حبه مصلحة مادية، آنية أو استراتيجية، إلا إذا اعتبرنا حاجته للإنسان نوعاً من المصلحة. هو يفكر في الآخرين ومشاعرهم قبل أن يفكر في ذاته. يبرر لهم أخطاءهم الصغيرة وهفواتهم، ويراها من طبيعة البشر، بينما يلاحق نفسه ويحاكمها ويلومها على أتفه الزلات.

هو صادق في حبه للأصالة، أكانت هذه الأصالة خارجة من بين أصابع فلاحة لم ترَ من العالم غير بيتها وبقراتها، أو بادية للعيان في سلوك موظف أو معلم أو قاضٍ أو سياسي أو صنائعي أو فنان. إنه مولع بالأصالة، لا أصالة الثروة والحسب والنسب، وإنما أصالة الخلق والإبداع والفكر والعمل وتطابقها مع الممارسة اليومية.

وصديقي عاطفي، يثور ويغلي كالمرجل، لساناً وجسداً، عندما يسمع رجلاً يكذب بصفاقة ووقاحة، مدعياً الطهارة، وهو غاطس في مستنقع القاذورات، مستغبياً الآخرين، وهو ملك الأغبياء، لا يتركه إلا وقد جرّده وعرّاه من كل أقنعته. وأكثر ما يحتقر رجلاً يصنع من ذاته حذاء للآخرين، ينتعلونه جديداً، ويرمونه في القمامة مهترئاً تبول عليه الكلاب.

صديقي السوري، أيها السادة، متهم من أكثر من طرف وجهة بارتكاب جريمة الانتماء إلى حزب السوريين العاطفيين المحظور، الباحثين عن الحرية، وقد أقر بتهمته، واعترف بالجرائم المنسوبة إليه. وعلى الرغم من إصراره على الاستمرار في اقتراف الجرائم المشار إليها سابقاً، ورغبته العلنية في الثبات على مبادئه، على الرغم من كل ذلك، أطلب تخفيف الحكم عليه لسبب علمي وجيه: أنه ينتمي إلى نوع من البشر، يحاول نظام الأسدين، منذ أكثر من عامين، إفناءه.

* * *

أخلاقنا وأخلاقهم

ما من حلقة تُعقد، هذه الأيام، ضامة بعض المهاجرين إلا ويدور الحديث فيها عن الثورة السورية والأخلاق. ولما كان الحديث في الثورة قد يؤدي إلى توترات وارتفاع الاصوات ما بين مؤيد ومعارض وناقد، فقد قررت استبعاد الحديث عن إيجابيات الثورة وعيوبها ، والذي تحول إلى موضة أكثر منها نقداً بناءً يهدف إلى تصويب المسار. وقررت، بناء على ذلك، الاكتفاء بالحديث عن الأخلاق التي يتفق جميع المهاجرين بمختلف أديانهم ومواقعهم الفكرية وأقطارهم على تثمين الأخلاق الشرقية والحط من قيمة الأخلاق الكندية «الغربية».

لقد لاحظت، على مدى الـ ٢٤ سنة التي أمضيتها في كندا، أنه ما من ندوة أو اجتماع ضم أكثر من اثنين إلا ويكون لحديث الأخلاق فيها نصيب الأسد، حتى لو كان موضوع الندوة علم الأحياء أو الذرة. وما من خلاف نشب بين زوجين إلا ويتم الترحم على الأخلاق، حتى لو كان سبب الخلاف هو نوع الغداء أو موعد العشاء. وما من مراهقة أو مراهق يهجر البيت الأسري إلا وتُشحذ السكاكين، وتُستمطر اللعنات على الأخلاق الكندية «الفاسدة»، ولو كان المسبب الحقيقي لفعل المراهق أو المراهقة هو فساد أخلاق الأب أو الأم أو الاثنين معاً. وما من مقال يُكتب في صحافتنا المهجرية، يشرح الكاتب فيه أنواع البصل والثوم والبطاطا والبطيخ، وإلى أي الأسر النباتية ينتمي كل منها، إلا ويتدفق من بين السطور شلال الأخلاق، غامراً عالم المهاجرين.

وكنا، في الجالية السورية، قبل الثورة وبعدها، قد أخذتنا الحمية والحماسة، وركبت النخوة رؤوسنا المسرّجة، وقررنا أن نتتبع مصير الأخلاق، ونقتفي أثرها، فمنا من حمل فانوساً ودبوساً، ومنا من حمل بلطة وفأساً وترساً، ومنا من أحضر ناقة أو فرساً أو دبابةً أو سيارة رباعية الدفع، ومن منا أحضر ثياب السباحة وعدة «المكياج»، ومن منا حضّر الأقلام والورق لتدوين الملاحظات وإرسالها إلى الجهات العليا المختصة، وعقدنا العزم، وتوكلنا على الله، وافترشنا بساط الريح،

وقد شذ عن هذا الإجماع الأخ سمير السوداني، الذي أصر على الاستعانة بالخيّرين من الجان، المختبرين من الحكام واللجان، فقبلنا بعد لأي مصالحين، ممائين، وبدأت المسيرة الكبرى في البحث والتقصي والتنقيب. وكنا، في غمرة حماسنا واستعداداتنا، قد نسينا طلب مواصفات الأخلاق للاستدلال عليها: ما عمرها، ما لون عينيها، كم يبلغ وزنها، ما العلامات الفارقة التي تميزها عن غيرها من الأخلاق، ما لون ونوع الكحل الذي تستخدمه، هل هي عازبة أو متزوجة أو مطلقة أو أرملة، هل هي عبلة الجسم مربربة أم طويلة نحيلة مهلهلة، وهل يمكن أن تتأثر بعاديات الزمن فتشيخ وتتغير ملامحها بتغير المكان والزمان؟

ولما كان دليلنا هو «بصيرتنا»، لا بصرنا، فقد كنا واثقين، مؤمنين، أننا إن لم نعثر عليها، فعلى الأقل سنعثر على بعض آثارها، (أليس البعض يدل على الكل...) أو على ظلها، وهو أضعف الإيمان!!! وكانت محصلة البحث والتنقيب، لدى كل فرق البحث السورية، المعارضة والمؤيدة والرمادية، هي التالية: - انهيار القيم الكندية - تفكك الأسرة - ارتفاع نسبة الطلاق - انتشار السيدا أو الإيدز- الشذوذ الجنسي- الخيانات الزوجية- انتشار المخدرات- تعاظم شأن الجمعيات النسائية المتطرفة التي تطالب بالمساواة- العنصرية -البطالة... إلى آخر المعزوفة.

بعد أن استرحنا من عناء السفر والبحث والتنقيب، واغتسلنا في الحمامات الكندية الأنيقة، المزودة بالمياه الساخنة والباردة، مستخدمين ما أنعم الله به علينا من أنواع الشامبو والعطور، اجتمع شملنا لتوصيف الأخلاق الكندية «المجرمة»، التي كبدتنا كل ذلك الجهد والعناء، وللبحث في إمكانية القضاء عليها، أو على الأقل تهجيرها وتوطين أخلاقنا في أرضها. وقد رأينا، نتيجة البحث، أن كل واحد منا ينطلق في حكمه على الأخلاق الكندية من منطلقات غير منزهة عن الأغراض الشخصية، والتي قد تكون بسبب: فشل علاقة حب معها، أو رفضها استقبال رجل مسن في فراشها، أو طلبها من عريس مهاجر مهراً عالياً، أو احتقارها لرومانسي جبان لا يجرؤ على البوح بحبه علناً، خائفاً لومة لائم، أو بسبب طردها لكاذب دنيء، يمطرها الكلام المعسول وهو قادم إليها،

ويشهّر بها بعد أن يخرج منتفخاً كديك المزابل، ناعتاً جسدها الذي التهمه مع فضلاته، أو ما يزال يمضغه، بالقذارة والنتانة... أو... والله أعلم ما في الصدور...

ولما كان من الصعوبة بمكان الاستمرار في النقاش على النحو الذي ذكرنا، ولأننا ما نزال نصور الأخلاق الكندية ونحاكمها اعتماداً على المثال الذي يحتل مساحة عقلنا، ألا وهو «أخلاقنا الكريمة المحصنة ضد العيوب»، التي هجرناها وهاجرنا إلى غيرها، ولم نعد ندري ماذا فعل بها الحكام والزمن، لذلك قررت اللجوء إلى عالم محترم كحَسَنْ حنفي ليخبرنا ماذا حل بأخلاقنا، في بلداننا العربية، وبقوله يكون حسن الختام، يقول:

«ما دام الخاصة يتاجرون بالقلم، أصبح الناس يتاجرون بكل شيء، العلم تجارة، تمثيل الناس في مجلس الشعب تجارة، أصبح المنصب السياسي المرموق وسيلة للكسب المادي. يتاجر الأب بكليته، وتتاجر الأم بابنتها، وتتاجر الأسرة بأبنائها، فإن اختلف التجار فالجريمة والعقاب».

أنهي الاقتباس من حسن حنفي، متمنياً على الثوار على أرض سوريا العزيزة تناسي المداحين والتجار من الخارج، والانتباه لوضعهم، فقد بدأت روائح الأخلاق المزيفة تنتشر مع اختلاف تجار الثورة فيما بينهم، والتي تفوح في كل مكان، وأخلاق الثورة والثوار لا تقبل ذلك.

* * *

رسالة من السجن: الحبيبة أم عمرو..

كل الصباحات الجميلة سرّ روعتها الحب وأنتِ، وكل الأيام السوداء التي مرت، والتي قد تمر، ما كانت محتملة لولا الأمل بأننا سنعود لنكون معاً. قد يتقصف العمر على دروب الحرية، وفي «أقبية الأمن» قبل العودة ثانية إلى المرفأ الآمن، إلا أن الأمل يكبر مع كل محاولة جديدة.

بعيدة هي المرافئ عن البحار في الليالي العاصفة، قد تكون الحرية على بعد أمتار منه ومن سفينته، إلا أن الرياح العاتية تبعده عن شاطئ الأمان، لكن قدر البحار ألا يستسلم لغضب الطبيعة الآني، وعليه أن يقاوم، فهو الذي يعرف أن الريح، لا بد، خاضعة في النهاية لقوة إيمانه وزنديه، وصلابة ومتانة أشرعة مركبه، وكذلك هو قلبي.

الحبيبة مها....

في الذكرى الخامسة لزواجنا، والتي تقع هذا اليوم ١٧-٢-١٩٨٩، أجد نفسي جالساً في زاوية مظلمة من هذا السجن لأكتب إليك، متأملاً حياتنا الماضية، وكيف مشيناها خطوة خطوة منذ تعارفنا في بيروت، حيث كنت قد وجدت مأوى وعملاً بعد أن طردني بلدي، وحيث كنتِ هناك تبحثين عن العلم في جامعتها العربية، وحتى الآن. كم كانت جميلة، ناعمة ودافئة رغم بعض حالات الصخب فيها. وأجد الذاكرة تقسرني على العودة إلى الوراء سنوات، فأتذكر أن ما كان يعذبني، أكثر من غيره، في المرة الأولى التي سُجنت فيها، أي منذ ثلاثة عشر عاماً، هو أنني كنت وحيداً. صحيح أنه كان لي صداقات متعددة، لكنها لم تكن تروي ظمأي، فالحب هو الذي يروي ظمأ الإنسان، وهذا ما كنت أفتقده، أما الآن فالأمر مختلف تماماً، الحب يغمر قلبي ويتغلغل في كياني، فهناك مها وعمرو، بالإضافة إلى الصداقات التي كانت تميز حياتي عن حياة الآخرين ولا تزال. وكلما أمعنت النظر في حيوات البشر العاقلين الذين أعرفهم أزداد اقتناعاً بأن أهم ما في حياة الإنسان العاقل هو علاقته بالإنسان الآخر، حبيباً كان أم صديقاً

أم جاراً. إن المكاسب الأخرى، على أهميتها، لا تعادل صداقة حقيقية واحدة.

هل تعتقدين أنني أبالغ؟

قد يكون جوابك: نعم، أنت تبالغ.

وفعلاً، ربما أبالغ، ولكن على مستوى التعبير والتعميم فقط. أنت تعرفين أن الإنسان محكوم دائماً، وبشكل من الأشكال، بظروفه. إلا أن حقيقة تجاربنا أثبتت أن لا حب بين رجل وامرأة إذا كانا عاجزين عن بناء صداقات حقيقية وصادقة مع آخرين.

دعيني أشرح وجهة نظري ببعض الأمثلة: إن الأناني مثلاً لا يستطيع أن يحب إلا ذاته فقط، والآخرون يكتشفون ذلك سريعاً، فتبقى حدود علاقتهم به حذرة، متيقظة، غير عميقة، وآنية. وهو عندما يدّعي الحب والهيام بامرأة ما، يكون كاذباً، لأنه إنما يحب ذاته، ويحب المرأة على أنها شيء من ممتلكاته الشخصية، وأول من يكتشف ذلك هي المرأة ذاتها التي يدعي الهيام بها وحبها، فلا حب إذاً ولا صداقة، وإنما تبادل منافع.

قد تسألين مرة أخرى: ولكن من منا لا يحب ذاته؟

بالتأكيد، إن الإنسان لا يستطيع أن يحب غيره إذا كان لا يحب ذاته، ولكن الفرق كبير بين الأناني الذي لا يرى إلا ذاته، ويعتقد أن الكون بأسره إنما خُلق ليكون له، وبين الإنسان الذي يكتشف أن حبه لذاته إنما هو مدخل لحب الآخرين كذوات منفصلة عنه، لها استقلاليتها ومصائرها الخاصة.

وهنا أريد أن أصل إلى النقطة المحورية التالية في هذه الفكرة، وهي موجهة إلى ابننا عمرو قبل غيره: إن الأب الذي لا يستطيع أن يزرع الحب في قلب أولاده، سيكون هو أول ضحية من ضحاياهم. والحب ليس كلمة تقال مرة وتحفظ في الذاكرة، ولا هو ثياب تشترى، ولا هدايا في المناسبات. إن الحب هو سلوك يومي، دائم ومستمر. إنه سلوك يومي بين الأب والأم، وبينهما وبين الأولاد،

وبين الأسرة ككل والعالم الخارجي، فالحياة وحدة مكونة من مجموع أجزاء الحياة اليومية، وأي محاولة لإبعاد جزء منها هو تشويه لا بد أن يظهر في حياتنا، في لحظة من لحظاتها، مهما طال الزمن. إن الأب أو الأم التي أو الذي يكذب كل دقيقة، لا يستطيع أن يعلم أولاده الصدق. وإن اللص الذي لا يطاله القانون، ويظن نفسه فهلوياً وذكياً، ينسى أن ابنه أو ابنته سيعرفان في لحظة ما أن أباهم لص، وبعد قليل سيدفع الأب الثمن إما بنفسه أو بابنه أو بعائلته.

الحبيبة الغالية

لقد أطلت في الكلام، كعادتي، في شأن آخر، وإن لم يكن بعيداً عن المناسبة، إنما أنا مشتاق إليك كاشتياق العصافير إلى الطيران، مشتاق للنوم في حضنك كاشتياق الرضيع إلى صدر أمه، مشتاق إليك كاشتياق الضفتين إلى النهر.

إن صباحات الحنان مع فنجان القهوة والسيكارة ونحن معاً لا تفارق ذاكرتي. إن كل يوم وكل دقيقة تمر علي وأنا بين هذه الجدران السوداء المليئة بالقهر والكراهية تجعلني أكتشف كم كنت بعيداً عن الشاعرية والرومانسية والأحلام معك.... كم ظلمتك بواقعية كنت أتصورها الحقيقة، الآن فقط أعرف أن حلم الحرية يجب يبقى مرفرفاً في حياتنا، وفوق سماء بلدنا لأنها هي الضمانة الوحيدة لحب الإنسان، ولا قيمة لأحد في غياب هذه الحرية.

أما أنتِ، سيدتي، فأنت الجمال والحب، وكل عام وزواجنا بخير

زوجك ميخائيل سعد

• كتبت هذا الرسالة في قبو فرع فلسطين وعلى أوراق أغلفة باكيتات الحمراء في ١٧-٢-١٩٨٩

* * *

الخط الأعوج من الثور الكبير

كان عمي جرجي خبيراً في الفلاحة، يأتي إليه الفلاحون من قريتنا والقرى المجاورة كلما استعصت عليهم مشكلة يطلبون حلاً لها، علماً أنه لم يكن يملك أرضاً للفلاحة ولا زوجاً من البقر أو الحمير وهو أضعف الإيمان لممارسة الفلاحة. وعمي جرجي لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وهو بالكاد كان قد حفظ عن ظهر قلب صلاة - أبانا الذي في السموات -، ويحكى أن خوري الضيعة الذي كان يردد الصلاة أمامه كي يحفظها قد أصابه اليأس من إمكانيات عمي جرجي على الحفظ، فاستشاط غضباً أكثر من مرة وسب الدين أمام بعض أهل القرية ما خفف من احترام الناس له. ومما يزيد في الاستغراب أن حظوظ عمي جرجي، مع ذلك، كانت تنمو وتتكرس كخبير في الفلاحة مع الزمن، وكانت تلك السمعة الكبيرة تقف حاجزاً امام المشكك في خبرة الرجل.

خطر ببالي، في أحد الأيام، وكنت مراهقاً، أن أهجر حمص وصباياها، وأن أمضي صيفيتي في القرية، مسقط رأسي، يعني حيث سقط رأسي بمجرد خروجه من رحم أمي. ولما كنت بنظر أهل القرية ابن مدينة وأسكن فيها، فقد كانوا يعاملونني باحترام أكثر من احترامهم لشوفير البوسطة التي تمر مرة واحدة في اليوم باتجاه مصياف. واحترامهم لي لم يكن سببه كوني قد أنهيت الصف الأول في دار المعلمين وانتقلت إلى الصف الثاني عام ١٩٦٦، ولا بسبب ال (٨٠) ل. س، راتبي الذي كنت أتقاضاه من الدولة لأنني طالب في دار المعلمين، وإنما لأنني ببساطة أسكن في المدينة، وكان هذا بحد ذاته يحيطني بسحر خاص، تكوّن في ذهن الفلاحين عن المدينة والمعارف والقدرات العظيمة التي يملكها أبناء المدن مقارنة مع أبناء الريف. يكفي ذكر قصة الخبز الموجود في الأفران وسهولة الحصول عليه مقارنة مع عذابات المرأة في الريف كي تحضر الخبز للعائلة، بالإضافة للخرافات التي تنتشر بين الفلاحين عن المدينة، وكيف أن هناك دكاكين متخصصة. واحد للثياب وآخر للنجارة وثالث للحدادة، وهذه من الأسباب التي شجعت فيما بعد الريفيين على الهجرة للمدينة. وكان عمي جرجي من هؤلاء

الفلاحين الذين يحترمون أبناء المدن أو سكانها، مثلي مثلاً.

كنت قد سمعت، كما غيري، عن خبرات عمي جرجي في الفلاحة، وكيف أصبح مرجعاً في هذا المجال، فقررت تتبع قصة شهرته وذيوع صيته في قرى المنطقة. قصدته بعد ظهر أحد الأيام، وكان جالساً أمام داره، في ظل الجدار الوحيد، القريب من كنسية مار جرجس، فسلمت وجلست بقربه. سألني عن صحة والدي وبقية أفراد العائلة وعن سبب وجودي في القرية. فقلت له: لقد ضجرت من ضجة المدينة ومجاملات الناس لبعضهم وقررت أن أستفيد من وجودي في القرية لقراءة بعض الروايات، والاستماع لقصص الناس هنا، ومنها رغبتي في معرفة قصة شهرتك كخبير في الفلاحة، خاصة بعد أن قال لي أبي إنك لم تكن في يوم من الأيام فلاحاً، ليس تعففاً، وإنما لفقر الحال، وإن أبي يظن أنك لا تملك حتى هذا اليوم عدة الفلاحة مثل: المحراث والصمد والمساس واللبادة والشرع، ناهيك عن الدواب، أكانت بقراً أو حميراً لاستخدامها في الحراثة، فإذا كان كلام أبي صحيحاً، فكيف أصبحت خبيراً في هذا المجال؟

أصلح من جلسته، شاداً ظهره إلى الجدار، ومد يده ليصلح وضع لبادته على رأسه، وكأنه أحد المعارضين أمام كاميرا التلفزيون، ثم مد يده إلى جيب شنتيانه (سرواله) وأخرج علبة دخانه المعدنية، ليلف سيكارة حموي فلت، وضعها بين شفتيه، قبل أن يخرج قداحته الفتيل، المربوطة بدكة شنتيانه، ويشعل سيكارته. مج سيكارته، ثم سعل قائلاً: خرجت أحد الأيام من البيت صباحاً، أفتش عن أي شيء للأكل. مشيت قليلاً في زواريب الضيعة ثم توجهت إلى الحقول، فالموسم هو موسم الفلاحة ولا أحد في البيوت. وجدت (أبو حنا) وعائلته في حقلهم الكبير، والصراخ يعلو من هنا وهناك، فسلمت وجلست على أمل أن أتناول معهم كسرة خبز. كان أبو حنا وراء المحراث الذي يجره ثور وحمار، وما إن وصل إلى نهاية الحقل حتى علا صراخ الجميع إن الخط مائل، والمقصود طبعاً خط الفلاحة، وليس خط المُخْبر، كاتب التقارير. لم يرد أبو حنا على صراخ العائلة وأمر دوابه بالدوران ليحرث خطاً آخر، عندها بان العور والميل في الخط

فتوقف الرجل وقام بتغيير الحمار، ووضع بدلاً عنه بقرة ضعيفة، فكانت النتيجة مشابهة: الخط دائماً أعوج. مرة جديدة قام أبو حنا، وهو يكفر، بتغيير البقرة الضعيفة بثور صغير العمر، وما إن بدأ بالحراثة حتى بدا واضحاً ميل الخط باتجاه الثور القوي الكبير، عندها وقفت صارخاً: يا خيي بو حنا الغلط من التور الكبير. توقف الرجل وقام بتغيير الثور الكبير واضعاً مكانه ثوراً صغيراً مثل الآخر، ثم تابع الفلاحة فكانت النتيجة سليمة وأصبحت الخطوط متوازية.

تابع عمي جرجي قائلاً، بعد أن جدد سيكارته وأشعلها بقداحته العجيبة: أكلت يومها حتى شبعت. وكنت كلما توقفت يلح أبو حنا علي كي أتابع الأكل وهو يقول: الغلط دائماً من التور الكبير. وذهبت مثلاً في القرية والقرى المجاورة. وبدأ الناس يتوافدون لاستشارتي في مشاكلهم الزراعية، حاملين معهم ما تيسر من المواد الغذائية، وكنت أتعلم من قصصهم، وأرويها لآخرين، فكان منها ما يصح ومنها ما يعطي نتائج سيئة، وفي هذه الحالة كان الناس أنفسهم يبررون لي الأخطاء وينسبونها إلى عبقريتي الخاصة التي تعجز عقولهم عن معرفة خفاياها. وهكذا بدأ الناس يطلبون مني التدخل في حياتهم الشخصية، من سيتزوج، ومن لم تحمل امرأته، ومن يمرض، وبدأت أعتقد أنني أعظم وأفهم رجل في القرية، إلى أن وصلت إلى السياسة، وهنا كانت الطامة الكبرى. ففي عام ٦٤ جاء شخص غير معروف إلى القرية، وسألني عن رأيي فيما جرى في حماة من قتل للناس وهدم للجوامع، ولما كنت لا أعرف ماذا حدث هناك، فقد كررت جملتي الشهيرة، والتي كنت أستخدمها دائماً عندما لا يكون عندي جواب مقنع، فقلت للرجل: الغلط مو من الناس، الغلط من التور الكبير. ذهب الرجل دون أن يقول شيئاً، ولكن بعد يومين جاءت إلى القرية سيارة جيب فيها ثلاثة رجال، أخذوني معهم إلى حماة، وسألوني عن قصة التور الكبير. حكيت لهم قصة الثور، ولكنهم لم يصدقوا إلا بعد أن حلفت لهم مليون يمين بالله والمسيح ومار جرجس أن هذا كل ما أعرفه عن القصة. أكلت بعض اللكمات قبل أن يتركوني، محذرين: إنني في المرة القادمة سأبقى طويلاً عندهم.

ختم عمي جرجي قصته قائلاً: يا بن أخي، نحن الآن وحدنا، تشهد الكنيسة على ما أقوله لك: دائماً الخطأ هو من التور الكبير، لأنه يريد أن يشد الأمور لجهته.

تذكرت شهادة عمي جرجي هذه الأيام، وقسمه قرب الكنيسة، أن الخطأ هو من الثيران الكبيرة أكانت في الكنيسة أم الجامع أم الدولة أم الأحزاب السياسية المعارضة والمؤيدة، وهم من يجب تغييرهم كي تستقيم الخطوط وتصبح متوازية.

* * *

ثقافة الصناديق

فضحت الثورة السورية كل الناس، داخل سوريا وخارجها، وخاصة شريحة المثقفين، فلو أُتيح لك، عزيزي المهاجر، وكل سوري الآن مهاجر أو مُهجَّر، الوقت والصبر اللازمان للتدقيق في خطاب غالبية «المثقفين العرب» الشفوي منه والمكتوب، في مناسبات مختلفة، فسوف تلتهمك الدهشة، كما يلتهم هو الكتب والدوريات، وأنت على حافة اكتشاف التناقض اللامعقول في خطاب هذا المثقف أو ذاك.

اللامعقول ليس فقط في مضامين خطابه المتناقض حسب مقتضى الحال، وإنما أيضاً في التفاوت ما بين (أطنان) الكتب المرصوفة في ذاكرته، وبين سلوكه اليومي، ابتداء من اللحظة التي يفتح فيها عينيه وصولاً إلى ما قبل لحظة الأحلام، تلك الأحلام التي، ربما، تكون لحظة التطابق الحقيقية الوحيدة بين ما يعتقد ويمارس، في سيرورة حياة قد تصل إلى مئة عام. ولكيلا ينبثق «مثقف» مزدوج الولاء، في غبار المعارك التي نخوضها، شاهراً سيفه وترسه كي يعتقل الفواصل والنقاط، أهرول فاراً من أمامه، لتفصيل ما أوجزت، وبسط ما انطوى من حكم، قد يبدو قاسياً، قبل نشره على الحبال ظهيرة (يوم عرب).

إن معنى الثقافة والمثقف مرتبط بأذهان الغالبية العظمى من البشر في بلادنا بعدد الكتب التي يقرؤها فلان من الناس، أو بعدد الشهادات التي ينالها علتان آخر، وخاصة إذا كانت شهادة جامعية. عندها يُدرج اسمه آلياً في قائمة (المثقفين) المعلقة في قاعات الأحزاب السياسية، أو على جدران الجمعيات الدينية، وفي المقاهي الشعبية الجهوية.

ويزداد حضور المثقف المشار إليه في أوساط الجماهير وقلوبها، كلما ازداد عدد الكتب التي قرأها، أو ذكر أسماء الكتاب والصحفيين والفنانين الذين يعرفهم معرفة شخصية. وقد يُنصب أميراً للثقافة إذا كان قادراً على الخوض في مواضيع شتى، مؤيداً أو ناقداً، عن جدارة وحق أو عن ادعاء وجهل. فالمثقف هنا يعني ذلك

الشخص المتكلم، القادر على استظهار أبيات الشعر والحكم والأمثال، والآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، وأقوال السياسيين أو المفكرين الثوريين أو الزعماء الوطنيين. والاستشهاد بالحوادث التاريخية ومنجزات الشعوب الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحق تقرير المصير، كل ذلك بدون أن يكلف نفسه عناء التوقف لحظة واحدة ليرى موقعه في وسط هذا الضجيج الثقافي. وهنا أسمح لنفسي بالاجتهاد والوصول إلى حكم مفاده، أن المعنى السائد لكلمة مثقف قد يكون الامتداد التاريخي لمعنى الخطيب أو شاعر القبيلة، القادر على تطويع اللغة والقبض على ناصية المفردة، ومن هنا، ربما جاء الوصف الذي يطلقه بعض الناس على المثقفين بأنهم فرسان الكلام.

أما المعنى الحقيقي للثقافة من حيث هي - صقل للذهن والذوق والسلوك وتنميته وتهذيبه - فهو غير موجود، لا في الشارع العربي ولا في المهاجر. وكذلك أيضاً معنى المثقف، الذي يعني في أبسط معانيه الحقيقية أن يكون مبدعاً أو مبتكراً، أو متذوقاً للإبداع، قادراً على التمييز بين الإنتاج الرفيع والإنتاج الهابط، وذلك لا يمكن أن يتم دون أن تتحول الثقافة إلى سلوك يومي، وإلا سيبقى عقل هذا المثقف، بشكل عام، ومهما كان اتجاهه الفكري أو انتماؤه الديني أو الطبقي أو درجة الشهادة التي نالها أو نوع التحصيل العمل الذي حصل عليه، يشبه رفوف المكتبة التي تضم كل المعارف، ولكنها تبقى منفصلة عن بعضها، فعندما يكون الحديث عن الدين يفتح هذا المثقف الكتاب الديني المطلوب لاستخراج شاهده، وعندما يكون الموضوع هو الدولة المدنية يقوم بفعل الشيء نفسه، وعندما يكون الموضوع عن تربية الأولاد يفتح موسوعة الأطفال المخزنة في عقله.

سأنهي حديثي مستشهداً وكاشفاً غطاء - صندوق ثقافي - يحوي بعض المفاهيم التي يسوق لها أحد - أعمدة الثقافة العربية في مونتريال - والذي يحب كثيراً ترداد كلمات التسامح والتضامن ووحدة الجالية والديمقراطية والحوار والحرية والانفتاح على الآخر والإصلاح، دون أن يقول له أحد: قف إلى أين أنت ذاهب يا هذا؟

إن ذاكرة غير مثقوبة، وقراءة عادية في خطاب هذا الشخص وغيره، تذكرنا

بخطاب النظام القاتل في دمشق والأنظمة العربية الأخرى الشبيهة، فتلك المفردات تعني أن وحدة الجالية، المقصود منها وحدة الطائفة، والتسامح الذي ينادي به ما هو إلا تسامح الكبار مع المتطاولين من الصغار وغفران زلاتهم والعفو عنهم، وهذا ما جسده بشار الأسد عندما أعلن عفواً عاماً وإذ به يقصد المجرمين. وإن الحرية في نظر هذا المثقف الصندوقي المهجري، ما هي إلا حرية الطائفة أو العشيرة في أن تدخل الشرنقة، وأن الحوار المطلوب ما هو إلا حوار الشرانق مع بعضها، شرط أن تبقى كل شرنقة منغلقة على ذاتها تأخذ ولا تعطي، وأن الانفتاح على الآخر لا يعني أكثر من اللقاء في المناسبات الجماهيرية وإلقاء الخطب والقصائد والمحاضرات عن عبقرية القائد والقيادة الحكيمة وتناول وجبات الطعام، ويعود بعد ذلك كل واحد من مثقفينا إلى صندوقه يقبع فيه، بانتظار مناسبة أخرى.

أخيراً، من الواضح دائماً أن معارف المثقف المعارض أو المؤيد، بقيت في الكتب، سواء كانت في المكتبة أو في صندوق خشبي، ولم تتحول إلى سلوك يومي، ولذلك بقي هذا المثقف أسير الطائفة والعائلة والقبيلة والقرية والمدينة والحي، وبقي مجرد قارئ رديء للحياة.

* * *

فيلم سوري طويل في المهاجر

في البداية، وقبل حفلة الشتائم، أعتذر من السوريين وغير السوريين، غير المقصودين بهذه الحفلة، لأن بعض الطراطيش ستصيبهم عن غير قصد. كما أعتذر ثانياً من الذين يعتبرون أنفسهم فوق النقد وقد تجاوزوا مرحلة البديهيات، فمع هؤلاء لا يجدي النقد ولا النخز ولا الشتيمة. وأعتذر ثالثاً، من العقل الإنساني الذي خطا خطوات عملاقة عبر الأجيال، أهلته أن يتبوأ المكانة التي وصلها حتى الآن، بينما نحن ما نزال نحقق النصر تلو النصر في قدرتنا على الانحدار في حواراتنا وجدلنا الثقافي والسياسي إلى الحضيض، وإلى ما دون البديهيات الأولى للمعرفة.

إن اختلاط الأوراق السياسية، وفقدان الأدوات المعرفية، وأسباب الهجرة، الخفي منها والمعلن، وانشطار الشخصية وانفصامها، وانعدام الرؤيا أو انحسارها، وسقوط الاحلام، والقدرة الفذة على النسيان أو فقدان الذاكرة، والنظريات التربوية، والحماسة الدينية أو الوطنية أو القومية أو الطائفية، كل ذلك بالإضافة إلى أشياء كثيرة أخرى، يجب ألا ينسينا، كمهاجرين، أننا في بلد ظروفه السياسية والاجتماعية والمعرفية، وبالتالي القانونية مختلفة كثيراً عن ظروف بلداننا الأصلية، وأنه علينا أن نستفيد من وجودنا في هذا البلد كي نعيد النظر في ذواتنا، وأن نكشف خلايانا الملوثة بجراثيم السلطة بأشكالها المختلفة، قامعة كانت أم مقموعة، للضوء، ضوء الثلج أو ضوء الشمس لا فرق في ذلك. المهم أن نرى عيوبنا وسلبياتنا وأمراضنا بعيوننا المجردة، وأن نرتفع بحواراتنا إلى مستوى الإنسان الذي يستطيع أن يرى صورته وصورة الآخر في المرآة دون أن يهشمها، وأن يسمع صوته وصوت الآخر في المذياع أو التلفزيون دون أن يحطمه، وأن يقبل ضمنياً وعلانية أن اليد اليسرى غير اليمنى، وأن قطع واحدة منهما يعني أنه أصبح معاقاً، ولن يستطيع التصفيق لا للحرية، ولا للسلطة الديكتاتورية المتربعة فوق عرش عقله، ولن يستطيع أيضاً استخدام العصا أو البندقية ضد الديكتاتورية السياسية التي أوصلته إلى الحالة التي هو عليها الآن.

علينا أن نرتفع في حواراتنا، ثقافية كانت أم سياسية أم دينية إلى مستوى القبول بالآخر، مهما كانت قناعاته وهويته. من دون الإسفاف والهبوط إلى مستوى الشتائم والاتهامات والابتزاز والتخويف والتخوين، تحت يافطات وشعارات لم تعد ملكاً لأحد إلا لمعامل القماش أو الورق أو لكليهما معاً. أما صدق الكلمة وحريتها ومدى تطابقها مع أخلاقيات العمل اليومي، وانسجامها مع الأساليب الحضارية، فنتركها لحكمة القارئ، الذي لا بد أن يكتشف، عاجلاً أم آجلاً، تطابق الفكر والممارسة أو تناحرهما، لأنه هو الحكم والميزان في ذلك.

إننا مع مبدأ تسويد الصفحات، على حد تعبير أحدهم، بالكلمات والأفكار، وليس بالدماء والسواطير، لأننا نرى، ببساطة متناهية، أن طرح الأفكار والآراء، مهما كانت متناقضة، هو لخير السوريين ومصلحتهم، في الداخل والخارج، لأن الإنسان عدو ما يجهل، ونحن في الحالتين ضد العبودية والجهل، ومع المعرفة مهما كانت قاسية، لأنها طريقنا للالتقاء أو الاختلاف، ولكن بحرية.

أما بالنسبة لمن لا يريد تسويد صفحات جرائده الورقية أو الإلكترونية، فليبقها بيضاء أو صفراء أو زرقاء، أو كما يشاء. إن الورق صنع كي يسوَّد، كما أن الدم وجد كي يكون أحمر.

نحن نعيش فيلماً سورياً طويلاً أبطاله الشعب السوري ومجموعة قتلة من كل الأمم، فلنحاول على الأقل، معرفة قتلتنا، ولماذا يقتلوننا كي نختصر رحلة العذاب.!!!

* * *

الهجرة إلى الشرق

عندما اخترتُ عنوان هذه المقالة، كان بذهني الكاتب السوداني الشهير الطيب صالح وروايته الأهم عربياً، في هذا الباب - موسم الهجرة إلى الشمال - والصراع الذي دار بين بطل الرواية، مصطفى سعيد ابن الجنوب، العربي المسلم الأسود، وسيدة الشمال البريطانية الشقراء، والمآل التصادمي المحزن بين الطرفين. أنقل هنا بعض ما بقي من آثار ذلك الصدام عبر نقل قصة حقيقية، تشاء المصادفات أن يكون بطلَها شابٌ مصريٌ يعيش في (مونتريال) ويحمل نفس اسم بطل رواية الطيب صالح.

تعرفت على مصطفى المصري قبل حوالي عشر سنوات، كان قد تزوج حديثاً من شابة لبنانية. كنت قد أنهيت قبل قليل، وأنا في سن الخمسين تماماً، تحصيلي المهني الجديد، بعد أن أمضيت عشر سنوات متجولاً في مونتريال بين صحفها العربية وهموم جالياتها العربية، التي كانت في الحقيقة همومي الشخصية قبل أن تكون هموم الجاليات، إلى أن طفح الكيل، وبدأت ملامح أزمة كبيرة تلوح في حياتي، فقادني صديقي محمد إلى معهد مهني لتعلم الإخراج الفني والصحفي، وهذا ما كان. أنهيت دراستي بطلوع الروح، وقررت تأسيس شركة للخدمات الطباعية والتصميم، وبدأت البحث عن زبائن، وهكذا كان مصطفى المصري من بين أوائل زبائني وأكثرهم كرماً ومعرفة لما يريد.

بعد كل احتكاك تجاري كنا نقترب من بعضنا أكثر، ونكتشف بعضنا أكثر. لا أعرف ما هي الصورة التي كوّنها عني في عقله، ولكنني كنت أقرأ نتائجها الإيجابية من خلال الثقة المتبادلة التي كانت تنمو بيننا كل يوم؛ ولكنني أعرف جيداً الصورة التي كونتها شخصياً عنه خلال علاقتنا المستمرة منذ سنوات.

لم ينل مصطفى تعليماً عالياً قبل هجرته من مصر إلى كندا وهو في بداية العشرينيات من عمره، وعندما وصل، لم يترك الوقت يتسرب من بين أصابعه، كما فعلت أنا مثلاً، بل انخرط في سوق العمل فوراً، فقد كان عليه إعالة نفسه وعائلته التي

تركها في القاهرة. كان مسلماً بعمق، وغير مهتم بالطقوس اليومية للدين إلا صلاة الجمعة، فقد كان حريصاً على الذهاب يوم الجمعة لأداء صلاة الجماعة. كان إيمانه العميق يتجلى في سلوكه اليومي، وتعامله اللطيف مع الناس، وحبه للعمل والإخلاص فيه، فلم يحدث مرة أن ترك عمله بدون أن يكمله تماماً، ولم يعرف عنه مطلقاً أنه يغش أو يكذب في مواصفات البضاعة التي بدأ يصنعها بنفسه، مما أكسبه احترام المحيطين به وثقة زبائنه، فنما عمله وازدهر، واشترى منزلاً لعائلته، التي بدأ عدد أفرادها يزداد، وافتتح محلاً تجارياً ثانياً، وبدا وكأن أموره كلها تسير كما تشتهي سفنه.

قبل حوالي السنتين، وكان الوطن العربي يغلي في ناسه وأزماته وربيعه السياسي، اتصل بي مصطفى يسألني عما يحدث في سوريا، ويدعوني لشرب فنجان من القهوة في محلة. ونحن ندردش عن أحوالنا العامة والشخصية، فاجأني مصطفى بالقول إنه قرر العودة إلى مصر والإقامة النهائية هناك، فبعد عشرين عاماً من الهجرة، لم يعد يتحمل الابتعاد عن مصر وأهله، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، قلقه النفسي الذي كان ينمو مع نمو الأطفال، قال: أنت تعرف أخي ميخائيل أنني أحب أن ينشأ أطفالي في جو إسلامي صحيح، وأن يتعلموا التربية الإسلامية السليمة، وهذا أمر يبدو صعباً هنا، رغم أننا لا نقصر في ذلك لا أنا ولا زوجتي.

كانت المفاجأة بالنسبة لي كبيرة، لأن الإنسان الذي ينجح عادة في عمله يحب مكان إقامته ويراه جميلاً، ولكنني رأيت في الأمر أيضاً صدقاً كبيراً مع النفس، ورغبة حقيقية من مصطفى في أن يعيش قناعاته الدينية والأخلاقية بعيداً عن المصلحة المادية اليومية، والتي كان قد أمّن متطلبات الحد الأدنى منها. تابع قائلاً: لن أتصرف بأملاكي وعملي هنا، سنذهب أنا وزوجتي وأطفالي الثلاثة للإقامة هناك، وبعد عام، إذا كانت الأمور جيدة سأعود لتصفية أموري هنا. قلت له: عندي سؤال، أريد الإجابة عليه من قبلك بصراحة، كعادتك: هل شجعك وصول الإسلاميين إلى الحكم في مصر على التفكير بالعودة؟ قال مصطفى بكل جدية وسماحة نفس: نعم، ازداد أملي في أن تكون مصر والشعب المصري

في حالة أفضل مما كان عليها.

ودعت الرجل، بعد أن عرفت أنه سيسافر خلال أيام، متمنياً له إقامة طيبة في ربوع مصر الكنانة. مرت الأيام بسرعة على الجميع ولم أنتبه للوقت، وأن مصطفى مضى على سفره أكثر من خمسة أشهر. فلم نكن على علاقة يومية قبل رحيله كي أفكر به. أحياناً كان يخطر على بالي عندما أسمع تطورات مصر، وخاصة الجدل الدائر بين أطرف النخب السياسية المصرية وصراعاتها التي تصل أحياناً حد السخف. منذ عدة أيام كنت أمرّ من أمام محله بالمصادفة، فلفت انتباهي حركة غير عادية في المحل، توقفت ودخلت لأرى مصطفى في وجهي، سلمنا على بعض معانقة، وقادني إلى زاوية نجلس فيها بعيداً عن حركة الزبائن، بادرت: هل عدت لبيع أملاكك؟ قال ضاحكاً: بل عدت لأحسن شروط العمل فيها ولأطورها، فأنا قررت أن تكون كندا وطني ووطن أولادي النهائي. قلت له: هل أطمح بمعرفة المزيد من التفاصيل عن قرار العودة إلى كندا؟ قال: ببساطة، ودون فلسفة، فأنا لا أتقنها كما تعرف، وجدت يافطات الإسلام فوق أغلب المؤسسات الاقتصادية والمالية والسياسية والاجتماعية؛ باختصار، الشعارات الإسلامية موجودة في كل مكان، ولكنني لم ألمسها في قلوب المصريين ولم أرَ الدين في سلوكهم اليومي، وهذا ما سيظهر ضرره لاحقاً، فقد بدأ بعض الناس يميزون بين السياسة والإسلام، لقد اكتشفت بالممارسة اليومية، أن الإسلام الحقيقي موجود هنا. قد يفتح علي هذا الكلام باب جهنم لو قلته بشكل علني، ولكنني أريد في النهاية مصلحتي ومصلحة أولادي، وهي هنا، دينياً وتجارياً وتعليمياً، وليست في مصر.

وكان موسم الهجرة إلى الشمال من جديد.

* * *

مرايا الثورة

في رواية «ذئب البوادي» للكاتب الألماني هرمان هيسه، فصل يحمل اسم «غرفة المرايا» يدخل الكاتب بطله إلى هذه الغرفة ليجد عشرات المرايا، كل واحدة تريه جانباً من جوانب نفسيته الحقيقية. في إحدى المرايا يجد ذاته مبعثرة، مفتتة إلى أجزاء متصارعة، متقاتلة، الجديد في الحياة يريد أن يطبعه بطباعه الحديثة. القديم يقاتل للاستمرار على نمط حياته، بل واستدعاء ما مات بفعل عامل الزمن. الهدوء يغريه بالسكينة المطلقة والابتعاد عن كل ما يتحرك في الحياة، والصخب يصور له حياة المجون الجميلة ومتعها الحسية وعدم الإحساس بالمسؤولية. الكل في صراع، وكل جزء يحاول الانتصار على بقية الأجزاء. في مرآة أخرى، يكتشف هو الإنسان الذي كان يتباهى بحضاريته وقيمه الإنسانية، بأنه ليس بعيداً كثيراً عن البربرية وأكلة لحوم البشر؛ بل إن المرآة تريه نفسه وهو يستمع بأكل أخيه الإنسان حياً. كما تظهره كم هو قريب من صورة الديكتاتور الذي حاربه زمناً، ومن صورة اللص الذي حاكمه وسجنه. إنه العنف المنفلت من كل عقال. باختصار: يكتشف بطل الرواية أنه يحمل في أعماق نفسه وعقله تاريخ البشرية كله منذ نشأتها، القبيح منه والجميل منذ طفولته المتوحشة وصولاً إلى حضارة القرن العشرين. ويعرف أن التلوينات والتزويقات التي تغطي سلوكه وفكره وثقافته، ما هي إلا قشور هشة، مركبة الواحدة فوق الأخرى، سرعان ما تتداعى عندما يواجه موقفاً قد يؤثر على رفاهية عيشه ومكاسبه المادية، التي ربما كان قد اغتصبها في غفلة من الزمن، من غيره.

في مرآة رابعة، تصاب رجولته بصدمة عنيفة، وتهتز فحولته الذكورية عندما يعرف أن في أعماق نفسه تربض امرأة ناعمة، رقيقة العواطف، تبحث عن رجل يلبي رغباتها العاطفية والجنسية. وفي مرآة خامسة، يرى نفسه ذلك الطفل الضعيف الذي ما زال يحبو على ركبتيه والباحث عن الرعاية والعطف والحنان. وتهتز بداخله صورة الرجل المعتد بقدراته وصموده ورفضه لما يحيط به. وتتوالى المشاهد في كل مرآة جديدة، ويتعرى بطل الرواية ليس من ثيابه فقط وإنما من

كل خفايا نفسه الدفينة، عندها يعرف من هو بالتحديد قبل مغادرته لغرفة المرايا. ويتخذ قراره الواضح: التعامل مع هذه الأجزاء المكونة لشخصيته، وعدم الخجل منها، فهي في مجموعها العام تكون وجوده المادي والثقافي والروحي، أي وحدة الجسد والروح.

الثورة السورية، بالنسبة إلى السوريين، كغرفة المرايا في رواية هيسه، ولكن ما يميزها عن مرايا هيسه أنها حقيقية، حسية، نلمسها باليد كل ثانية، أو نرى آثارها على الأرض، ونرى الإنسان فيها في كل حالاته، من النذالة المطلقة إلى التضحية المطلقة بالذات من أجل الحرية، من أكلة لحوم البشر إلى السمو بالروح والتي تفوقت على أخلاق الأنبياء. في إحدى مرايا الثورة، نرى كيف أن تاريخ ١٤٠٠ عام جرى إحضاره وتحطيمه إلى شظايا؛ كل شظية فيه تستخدم كسكين لذبح الإنسان السوري المعاصر. ونرى كيف أن المثقف والثقافة قد تخليا عن واجبهما الريادي، وانحدرا لدرجة فلسفة هذا القتل والدفاع عنه. وفي مرآة أخرى، نرى القيم الكبرى كالحب والتعاضد وهي تتحول إلى سلع للتجارة وكسب المال. في الثورة السورية، ترى البشرية في تحولاتها وانتكاساتها وتقدمها وتراجعها، في رسالاتها السماوية، وفي مسخ هذه الرسالات وتحويلها إلى سواطير للقتل.

من الصعب حصر عدد مرايا الثورة السورية، فهي قد تبلغ ٢٣ مليون مرآة، كل واحدة بدورها متعددة المرايا، ولكن لتسهيل الأمر يمكنها حصرها في: مرآة المؤيدين لنظام القتل، ومرآة الثورة، ومرآة الحيادين، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التداخل قائم ومستمر ومتبدل بين مكونات هذه المرايا، فالبطل قد تجده في كل المرايا، والسافل أيضاً.

عذراً لهذه الصورة السوداوية للثورة السورية ومراياها، والتي تبدو للوهلة الأولى وكأنها شظايا مرايا مهشمة، إلا أنها في الحقيقة مرآة واحدة سليمة تعكس حقيقة ذواتنا وأنفسنا وأوضاع الإنسان السوري والمجتمع السوري بمستوياته المتعددة والمعقدة. إنها مرآة سحرية تستطيع أن تصنع المعجزات، لأنها تصنع التاريخ الحديث لسوريا ولجزء مهم من العالم المعاصر، وما علينا كسوريين إلا الاستمرار

في رعاية مرايا الثورة وتلميعها كلما غطتها الدماء والرايات الصفراء والسوداء، وذلك بمزيد من رحابة الصدر وديمقراطية الفكر والممارسة.

* * *

فستان زوجتي

كانت زوجتي، التي دعست في بطن الخمسين، تقلب بين يديها «كتالوغ» لإحدى شركات الملبوسات النسائية. فجأة شهقت، وجحظت عيناها، ورجفت شفتاها، حتى خطر على بال ابني أن يطلب سيارة الإسعاف، وهي متوفرة في مونتريال، وليس الأمر كما في سوريا، ولكنها أشارت إلينا بيدها قائلة، في الوقت الذي كانت ما تزال عيناها مثبتة على صورة ما في (الكتالوغ)، إن كل شيء بخير.

عاد كل منا إلى اهتماماته، أنا على «الفيسبوك»، ابني يرسل رسالة نصية إلى صديقته الجميلة التي كنت أحسده عليها ضمنياً، ولكن لا يليق بي كأب ورب أسرة محترم أن أظهر غيرتي من ابني، وخاصة في مجال النساء، فكنت أخفي هذه الغيرة والحسد بتقديم النصائح له عن عدم تضييع وقته في أمور تافهة مثل الاهتمام بالجميلات والكتابة إليهن، مما دفع بزوجتي، أثناء إحدى محاضراتي الأخلاقية، إلى الانفجار بوجهي قائلة: من يسمع كلامك يعتقد أن زوجتك بشعة، وغير رشيقة، ولا تهتم بالجمال... وقد بذلت جهداً كاذباً كي أجعلها تصمت.

بعد قليل، ابتسمت ابتسامة ساحرة، ذكرتني بأيام العشق الأولى عندما تعرفت عليها في بيروت قبل ثلاثين عاماً. فقد كانت الابتسامة لا تفارق شفتيها مع لمعان غريب في العينين يوحي بألف شيء وشيء، مستغرباً فيما بعد، كيف حلت القسوة والجفاف محلهم، وقالت لي: تعال انظر إلى هذا الفستان الجميل، كم سيكون رائعاً عندما ألبسه؟ اقتربت منها مضطراً، لأنني كنت أكتب كلاماً جميلاً لصديقة افتراضية على «الفيسبوك»، وقد أزعجني طلبها، ولكن في الوقت نفسه لا أستطيع الرفض. نظرت في «الكتالوغ» لأرى فستاناً خلاباً، ترتديه صبية في غاية الجمال، وقد سمح الفستان للمشاهدات برؤية تفاصيل الجسد الأنثوي ورشاقته المثالية وجماله العظيم، قالت لي زوجتي: أليس جميلاً؟ قلت لها: الحقيقة إنه «بيعقد» من كتر جماله. ولما كانت لا تثق بما أقوله، فقد استشارت بعد ذلك ابننا الذي أبدى إعجابه بجمال الفتاة، ولم يهتم بالفستان، مما أزعج والدته، فصرفته سريعاً.

بعد هذه الواقعة بأسبوع، سمعنا صراخاً وشتائم تصدر من غرفة النوم، فذهبت أستطلع الأمر، وإذا بزوجتي تحاول أن ترتدي الفستان الذي رأته في (الكتالوغ). كان الفستان صغيراً على جسدها العبل والمليء بالشحوم، ولا يمت بصلة للصورة التي رأيناها. قالت: انظر إلى هؤلاء الغشاشين، النصابين، قليلي الضمير الذين باعوني فستاناً شنيعاً مثل هذا بثلاثمائة دولار. أنا متأكدة أنهم غشوني واستبدلوا ذلك الفستان الجميل بهذا الفستان السيء التفصيل والنوعية، سأقاضي هؤلاء الكلاب أصحاب الشركة، ألا يعرفون أن الغش يحاكم عليه في كندا؟

قبل أن أتكلم، صحت لابني كي يكون سنداً لي إذا قررت الوالدة استخدام عصا المكنسة أو كعب إحدى كنادرها لإغلاق فمي، ففي كندا الحق دائماً مع المرأة حتى لو كانت مخطئة، فجاء الشاب ملبياً ندائي، وعندما رأى ما رأيت، قال لها: ماما، شو صاير لك، عن جد إنك اشتريت هذا الفستان، الذي هو بالأصل لصبية وليس لك، ولواحدة نحيفة لا يتجاوز وزنها الخمسين كيلو غراماً، ورياضية وليس لسيدة خمسينية ووزنها فوق السبعين، من حسن الحظ أنك تستطيعين استرجاع ثمنه، اذهبي سريعاً لإعادته. شكرت ابني الذي أعفاني من تحمل بعض شتائم أمه، لو أنني قلت لها ما قاله، وقبلته على جبينه، فقالت زوجتي صارخة: أتشمت بي أمام الولد يا عدو الله والوطن؟

خرجت من دون أن أرد عليها، فأنا لا أريد فتح معركة أعرف سلفاً أنني الخاسر فيها. ثم خطر على بالي، من باب اللؤم والكيد، أن أقترح عليها أن تقوم بعملية توسيع للفستان على طريقة توسعة الائتلاف المعارض! رغم قناعتي أن الفستان سيتشوه نتيجة القص والوصل ولن يخفي عيوب الجسد المترهل في الوقت نفسه، وعلى افتراض أنها قبلت الفكرة فإن النتيجة ستكون كارثة على رأسي بمجرد أن ترى نفسها في المرآة، فكرت بالأمر سريعاً، ثم عدلت عن تقديم النصيحة لها، وأنا أقول في نفسي: هي تشبه فعلاً الائتلاف، فلن تعدم وسيلة لتقول إن الحق على الطليان.

* * *

المسيح الكندي المختلف

روى لي أحد الأشخاص الأتقياء المحترمين، أنه منذ وطئت قدماه أرض مونتريال لم ينقطع عن أداء طقوسه الدينية، لا يعيقه في ذلك عائق، ولا تقعده زوابع أو عواصف من المشاركة في صلاة يوم الأحد. وهو، رغم انتمائه إلى إحدى الطوائف المسيحية، فقد كان يرتاد الكنائس العربية على اختلاف أنواعها، كاسراً طوق العزلة التي يحاول كاهن طائفته فرضها على المؤمنين من رعيته، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بإلحاحه على ضرورة الحضور كل أحد إلى كنيسته، لأنها، برأيه المكان الوحيد في هذا المهجر، الذي يمكن عبره لابن الطائفة، نيل بركات الرب الإله وغفرانه ومحبته، حتى لينتاب المؤمن، وهو يسمع كلامه، أن الله غير موجود في الكنائس الأخرى.

كانت قدما هذا المحترم تقودانه كل أسبوع إلى كنيسة عربية جديدة، خاشعاً ومراقباً ومكتشفاً وباحثاً عن شيء مبهم يحاول تحديد ملامحه للوصول إليه، موسعاً، في الوقت ذاته، دائرة معارفه في أوساط المهاجرين. كان في سنوات حياته السابقة، المليئة بالتطواف الإجباري والاختياري، ولقاء كل أصناف البشر وألوانهم، قد استطاع الوصول إلى نوع من الطمأنينة الداخلية المبنية على التسامح وحب الناس، وتبرير عصبياتهم الصغيرة، باحثاً عن أسبابها التاريخية والاجتماعية والشخصية، وفهم بواعثها بدون إدانة أحد أو التجريح بمعتقده أكان دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً. ولذلك كان يرى أن الإنسان يحتاج، في أغلب الأحيان، إلى نوع من اليقين الداخلي يسند رأسه المتعب إليه، بعد رحلة قد تطول أو تقصر. كانت شخصيته المجربة والمتفهمة والمحبة تلك، قد أهلته أن يستوعب، من موقع المحب، بدون تبعية أو رفض، سلوك كاهن رعيته وإصراره على أبناء الطائفة بالحضور كلهم يوم الأحد، إلى كنيسته دون غيرها. كانت تحزنه، لبعض الوقت، مهارة الكاهن في إلباس مقاصده وأهدافه الشخصية، ورغبته في الحصول على حياة سهلة وهنية من جيوب المؤمنين، لبوس التشدد في طقوس العبادة، والحرص على وحدة الطائفة وتماسكها واستمرار تمايزها، أكثر من مهارته

في عرض جوهر المسيحية القائم على فكرة التسامح والمحبة والعدل، مستخدماً لتحقيق غاياته الخاصة، الثوب الديني الذي يمنحه قوة خاصة، وهيبة موروثة، وجلالاً ناله آباء الكنيسة الأوائل بدمائهم وأرواحهم، كما يفعل شهداء سوريا في هذه الأيام.

لكل ما سبق، كان صاحبنا يتنقل بين الكنائس، كتنقل الفراشة من زهرة إلى أخرى، باحثة عن الرحيق الصافي ولو كان في وردة شوك، إلى أن وصل، قبل فترة قصيرة إلى كنيسة كان قد زارها سابقاً، إلا أن جديدها كان كاهناً آخر وصل مؤخراً، لم يستمع إليه سابقاً.

قال لي: لقد كانت مفاجأة بانتظاري، في عظته الطويلة، القوية، المنتقدة لمظاهر الانحلال في المجتمع الكندي، حيث الأسرة مفككة أو غير موجودة، وحيث الابتعاد عن الأخلاق الحميدة، وطغيان المرأة على الرجل، وارتفاع صوت الطفل على صوت والده، والحرية الجنسية التي انحطت إلى دون ما هو موجود عند الحيوانات، في شذوذها وابتعادها عن أهدافها الحقيقية في الإنجاب، حتى كدت أخشى أن يندفع في حماسه أكثر ويتكلم عن المحافظة على معايير الرجولة التي تحدث عنها قبل أسابيع وزير داخلية حماس في غزة. وكانت المفاجأة عندما قال الكاهن بصوت قاصف كالرعد:

يجب أن تعلموا جميعاً أن إلهنا غير إله الكنديين، أن مسيحنا غير مسيح الكنديين.

قال صاحبي، وهو يرطب شفتيه الجافتين، بطرف لسانه: لقد ظننت لوهلة قصيرة أنني في مكان آخر، في كنيسة أخرى، ولكن عدت إلى رشدي متأملاً الناس الذين أعرف بعضهم، مدققاً في الوقت نفسه في شكل الكنيسة الداخلي، إلى أن تأكد لي أنني في كنيسة كاثوليكية، وأسمع كاهناً كاثوليكياً. مسيحه الذي يتحدث عنه هو مسيح غالبية «الكيبيكين»، وطقسه الديني هو طقسهم نفسه. بل هناك ما هو أكثر من ذلك، فالكاثوليكية التي يتبناها هذا الكاهن هي ابنة الغرب،

وقد وفدت إلى الشرق، فتعلق هو وأجداده في أذيالها لأنها غربية، فلماذا الآن يريد أن يرى في مسيح الشرق مسيحاً لا يشبه مسيح كندا؟؟

تابع صديقي قائلاً: لقد اكتشفت لاحقاً، بدون صعوبة، أن كاهننا هذا هو أحد رجالات نظام القتل في سوريا، وليس من مصلحته ومصلحة معلمه أن يكون هناك مسيح ديمقراطي، يؤمن بالتعددية، ومن الأفضل تحريض المؤمنين ضد هذا المسيح المتساهل مع عباده، والالتفاف حول مسيح شرقي ديكتاتوري يشبه بشاره.

* * *

خالتي سكر

خالتي سكر أمية لا تعرف القراءة والكتابة في الكتب والدفاتر، ولكنها تعرف قراءة النفس الإنسانية بالنظر والخبرة. عندما تزوجها أبي كان عمري ثماني سنوات، ومن يومها وإلى يوم زواجي وأنا في الثالثة والثلاثين من العمر، لم ينقصني شيء من الثياب والحنان والطعام، كان يكفي أن تنظر خالتي أم عبدو في وجهي عندما أدخل المنزل، حتى تعرف ماذا ينقصني.

وتمر السنون ونكبر تحت رعاية خالتي مغمورين بحنانها، وفي أحد أيام الصيف من عام ٧٨ نظم صديقنا جميل حتمل رحلة إلى قريتنا حزور، وكان من بين القادمين في الرحلة صبية كنت معجباً بها. لم أقل شيئاً عنها لخالتي ولا لأحد من أسرتي، ولكن عين الأم تلاحظ اهتمامي بالفتاة، فتوليها اهتماماً خاصاً.

في إحدى الأمسيات، وقد استطاعت خالتي الأمية أن تنفرد بالصبية الجامعية على سطح البيت الصيفي، قالت لها، في حديث عابر وكأنه غير موجه لها: هل ترين يا ابنتي هذا الملقط الحديدي المخصص لالتقاط الجمرات النارية؟ قالت الصبية: نعم أراه. قالت خالتي: الرؤية بالعين لا تكفي لمعرفة صلابة الحديد، خذيه بين يديك وجربي الضغط عليه. حاولت الصبية وقالت: إنه حقاً قاس. قالت لها خالتي: ابني ميخائيل مثل هذا الملقط، من الصعب الضغط عليه، ولكن عندما تستطيع صبية فعل ذلك، وتجمع طرفي الملقط، فمن الصعب بعدها إبعاد الطرفين عن بعضهما، هكذا هو ابني، من الصعب أن يحب، ولكن بعد أن يحب لن يترك حبه. سمعت بهذه القصة من خالتي بعد أن قررت الصبية الابتعاد عني. كنت أتمنى أن أكون عند حسن ظن خالتي، فيما يتعلق بوطني أيضاً.

* * *

زوجتي مها

وصلت زوجتي الآن إلى محلي، في زيارة غير معلن عنها سابقاً، وبدأت بقراءة ما كتبتُه خلال الأيام الماضية، لأنها تعمل خمسة أيام في الأسبوع، ولا وقت لديها لهدره في توافه الأمور.

كنت أسمع أحياناً ضحكتها بعد قراءة مادة كتبتها، كما أرى عبوس وجهها من وقت لآخر، وكانت أحياناً تصيح بي قائلة: ولا مضروب، هي القصة حقيقية؟

فأنكر أن القصة حقيقية، وخاصة عندما يتعلق الموضوع ببوست فيه نوع من الغزل لصبية افتراضية، وأقول لها: يا حبيبتي، لا تصدقي كل ما هو مكتوب في صفحتي، فهناك الكثير من الكذب، وأحياناً تكون صفحتي مهكرة، ويحاول أنصار النظام دب الوقيعة والخلاف بيننا، فانتبهي.

تلتفت صوبي قائلة: عن جد في حكي كتير كذب بالصفحة، وخاصة عندما تقول لي «حبيبتي»!!

* * *

ورق عنب في السجن

العام الدراسي ٧٤-٧٥ كنت معلماً في تلبيسة، كنا بحدود عشرين معلماً ومعلمة نذهب كل يوم من حمص إلى تلبيسة ونعود إلى حمص. على مدار العام نشأت صداقات بين المعلمين والمعلمات. في العام ٧٦ اعتقلت لأسباب سياسية، وبعد أربعة أشهر أمضيتها في سجن المزة، تم تحويل أبناء محافظة حماة إلى سجن حماة المدني. في أحد الأيام، جاء المساعد، رئيس مخفر السجن إلى مهجعنا وقال لي: في إلك زيارة.

استغربت وخرجت.

كانت الزائرة، أيها السادة، إحدى المعلمات التي كانت معنا في تلبيسة، وكانت الأجرأ. كانت معلمة تضع حجابها الذي لم تتخلَ عنه أبداً، ومعها طبخة كبيرة من ورق العنب، قالت لي إن أهلها وبعض المعلمات اللواتي كن في تلبيسة ساهمن في لف ورق العنب، لأنني أخبرتهم أنك في السجن وأنك تحب ورق العنب. لذلك كنت دائماً أحب حمص وعنب داريا، وأحب السوريين كلهم.

* * *

الثورة والزواج

١

قبل نهاية العام الأول من عمر الثورة، كتبت لي صديقة حلبية افتراضية أنها تعيش جحيماً حقيقياً مع زوجها، فهو مؤيد وهي مع الثورة ولا تعرف ماذا عليها أن تفعل وتطلب المساعدة.

في رسالة أخرى قدمت شرحاً موجزاً عن حياتها الزوجية، ولم تحاول أن تداري حرجاً ما، وهي تتحدث عن كرهها الجسدي لزوجها قبل قيام الثورة، فقد كانت تشعر في كل مرة تكون مضطرة لتلبية رغباته الجنسية أنه يغتصبها من جديد، ولكنها بقيت صامتة لأسباب دينية واجتماعية واقتصادية.

وعرفت منها أن زوجها أحد أثرياء المرحلة الأسدية ويدافع عن ولي نعمته ليل نهار، وأنه يدعو إلى التمسك بالطقوس الدينية من صلاة وصوم وحج، ولكن في الحقيقة لا شيء يربط بين سلوكه الخفي والتدين، فهما على طرفي نقيض. فهو يغش الناس بتجارته، ويرشو المسؤولين كي يزداد ربحه الحرام. وأضافت: رغم أنه لم يمض على زواجنا ست سنوات، فقد اكتشفت أن له علاقات متعددة خارج الزواج، وكان لا يخفي ذلك عني، بل يحاول أن يحدثني عن فلانة وعلتانة من عشيقاته وهو في سريري، في محاولة منه لإذلالي أكثر.

قالت الصديقة: لقد تحملت كل ذلك منه قبل الثورة، مرة بسبب الخوف، ومرة بسبب أهلي الذين كانوا يصرون على القول إن الطلاق سيُسيء لسمعتنا جميعاً، وبسبب الأطفال مرة ثالثة، وبسبب الرفاه الذي كنا نعيشه بمال حرام، كل ذلك كان محمولاً إلى أن بدأت الثورة وبدأ النظام في قتل الناس وتهديم الأحياء، وخاصة في حمص حيث هجر أهلي وأهل الحي، ونهبت البيوت واعتدي على أعراض الناس.

وكان زوجي ما يزال مصراً على موقفه من دعم النظام وتبرير القتل، فازداد الخصام

بيننا، ولم يعد هناك من وسيلة للعيش المشترك، فقررت الإقدام على فعل كنت قد أجلته عدة سنوات، رتبت أموري وأمور الأطفال وسافرت إلى حمص بدون أن أخبره، وعندما ازداد ضغطه على أهلي غادرت سوريا لأتخلص منه ومن هذا النظام الفاسد.

٢

في نهاية العام الثاني للثورة، أتيح لي متابعة قصة طلاق زوجين، السيدة مسيحية الدين والرجل مسلم سني علماني بعد مضي أكثر من خمسة عشر عاماً على زواجهما، وكان جميع من يعرفهما يشيد بعلاقتهما القوية وتفهمهما لبعضهما البعض. فللرجل حرية ممارسة طقوسه الدينية البسيطة والتي تقتصر على صلاة الجمعة وصيام رمضان، وللمرأة حرية الذهاب للكنيسة كل أحد. قبل قيام الثورة كان موقف الرجل واضحاً، فهو ضد النظام الاستبدادي وضد السجون ومع احترام حقوق الإنسان، لذلك كان من الطبيعي جداً أن يترجم مواقفه النظرية السابقة إلى ممارسة عملية بالتضامن مع الثورة قولاً وعملاً، وأخذ يصرف مزيداً من الوقت لخدمة الثورة داخل سوريا وخارجها، في هذا الوقت بالذات الذي بدأت فيه زوجته باكتشاف اختلافها عن زوجها، وتباعد وجهات النظر بينهما ابتداء من موقفهما من الثورة وانتهاء بنوعية وجبة الطعام والموقف من الأولاد الذين أصبحوا شباباً. ولم تنته السنة الثانية من عمر الثورة إلا وقد انفصلا وأصبح كل منهما يسكن في بيته الخاص.

بقي الرجل صامتاً عندما كان يسأله أحدهم عن سبب انفصالهما. وكان أحياناً يقدم مبررات لسلوك الزوجة بالقول إنها تعبت كثيراً في حياتها، وإن ضيق ذات اليد قد فاقم من مشاكلهما، وينهي حديثه في أغلب الأحيان متمنياً لها حياة سعيدة بعيداً عنه.

وكان ينقل عن الزوجة أنها لم تعد تحتمل هذا العقل الإسلامي المتعصب، وأنها بدأت تميل إلى الظن بأن الحكومة السورية محقة في قتالها ضد الجماعات

الأصولية الإسلامية، الذين يريدون إعادة سوريا إلى العصور الحجرية. وعندما يحاججها بعض الأصدقاء ويفندون أقوالها، وأنها إنما تعبر في هذا الكلام عن موقف طائفي، كانت تسارع لنكران التهمة، مستخدمة حجة أنها لم تكن طائفية بحياتها، والدليل أنها قد تزوجت برجل مسلم رغماً عن أهلها، ودفعت ثمناً غالياً من حياتها العائلية لقاء موقفها هذا. كانت السيدة بين الحين والآخر تكتشف مندهشة أن زوجها كان مسلماً!!!!

٣

وأخيراً، منذ شهر تقريباً، أي بعد سنتين ونصف من عمر الثورة السورية، تحادثت مع صديقة كانت تربطني بوالدها معرفة بعيدة واحترام، وقد لفت انتباهي الجرأة التي تكتب بها، وأنا الذي عهدتها حذرة في كل كلمة تكتبها، سألتها: أما زلت في دمشق؟ قالت: لا أنا في مصر. قلت لها: وحيدة أم مع زوجك؟ قالت: لقد تركت زوجي، وأظنك تعرفه، فهو يساري علوي مؤيد، ولم أعد أطيق الحياة معه بعد كل هذه السنين، وليس بإمكاني البقاء في سوريا كي لا يحسبوني على الإسماعيليين الذين أفتخر بأصولي الممتدة إليهم ومنهم، ولكن موقفي السياسي لا ينسجم مع بعض أقاربي، فقررت الخروج لأكون أكثر حرية في التعبير عن آرائي. وأريد أن أضيف لمعلوماتك أن الكثير من الزيجات المختلطة وغير المختلطة تتعرض لهزات عنيفة بسبب الثورة، بين مؤيد ومعارض.

خلاصة الكلام والاستنتاج أن الثورة قد كشفت الغطاء عن التعفن الذي كان منتشراً في كل نواحي الحياة في سوريا، بما فيه مؤسسة الزواج، التي خضعت مثل غيرها إلى الإفساد والفساد، وكانت الثورة مناسبة لإعادة تطهيرها وصياغتها من جديد.

ومن هنا يصح التأكيد على أن الثورة كانت ضرورة وليست رفضاً فقط لآل الأسد وحراميته، وإنما هي ثورة على كل شيء في الحياة السورية، ثورة لاستعادة الحرية والكرامة التي كانت مسلوبة منا على مدى خمسين عاماً.

* * *

قصة لم تنتهِ

أتى الصوت قوياً من الطرف الآخر من البيت: «ميخاييل روح اطفي النار تحت القهوة.» كان هذا صوت زوجتي آمراً لا يقبل اعتراضاً ككل مستبد. وكنت وراء الكمبيوتر أكتب شتيمة لأحد «الفيسبوكيين» الذي يتفوق علي بحصد «اللايكات»، ولأنني لا أريد أن أنسى الكلمات التي تعبت بلطشها من هذا البوست وذاك، وأنا أتجول على صفحات الأصدقاء، فقد قررت تجاهل الصوت «الصارخ في برية» بيتنا، ومتابعة الكتابة.

عندما وصلت إلى المطبخ كانت القهوة تسيل على أطراف الركوة العربية ومنها إلى سطح الفرن الافرنجي، تاركة ما يشبه آثار انفجار بركاني، فقاعاته البنية المتطايرة وصلت إلى الجدار الخلفي للفرن الأبيض، أما حممه السائلة فقد وصلت إلى أرض المطبخ.

لم يسعفني الوقت لإزالة آثار القهوة، فقد كان حضور زوجتي سريعاً، بعد أن انتشرت رائحة القهوة المحروقة في البيت كله، وما إن وقعت عيناها على الجريمة التي اقترفتها حتى علا صوتها: «بتضل بطيء، طول عمرك هيك، ما بيجي من وراك غير التعب، يا ريت تكون قعدتك ورا هالكمبيوتر مفيدة وبتجيب شوية قروش.»

لم أرد عليها، وحمدت الله أنها اكتفت بالحكي، ولم يسبق لسانَها كفُّها، كما يفعل رجال بلادنا بنسائهم لسبب أبسط من فوران القهوة.

عدت حزيناً إلى موقعي أمام الكمبيوتر، ومفكراً في الحالة التي وصلت إليها، محاولاً البحث عن مبررات بطئي وضعفي أمام زوجتي وأولادي، الذين يتقاذفوني مثل طابة في ملعب لكرة القدم، غير مهتمين بعمري الذي لامس حواف الخامسة والستين ويفوق عمر حزب البعث في السلطة، وتساءلت هل هي سُنّة الحياة أم أن هناك أسباباً أخرى؟

رجعت بذاكرتي إلى عام ١٩٨٠، على طريقة «الفلاش باك» في السينما، عندما تعرفت على زوجتي. كان ذلك في بيروت، وكان عمري خمسة وثلاثين عاماً، ووزني سبعين كيلو غراماً، وأعمل صحفياً، لا تتسع له بيروت الغربية إلا بصعوبة، وكنت أريد الهرب من قصة حب تموت في قلبي، بعد أن ساهمت في قتلها بيدي، فقد كانت الفتاة جميلة وذكية ومريضة، ومن دين آخر، وأريد الهرب من واجباتي الشجاعة تجاه فتاة تحبني فعلاً، وعمرها قريب من عمري، فكان أن عرفتني زوجة صديق على زوجتي، الفتاة العشرينية التي جاءت بيروت من أجل امتحاناتها الجامعية.

كان للعشرين عاماً حضوره الطاغي في اتخاذ قراري بالتخلي عن حبي القديم والارتباط بالعشق الجديد، وكنت، في ذلك، منسجماً مع سلوك أبناء جيلي التقدميين، الذين عندما يقررون الزواج ينسون شعاراتهم السياسية ويعودون إلى ثقافتهم الشعبية التي تقوم فيها الأم أو الأخت بالبحث للشاب عن زوجة «صالحة»، لم يُقبّل فمها إلا أمها.

لم أكن وقتها بطيئاً، كما شتمتني قبل قليل زوجتي، بل على العكس، كنت أحياناً أسبقها في كثير من الأمور، وخاصة في لياليا الحميمة، فقد كنت أصل إلى الهدف وهي ما تزال بعد في منتصف الطريق، وكأنها تصعد طريقاً جبلياً وعراً مخصصاً للماعز، ومع ذلك لم أتهمها قط بأنها كانت بطيئة.

كان من الصعب عليّ، في ذلك الوقت، يوم كنت شاباً جداً، ومثقفاً جداً، ويسارياً جداً جداً، الاقتناع بأنني سأصبح عجوزاً، وكنت أرى، عندما يكون لي مصلحة، أن الأعمار لا تقاس بالسنين وإنما بالتجارب والثقافة، وعليه فإنني سأبقى شاباً، وأن الفرق بين عمر العشرين عاماً والخامسة والثلاثين يمكننا تقليصه بقراءة الكتب والقصائد والبيانات السياسية وتربية الفتاة الصغيرة على يدي، وعند الضرورة، بكتابة الحجب وزيارة الأماكن المقدسة.

وقد برهنت الأيام أنني الابن الوفي لثقافة اجتماعية وسياسية سائدة، لم تعرف

كيف تقرأ الواقع ولا كيف تضع حلولاً لأزماته، بما في ذلك أزمتي مع زوجتي وأولادي. فقد كنت مستسلماً لفكرة سخيفة تقول إن المرأة تهرم قبل الرجل بحكم الحمل والولادات المتعددة، وتربية الأولاد والعمل المتواصل في البيت، وبالتالي فإن فارق عشر سنوات أو خمسة عشر عاماً أو حتى عشرين عاماً بين الرجل والمرأة هو أمر طبيعي، ولم يكن وارداً في الذهن مناقشة قضية السرعة والبطء في الحركة، والوصول السريع إلى المطبخ.

أخيراً وجدت أن لا معنى ولا مازية، لمتابعة جَلد الذات، كما يحدث في معارضتنا، كلما ارتكب أحدهم تقصيراً في القيام بواجبه تجاه ثورة شعبه، وأن ما حصل من قبلي، عندما قررت الزواج، سأتحمل نتائجه، والمهم ألا يتكرر مع أولادي، وأن أتخلى عن المنافسة السخيفة مع بعض «الفيسبوكيين» لجمع «اللايكات» والغيرة من بعض السياسيين، والاهتمام بعمل من شأنه خدمة الثورة السورية التي ستغير حياة السوريات والسوريين جميعاً.

* * *

جدتي والسرير الحديدي

أمضيت آخر خمس سنوات من عمر جدتي وأنا أنام في غرفتها، ولا أذكر أنني نمت ليلة كاملة نوماً متواصلاً، فقد كانت توقظني أكثر من مرة لنتبادل أسرتنا وأحياناً وسائدنا ولحفنا، وكانت تشكو دائماً من قساوة «راصورات» التخت الحديدي، وأحياناً من اللحاف القطني سيء الصناعة، أو من قساوة الوسادة التي تمنع النوم من الوصول إلى رأسها. وفي الحقيقة، كان السبب، في كل ذلك، هو عظامها، التي غدت، مع تقدم العمر، هشة ورقيقة، دون لحم يكسوها.

سألتها مرة، وقد طار النوم من عيني: ماذا بقي في ذاكرتك عن الحب يا جدتي؟ هل يخطر ببالك جدي الذي مات في الأرجنتين؟ قالت: الحب يا ابني...! ثم شردت قليلاً، وتابعت: حديد التخت كتير قاسي يا ستي، ما فيه حنية ذراع جدك.

لم تكن جدتي تنتظر سؤالي كي تبدأ باستحضار التاريخ، فلم يعد بإمكانها فعل شيء إلا تذكر الأيام الجميلة من تاريخها الريفي، متناسية المآسي التي كانت تمر عليها كل يوم، ابتداء من هجرة زوجها إلى الأرجنتين، وتركها وهي في عز شبابها مع طفلين، ثم وصول الطحين الجاهز إلى القرية، ما أدى إلى توقف العمل في طواحين المياه التي كانت تملكها، ما جعلها تقترب أكثر من الفقر الأسود، مروراً بالتحاق ولديها في سلكي الشرطة والدرك وإهمال الأرض، وانتهاء بوصول خبر وفاة زوجها في الأرجنتين، مترافقاً مع وصول حافظ الأسد إلى السلطة في سوريا.

قالت لي، بعد أن جلست على طرف السرير: كان جدك وسيماً، تتمناه كل فتيات القرية، ولكنني فزت به زوجاً، بمهارتي الشخصية في تحضير الطعام، وفي قدرتي على العمل في الحقل، وكنا مرتاحين جداً، ولم أفهم لماذا هاجر؛ فالبرغل كان متوفراً عندنا أغلب أوقات السنة، وكذلك التين اليابس والزبيب، لم يكن ينقصنا شيء. يبدو أن الفرنسيين قد لعبوا بعقله وعقل بقية الشباب المسيحيين فشجعوهم على الهجرة من مرفأ بيروت بعد ثورة (ال ٢٥) ضدهم، ليخلوا لهم الجو في التنعم بخيرات سوريا.

قلت لها مازحاً: ولكن رغم قولك إنك كنت تحبين جدي الوسيم، لم تستطيعي أن تنجبي منه إلا والدي وعمي! قالت: ومن قال لك هذا؟ لقد أنجبت ستة أطفال خلال ست سنوات، لم يعش منهم إلا والدك وعمك، فهما الوحيدان اللذان استطاعا مقاومة الأمراض، أما الآخرون فقد ماتوا قبل أن يتموا العام الأول من عمرهم.

سألتها، متظاهراً أنني لا أسمع جوابها وغير مهتم به: خلال غياب جدي الذي استمر أربعين عاماً، ألم يرفرف قلبك شوقاً لرجل آخر من رجال القرية؟ قالت بغضب، وكأنها نسيت آلامها: «فشروا، ولا واحد منهم كان بيطلعلو يطلع لركبة جدك». قلت: ولكن كيف صبرت على بعده عنك، وأنت الصبية المعروف عنها في القرية أنها كتلة من نار، وصاحبة الأراضي والحيوانات والطواحين؟

قالت، وكأن الوصف قد راق لها: في السنوات الأولى لهجرته، كان يكتب لنا مرة كل عدة أشهر، قائلاً إنه سيعود قريباً، عندما يجمع من المال ما يكفي كي نكون أثرياء. وكنت أقول لمن يكتب له الجواب أن يخبره أننا أثرياء، أوليس الثراء هو الأكل والشرب والنوم تحت سقف، ونحن نملك كل ذلك وزيادة، وأن أولاده يكبرون وهم بحاجة إليه أكثر من حاجتهم للمال، وأنه إذا استطاع إدارة أملاكه هنا فسيكون من الوجهاء مسموعي الكلمة. ثم بدأ عدد رسائله يتراجع وكذلك ما يرسله من نقود، وكان أملي بالعذراء الطاهرة وبعودته، مع ذاك قوياً، ما ساعدني على أن لا أرى من الرجال غيره، وكنت أذكره في كل قداس من قداديس الأحد في الكنيسة، كي يعرف الناس أنني ما زلت المرأة التي تحب زوجها رغم غيابه الطويل، ولم أقطع الأمل أبداً بعودته إلى سوريا إلى أن وصلت رسالة من خالك يقول فيها إن جدك إبراهيم قد مات، وكان ذلك قبل خمس سنوات من الآن.

أصرت جدتي، قبل وفاتها أن تعود إلى القرية، إلى البيت الطيني الذي بنته بيديها مع زوجها قبل حوالى ثمانين عاماً لتموت فيه.

بعد وفاة جدتي بحثت عن الأجزاء الناقصة من قصتها، فعرفت من أختها، أن

إشاعة انتشرت في القرية تقول إن جدتي قد أحبت رجلاً آخر شديد الشبه بجدي، ولكن ليس هناك من يؤكد أنه رآهما معاً ولو لدقائق. كما أن الهجرة استمرت من سوريا بعد طرد الفرنسيين، وخاصة هجرة المعارضة بعد قيام الثورة السوريا العظمى، مكتفين، كما كان يفعل جدي، برسائل التطمين وبعض النقود إلى أهلهم.

* * *

لماذا خافت الفتاة الكندية من الكتاب العربي؟!

في يوم الخميس ٢٢ آب حضرت اجتماعاً، في جامعة كونكورديا، هدفه التحضير للوقفة الاحتجاجية التي تمت الدعوة لها من قبل مجموعة من الناشطين السوريين في مونتريال، والذي حدد موعدها اليوم التالي الجمعة ٢٣ آب أمام أحد مكاتب الأمم المتحدة، وكان السؤال المركزي: ما الهدف من هذا النشاط، ولمن هو موجه، هل هو للسوريين والعرب في مونتريال أم للكنديين، وما هي أفضل الأماكن للاعتصام؟

تم الاتفاق على أن يكون الاجتماع أمام مكتب الأمم المتحدة في مركز المدينة، لأهمية الربط الرمزي بين الأمم المتحدة واستخدام السلاح الكيماوي المحرم دولياً ضد الشعب السوري.

الإعلام الكندي مهتم هذه المرة بالموضوع، وسيكون حاضراً لنقل اعتصامنا إلى الشعب الكندي عبر بعض المحطات التلفزيونية والصحف الناطقة بالإنكليزية والفرنسية، ما قد يساعد في تحريك الشعب الكندي ودفعه للتعاطف مع المأساة السورية المستمرة منذ أكثر من سنتين ونصف. لهذا، تم توزيع المهام بين الشباب، وانصرفنا إلى بيوتنا.

اليوم التالي، الجمعة ٢٣ آب، وهو موعد الوقفة، قررت الذهاب إلى مكان الاعتصام مستخدماً مترو الأنفاق، وعلى طريقة أبناء البلد الذين تجاوزوا سن الشباب وهمومه وسحر الأجهزة الإلكترونية، أخذت كتاباً عربياً، كنت قد بدأت في قراءته قبل مدة من الزمن، وفكرت بمتابعة قراءته في المترو ذهاباً وإياباً، فساعة قراءة هي مكسب لعقلي الذي يكاد يتجمد من قلة القراءات الجادة. دخلت عربة المترو شاهراً كتابي بيميني، على طريقة (شوفوني أنا مثقف)، أو على طريقة نبيل فياض أو بسام القاضي في استعراض عضلاتهم الثقافية المعادية للشعب السوري، واحتللتُ أول مقعد فارغ صالح للثقافة، ثم فتحت

كتابي وبدأت بالتهام صفحاته. توقفت عن القراءة، عندما توجهت جارتي، في المقعد، بسؤال قائلة: عذراً على الإزعاج، بأي لغة مكتوب هذا الكتاب الذي بين يديك، فشكل الحروف أثار اهتمامي؟

رفعت رأسي عن الكتاب ونظرت إلى صاحبة السؤال لأرى عيونها المشدودة بخوف إلى كتابي، ولأرى أن عربة المترو مكتظة بالناس، وأن هناك على الأقل عشرة أشخاص يقفون في الممر، أمامي وبجانبي، ينظرون إلي بعد أن طرحت جارتي سؤالها، قلت لها مبتسماً لجمالها ولبياض بشرتها الصافي: الكتاب مكتوب باللغة العربية، وهي من أجمل لغات الدنيا.

قالت: هل هو القرآن؟

قلت لها: لا يا سيدتي، هناك ملايين الكتب مكتوبة بالعربية، فهل يجب أن تكون كل هذه الكتب هي نسخ من القرآن؟

لم تقل جارتي شيئاً، وكانت من التهذيب أن نهضت ووقفت في الممر، وظننت أنها تحضر نفسها لمغادرة العربة، ولكن ما أثار استغرابي، أن أحداً من الواقفين لم يأخذ مكانها رغم ازدحام العربة، فنحن في وقت الذروة، والناس قد انتهوا من أعمالهم، وهم يتحركون في كل الاتجاهات، فلماذا لم يحاول أحد احتلال المكان الفارغ بجانبي؟

عدت للنظر في كتابي، متظاهراً بالقراءة، ولكن الواقع أنني لم أعد قادراً على متابعة القراءة أو الفهم، فقد كنت مشغولاً في البحث عن سبب أو أسباب سلوك هذه الصبية، وسلوك الناس غير العادي في عدم رغبتهم بالجلوس قربي.

بدأت بنفسي، فأنا أحاول دائماً «رؤية الخشبة التي في عيني قبل رؤية القشة التي في عين أخي»، وتساءلت عما إذا كانت رائحتي مقرفة ومقززة للنفس، فعادة كبار السن يهربون من الحمام وتبديل ملابسهم مما يجعل روائحهم غير العطرة تفوح، ولكنني تذكرت أنني قد أخذت حماماً وحلقت ذقني وغيرت ملابسي قبل القدوم إلى الاعتصام، ليس حرصاً على النظافة والروائح الطيبة، وإنما على أمل

أن «أتبروظ» أمام كاميرات التلفزيون، وقد تتاح لي فرصة أن أدلي بتصريح صحفي، رغم عدم تمكني من الفرنسية أو الإنكليزية التي تتيح لي مخاطبة الكنديين، ووصلت إلى نتيجة تستبعد هذا الاحتمال.

خطر ببالي، أن السبب وراء سلوك الفتاة قد يكون الشعار الأصفر، شعار السلاح الكيميائي، المعلق على قميصي كنوع من الاحتجاج، فخافت الفتاة من احتمال أن أكون إرهابياً كيميائياً، كما أشاع بشار الأسد، وتناقلته وسائل الإعلام الغربية، فأصبح الخوف في الغرب من المواد الكيميائية مقترناً بلون البشرة الأسمر، مثلي مثلاً، واللحية الطويلة و»الكلابية» العربية أو الجلباب الباكستاني، فقد نجحت «الميديا» الغربية في تكريس صورة الثائر السوري، كما أشاعها وروج لها بشار الأسد ونظامه، على أنه ذلك المتشدد الإسلامي الذي يكره الغرب وكل الآخرين المختلفين عنه، والذي يقتل على الهوية حتى أبناء وطنه!

فجأة لمع في ذهني سؤالها عما إذا كان الكتاب الذي أقرأه هو القرآن، وتذكرت أن نظراتها وهي تسأل كانت تحمل بعض الخوف، وقد يكون سبب ذلك أن الصورة النمطية التي كونها الإعلام الغربي بعد الحادي عشر من سبتمبر عن المسلم كانت مرتبطة دائماً بالقرآن، الذي صُور على أنه كتاب يحض على الكراهية والحرب والقتل، وبالتالي أصبح أي كتاب مكتوب باللغة العربية هو عبارة عن القرآن الكريم.

ومن باب الصدف والطرافة، فقط، أشير إلى أن الكتاب الذي كان بين يدي هو كتاب يحمل اسم «البحث عن يسوع»، وأن قارئ الكتاب اسمه ميخائيل سعد رغم لون بشرته الأسمر، إلا إن الإعلام الغربي، للأسف، ليس له مصلحة في عرض حقائق الأمور على الغربيين، رغم معرفته أن الحقيقة بعيدة تماماً عما ما يروج له عن العرب والمسلمين.

أخيراً، وصلت إلى مكان الاعتصام قبل الموعد بقليل، فلم أجد أحداً من المنظمين إلا الصديق أحمد، ولم يأت من السوريين إلا مئة شخص، رغم وجود

ثلاثين ألفاً منهم في مونتريال الكبرى، للتعبير عن استنكارهم قتل السوريين في الوطن، بالكيماوي الأسدي، ولم يتم الالتزام بما اتفق عليه في الاجتماع التحضيري، من أن الكلمات يجب أن تكون حصراً بالفرنسية والإنكليزية، لأن هدفنا هو مخاطبة المواطن الكندي، فقد أبى فرسان العربية إلا أن يشهروا فصاحتهم العربية علينا، ليقولوا لنا إنهم هم رواد النضال ودعاة الحرية، علماً أن خطابهم هذا لن يحسن في صورة العرب والسوريين في أعين الكنديين.

ملاحظة أخيرة، لم تقصر وسائل الإعلام الكندية في الحضور، رغم تقصيرنا، ولكنها أصرت أن تنقل الحدث كما تريد وأن تعرض، مع صور الأطفال الذين قتلهم كيماوي الأسد، صورة سيدتين صديقتين محترمتين، ليس لأنهما من الناشطات المهمات، وإنما لأنهما ترتديان الحجاب، رغم وجود أخريات سافرات، والهدف واضح، وهو تكريس الصورة النمطية عن المسلمين.

فهل عرفتم، أدام الله عزكم، لماذا خافت الفتاة الكندية من الجلوس بجانبي؟

* * *

زمن الرجال الكبار

في زمن أضحى الانتماء فيه إلى أي فكرة كبرى سلوكاً عواقبه غير محمودة، أو هو، في أحسن الأحوال، ضرب من الخيال الرومانسي، في هذا الزمن الذي وصفه أحدهم بزمن الرجال الصغار والأهداف الصغيرة، يصر صديقي على لعب دور «دونكيشوت» في مسرحية، انفض عنها الناس، فهو لا يرضى بديلاً عن انتمائه لأمة عربية واحدة موحدة، رغم التفتت الذي يعيشه كل فرد فيها.

تجاوز في غربته الطويلة شتى أنواع الإغراءات، وخرج منتصراً، أولها رفضه الزواج من حسناء شقراء الشعر، خضراء العينين، هامت بسمرته الصحراوية وفروسيته طوال أعوام الدراسة، قامعاً رغباته الجياشة التي غزت خلايا دماغه مع أول كتاب قرأه عن الغرب، وأول فيلم سينمائي شاهده في طفولته.

ولم تكن آخر الإغراءات عروض العمل التي قد تضعه تحت الأضواء، حاصداً المال والجاه مقابل الإعلان عن فك ارتباطه مع أمة ربط مصيره بمصيرها. كان يقول: إن حصني الأخير هو اللغة العربية، ومحافظتي عليها يعادل حرصي على حياتي. ويكرر في جلساته: إن الوقت الذي سينكر فيه ظاهراً أو باطناً، اعتزازه بانتمائه إلى تلك الأمة، غير موجود في حساباته.

تحمل، بسبب مواقفه، المر والحامض. امتص سخرية أبناء وطنه قبل سخرية الغربيين، الذين كانوا يرون فيه فارساً يريد أن يجتاز الفضاء على صهوة حصان عجوز. ثابر على عناده، واحترمه الآخرون ضمناً على ذلك. تزوج عربية سمراء، وأنجب أبناء يحملون أسماء قبيلته المتطاولة الجذور في التاريخ. حاول، بعد أن أنهى دراسته في الغرب، الالتصاق بوطنه، فحاصره عصر الأسد الأب ورجاله الجامعيين، ما أجبره على الهجرة إلى كندا.

كان، ككل الآباء الشرقيين، يرى نفسه ومستقبله في أولاده، الذين عليهم ستقع مسؤولية تحمل شجرة العائلة والمحافظة على نموها، وكانوا طوع يمينه ويسراه ولسانه العربي الفصيح، إلى أن جاء الوقت حاملاً سيف الانفصال الإجباري،

فالأولاد عليهم الذهاب إلى المدرسة.

بعد مضي ثلاثة أعوام على إقامته في مونتريال، كانت الهجرة التي فشلت في النيل منه طوال عشر سنوات، قد وجدت ضالتها في أولاده، أو لنقل: وجد الأطفال أنفسهم فيها، فقد تغير مزاجهم، وأنواع الطعام الذي يفضلون، ونبرة أصواتهم. وبدأ الأب يلاحظ تراجع لغتهم العربية أمام زحف اللغة الفرنسية، لغة الحياة اليومية، ولغة الأحلام أيضاً. حاول التصدي لهذا الهجوم، والالتفاف عليه، فرسم الخطط لتطوير لغتهم العربية، وهيأ لهم مناخاً مهجرياً عربياً، وأصر على الكلام بالعربية داخل البيت، ودعم هجومه المضاد بتلقينهم أصول الدين، متحاشياً قدر الإمكان إدخالهم في أنفاق مظلمة، كي لا يحدث في حياتهم النفسية صراعاً مرضياً قد يطبع حياتهم المستقبلية. ونام على وسادة من أوهام المهاجرين.

مر زمن الهجرة سريعاً، كنا نلتقي عندما يتاح لنا الوقت. وذات يوم كنا نتسامر عن الحياة، شؤونها وشجونها في عالم الهجرة ومحاسن الوطن الذي لا نستطيع، أو لا نرغب، في العودة اليه لألف سبب وسبب، فجأة قالت زوجة هذا الصديق: هل لاحظتم شيئاً خاصاً عند ولديكما عندما يتكلمان العربية؟ هل لاحظتم أنهما عندما يعبران عن انزعاجهما أو فرحهما أو رفضهما لأمر ما، أنهما يستخدمان مفردات طفل صغير، ويقومان بحركات ابن ثلاث سنوات؟

كان سؤال السيدة ملفتاً للانتباه والتفكير، وقالت شارحة: إننا نلمس هذه الظاهرة عند أولادنا عندما يتكلمون العربية، بينما يختلف الأمر تماماً عندما يستخدمون الفرنسية للتعبير عن نفس المواقف، فهم هنا ناضجون، يعرفون ما يريدون قوله. فكيف تفسرون هذه الظاهرة؟

في السنوات التي سبقت والتي تلت هذا الحوار، ساهم العديد من المهاجرين في النقاش دون الوصول إلى رأي محدد، فهناك من حمّل المسؤولية للبيت وهناك من حملها لغياب المؤسسات الجالوية الفاعلة التي كان وجودها، ربما يقدم مناخات عربية تساعد الطفل على النمو اللغوي المناسب لنمو عقله ومعارفه في اللغة

الفرنسية أو الإنكليزية، وربما تكون حاضرة وفاعلة عندما تتعرض الأوطان الأم إلى أزمة أو أزمات، نكون نحن بأمس الحاجة فيها إلى عون المجتمعات الغربية للتعاطف معنا والضغط على حكوماتها، كما يحدث الآن في الثورة السورية، عقب استخدام النظام لكل أنواع الأسلحة بما فيها الكيماوية المحرمة دولية، ولكن نكتشف للأسف، تقصيرنا كجالية أو جاليات فاعلة عند الحاجة فقط، وبعد أن يكون الوقت قد مضى.

هذا المقال لم أكتبه الآن، لقد استغرقت كتابته حوالي ٢٣ عاماً، كنت أعتقد خلالها، أننا أصبحنا - جميعاً - رجالاً صغاراً، فقد مسخت قاماتنا الحكومات الاستبدادية أولاً، والهجرة ثانياً، وبدا أن همنا انحصر في الجري وراء الرفاهية الصغيرة التافهة، إلى أن قامت الثورة السورية فأعادت تجميع أشلائنا بسرعة كبيرة، فمنا من غادر فوراً إلى سوريا، وخاصة من كان في عمر الشباب، ومنا من اقتصر عمله على جمع التبرعات والقيام بنشاطات داعمة للثورة. وكان صديقي الأسمر البدوي، الحالم بأمة عربية حاضراً في كل المواقف، كان يتألق شباباً في الوقت الذي كان العمر يأكلنا، سألته مرة: ما السر في شبوبيتك هذه، أهي امرأة جديدة؟ قال: نعم يا صديقي إنها الثورة السورية التي حلمنا بها دهراً وإذا بها بين يدينا، ولا أريدها أن تسرق منا. هل تذكر نقاشاتنا عن الأولاد واللغة العربية؟ قلت له: أنا من يذكر ذلك فقد عانينا جميعاً منها وحرقت الهجرة أصابعنا. قال لقد سرقت الهجرة منا أولادنا وأعمارنا، وسأعمل على ألا تتكرر هذه المأساة مع آخرين من أبناء وطني، وغاب.

بعد عدة أشهر تصلني رسالة إلكترونية من صديقي يقول لي فيها إنه في سوريا، وإنه سعيد بما يقوم به، وأن الأمور صعبة ولكن هناك دائماً وسائل للتغلب على هذه الصعوبات، وتحقيق أهداف صغيرة.

كنت سعيداً كمن وجد كنزاً، وآمنت أننا في زمن الرجال الكبار، فشكراً لثورة جعلتنا نعيد الاعتبار إلى ذواتنا. وشكراً لمن استطاع أن يجسد أقواله أفعالاً.

* * *

قصة من درعا قبل الثورة

أبو الياس موظف في البنك التجاري في درعا، التزم طوال حياته بالمثل الشعبي الذي يقول: «امشي الحيط الحيط وقول يا رب السترة». كان مضرب المثل في التزامه بالعمل، وفي معرفته بتفاصيل المحاسبة وفي خدمته للجميع، المواطنين والزملاء، وطبعاً المسؤولون في رأس القائمة.

كان الفساد قد انتشر أكثر من اللازم في أركان البلاد الأربعة بعد طرد «جماعتنا من لبنان»، وخاصة مع خطة الدولة في الخصخصة وتعميم اللصوصية، وانتشار رائحة رامي مخلوف في كل بيت سوري، وبدأت أجهزة الأمن تلتقط ردات فعل الناس وتسجلها، مما دفع بقيادات الأجهزة الأمنية إلى القيام بحملة تطهير تمتص غضب الناس وتنفس عنهم، فأصدرت أوامرها بأن يتم توقيف بعض العاملين في الدولة وتوجيه تهمة الفساد لهم، وكان من نصيب «أبو الياس» أن يكون بين هؤلاء الذين اختفوا فجأة عن أعمالهم وبيوتهم.

انتظرت «أم الياس» يومين قبل أن تبدأ بالحركة، بناء على نصيحة قريب لها بأن لا تتكلم كثيراً حتى لا تحرج الفرع الذي اعتقل زوجها، ولكنها قررت أخيراً رؤية مدير البنك وسؤاله عن زوجها، فهو المسؤول المباشر عنه، وكان جوابه أنه لا يعرف عنه شيئاً، فقد غادر مبنى البنك مثل غيره من الموظفين، ونصحها أن لا تتسرع بتوجيه الاتهام للأجهزة الأمنية، فهناك الكثير من الإشاعات في المدينة عنه، فقد يكون له خصوم بين العائلات الحورانية السنية النافذة في المدينة، وربما تعرض للخطف من قبل البدو، أو من قبل بعض الدروز الذين لم يستطيعوا الحصول على قروض تقدموا بطلبها ورفض «زوجك» الموافقة عليها، كما أن هناك من يقول إنه يتعاطف مع المسيحيين اللبنانيين الذي ساهموا في إخراج الجيش السوري من لبنان، بل إن بعض الإشاعات تتحدث عن عمالة «أبو الياس» لإسرائيل.

قالت أم الياس للمدير: كل ذلك حصل خلال يومين، وتريد أن تقنعني أن

الأمن لا علاقة له باختفاء زوجي؟

ولما كان «أبو الياس» من عائلة حورانية مسيحية قليلة العدد، ولا سند لها في الدولة ولا الأمن أو الجيش، فقد توجهت «أم الياس» إلى مطران المدينة، المسؤول الروحي عنهم، تطلب العون منه، فوعدها خيراً، آملاً في الوقت عينه، ألا يكون زوجها متورطاً في عمل سياسي ضد الدولة.

وتمر الأيام، ويبتعد الناس عن بيت «أبو الياس»، حتى الأقرباء منهم والأصدقاء، وتصبح «أم الياس» وأولادها في مهب ريح الحاجة المادية. بعد شهرين، وصلها خبر من مدير البنك أن زوجها موجود في الأمن السياسي للتحقيق معه في تهمة فساد، فاستنكرت السيدة هذه التهمة على زوجها، رغم أن الفساد أصبح هو «القانون» في دولة بيت الأسد، ومع ذلك قالت في نفسها: ما دامت هذه تهمته فإنهم سرعان ما سيطلقون سراحه، لأن فقرهم وحالهم المتواضعة خير دليل على براءة زوجها.

في نهاية العام المالي، اكتشف مدير البنك أن الشخص الوحيد القادر على إنجاز الموازنة العامة للمحافظة هو «أبو الياس» الذي كان ما زال قابعاً في زنزانة عند الأمن السياسي، ولما كان أكثر جبناً من أن يتكلم مع رئيس فرع الأمن السياسي، فقد توجه إلى المحافظ وأخبره أن ميزانية المحافظة في خطر إذا لم يتم إطلاق سراح «أبو الياس». وبعد أخذ وردّ بين المسؤولين، تم نقل الأوراق إلى زنزانة السجين كي ينجز ميزانية المحافظة، على أمل إطلاق سراحه فيما بعد، خاصة أنه لا تهمة حقيقية قد وجهت له بعد مضي ما يقارب سنة على اعتقاله.

وينجز السجين عمله، وينام في السجن إلى العام التالي، موعد الموازنة الجديدة، فيتدخل المطران والمحافظ ومدير البنك لدى الأمن السياسي، في محاولة جديدة لإطلاق سراح «أبو الياس»، ويتلقون وعداً من رئيس فرع الأمن بذلك، على شرط أن يتم تسريح الرجل من عمله وحرمانه من تقاعده، والتزامه بيته وإنجازه لموازنة المحافظة وهو في البيت.

وهكذا غادر «أبو الياس» زنزانته وعاد إلى بيته، في الوقت الذي كان فيه أطفال درعا يجمعون بعض القروش لشراء علب دهان البخ، كي يكتبوا على جدران المدارس: أجاك الدور يا دكتور.

* * *

الاستبداد والتنازل الطوعي عن الحقوق

لم أستطع في حياتي كلها تعلم أي شيء مفيد. كنت وأنا صغير السن، وكلما هممت بتعلم هواية أفتخر بها، يصدر أمر نقل والدي الشرطي، وكأنه كان وراء باب رغباتي ينتظر إعلانها كي يقوم بقطع حبل السرة معها.

جربت، وأنا صغير في القرية، تَعَلُّمَ العزف على المجوز أثناء رعي بقرات جدتي، فجاء قرار والدي بتمديننا بعد أن أصبح شرطياً بدون احترام لخصوصيتنا وبدون استشارتنا، وهكذا وجدنا أنفسنا في دمشق عام ٥٤، وبعد أن كان الفضاء بجباله ووديانه وأبقاره كله ملكي، أصبحت محشوراً مع خمسة من إخوتي وأبي وأمي في غرفة دمشقية على أطرف المزة، قريباً من المقبرة، وليست بعيدة عن ميدان سباق الخيل الأسبوعي، فنسيت المجوز والبقرات وغرقت في اكتشاف عالم جديد، وفيه عرفت أن في المدينة دكاكين (جمع دكان) كل منها مختص ببيع مادة أو مواد معينة، ولكن بعد أن دفعت ثمن تلك المعرفة. فقد طلب مني والدي أحد الأيام أن أذهب لشراء كيلو لبن فدخلت إلى أول دكان أراه وطلبت منها اللبن، فنظر إلي الرجل ضاحكاً وقال: أنا يا عمو خياط، أذهب إلى الدكان الآخر، استغربت ذلك، ففي القرية يوجد دكان واحد تجد فيه كل ما تطلبه.

كنت قد بلغت الخامسة، عندما أرسلني والدي إلى الروضة فتعلمت فيها بعض الحروف والكثير من خبث الأطفال، وما إن حفظت الفاتحة كي أذهب إلى المقبرة عندما أرى ميتاً، لأقرأها على روحه وأتناول بعد ذلك حصتي من التمر والخبز، حتى جاء أمر بنقل والدي إلى اللاذقية، فأضعت بين رمال شاطئها ما تعلمته في دمشق، ولكنني مع ذلك قررت أن أتعلم السباحة في المياه المالحة، بعد أن كنت قد تعلمتها في برك المياه الحلوة في قريتنا، وبدأت معها في بناء قصور من الرمال أكبر من حجم غرفة أم زهير اللاذقانية، التي استأجرها أبي لنا. في ذلك الزمن، عام ٥٦ تعرفت على اللون النيلي الذي يجب دهن النوافذ به خوفاً من غارات إسرائيلية على المدينة أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر، وعرفت أننا لسنا

وحيدين وأن هناك دولة عربية كبيرة اسمها مصر، وأن علينا عندما نسمع «زمور الخطر» الإسراع إلى الاختباء في الطابق السفلي من البناء، ليس خوفاً، كما قال الكبار، ولكن كي نضحك على الإسرائيليين ونبقى أحياء إذا قصفتنا طائراتهم، ولكنها لم تقصفنا. ورغم أني فعلت كل ما هو مطلوب مني، وأنني نجحت في الصف الأول وزورت نتيجة ترتيبي في النجاح من الرابع إلى الثاني كي أرضي أهلي، وأتجنب صفعات أخي الكبير، ولكن مع ذلك صدر قرار بنقل أبي الشرطي إلى حماة، فعدنا إلى القرية كي نغرق في ظلمة أزقتها والوحل الذي لا ينتهي إلا بانتهاء الشتاء.

في هذه السنة، سنة ٥٧ عرفت للمرة الأولى معنى أن يكون الإنسان مسؤولاً عن أخيه الصغير، بعد أن عرفت معنى أن يكون الإنسان بدون أم. فقد ماتت والدتي في صيف ٥٦، ليس بسبب العدوان الثلاثي وإنما بسبب أزمة قلبية. فقد أنهكت قلبها أربع سنوات من المرض والنزيف الذي لم يكن يتوقف، بعد أن سقطت عن شجرة التوت وهي حامل في الشهر الثامن أثناء محاولة جمع ورق الشجرة كي تأكلها دودة الحرير، التي كانت مصدراً مهماً من مصادر الدخل في جبال العلويين في ذلك الزمن. قررت أن أحزن على والدتي، فكسرت المجوز الذي صنعته من القصب وانصرفت للعب مع أخي الصغير وشلة زعران القرية وكانت الحياة أقوى من الحزن على الموتى، ولم أكن أتذكر أمي إلا عندما كنت أقع أرضاً، أو يضربني أحد، أو أجوع ولا أجد من يطعمني، وهكذا نسيت ما تعلمته على المجوز، وانغمست، مستمتعاً، برواية ما حدث معي في المدينة من عجائب إلى أطفال القرية، الذين لم يصدقوا أن الناس هناك ليسوا بحاجة إلى استخدام «السراج» من أجل الإضاءة، وليسوا بحاجة إلى الذهاب للنبع بحثاً عن المياه، ففي كل دار هناك حنفية، وأن الأمهات في المدن لا يخبزن الخبز في البيوت وإنما يخبزه الرجال في مخابز عامة.

في ذلك العمر اكتشفت معنى أن تخترع القصص للأطفال كي يبقوا مشدودين إليك، ومنفذين لرغباتك في سرقة بيضة أحياناً، أو رغيف خبز أحياناً أخرى

من أجل الاستمرار في رواية حكايات المدينة لهم، وهكذا أصبحت زعيم عصابة بفضل بعض المعارف المختلفة عن معارف الريف، وبفضل تلك الحكايات المتخيلة. وفي ذلك الزمن من عام ٥٨ تزوج والدي، وقامت الوحدة السورية المصرية، وانتقلنا من جديد إلى مدينة حماة، مؤسسين لعصر من الاستبداد، ومتنازلين طوعاً عن حقوقنا في اختيار من يحكمنا.

* * *

الاستبداد وحكم العسكر

مع بداية العام الدراسي ٥٨، وهو عام الوحدة السورية - المصرية، كان والدي العريس قد نال حصته من شهر العسل، فقد مضى على زواجه أكثر من ستة أشهر، فالتحقنا به جميعاً إلى حماة. عدنا لنكون سبعة في غرفة واحدة. كانت خالتي شابة لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، في الوقت الذي كان فيه والدي قد لامس الأربعين، حاولت المسكينة أن تكون زوجة لأبي وأختاً لنا، لا أعرف مدى نجاحها في الأمرين، فأخوتي الكبار كانوا ينظرون إليها بعدم حب، فقد أخذت مكان أمهم، أما بالنسبة لي فقد كانت، وحتى اليوم، أماً لا مثيل لها، فلم يحدث أبداً أن نقصني شيء. كانت كالساحرة، فقد أبدل ثيابي الوحيدة الوسخة مساء لأجدها صباحاً نظيفة مغسولة معلقة في مكانها. وعندما كبرت وأصبحت منتجاً، لم أكن آخذ مصروفي أو أعطي المال من وإلى والدي بل إلى خالتي.

في ذاكرتي، أن والدي لم يرتفع صوته ولا مرة على والدتي، التي كانت أعمر منه بسنة، ولكنه بدا صارخاً مستبداً عندما كانت خالتي المسكينة ترتكب خطأ صغيراً. كنا نحن الأولاد نشمت بها ونفرح بصراخ والدنا عليها، ونكاد نخرج في مظاهرة تأييد لهذا الشرطي كلما اعتدى عليها لفظياً أو جسدياً. لم أعرف أبداً لماذا كانت مشاعرنا تزداد عدوانية ضد شابة مسكينة تتنازل عن حقوقها وتحاول جاهدة خدمتنا.

في عام ٥٩ كان التمدد المصري قد بدا ملحوظاً في سوريا، في الإدارة المدنية وفي الجيش والتعليم وحتى في الشرطة. ففي أحد الأيام عاد والدي من عمله منفعلاً أكثر من اللزوم، وما إن شكت خالتي من ألم في بطنها، وكانت حاملاً في شهرها السابع، حتى بدأ أبي في الصراخ وشتم خالتي ومن أقنعه بالزواج مرة جديدة، هذا الزواج الذي جعله يصمت أمام إهانة الضابط المصري الذي لا يفقه شيئاً في الحياة السورية وفي العادات السورية. كان والدي يتمزق غيظاً وقهراً من دون أن نعرف الأسباب الحقيقية لذلك. لم تتأخر استجابة خالتي لهذا الانفعال

المبالغ فيه من قبل والدي، فجلست أرضاً وبدأت تتلوى من الألم، ولم يتحرك أحدنا إلى أن رأينا بقعة من الدماء على فستانها فسارعت أختي الكبيرة إلى مساعدتها على الانتقال للجلوس في مكان آخر، وطلبت من والدي الإسراع في إحضار سيارة لنقل خالتي إلى المستشفى.

بعد عدة أيام علمت أن أخاً (سبعاوياً) جديداً قد التحق بعائلتنا. والغريب أن والدي الذي كان قبل أيام يشتم المصريين، عبر شتمه لضابط الشرطة المصري الذي أدى بدوره إلى الولادة المبكرة لأخي وعمره سبعة أشهر، قد أطلق اسم «عبد الحكيم» على ابنه الجديد، تيمناً بعبد الحكيم عامر، الذي كان في رفقة جمال عبد الناصر في زيارة مدينة حماة حينها. وما زلت أذكر، وأنا الآن في الرابعة والستين من العمر، كيف خرجت حماة عن بكرة أبيها لاستقبال عبد الناصر والتصفيق له، وكيف تم رفع سيارته على الأكتاف والسير بها، ولكن بقي اللغز الأكبر، بالنسبة لي، هو تحول انفعالات والدي من الكره إلى الحب إلى الكره من جديد للمصريين، وكيف أصبح زوار بيتنا من أصدقاء والدي والأقرباء يكثرون في الحديث عن المصريين عند كل مشكلة تواجههم في حياتهم اليومية ابتداء من رغيف الخبز ووصولاً إلى كل شيء آخر، ويحملونهم مسؤولية ذلك، رغم أن بعض ما كانوا يتحدثون عنه كان موجوداً منذ سنوات، ولا علاقة للمصريين به.

بدأت تنتشر في سوريا قصص اختفاء بعض المعارضين لعبد الناصر والوحدة السورية المصرية، وبدا أن هناك دائماً من السوريين من كان جاهزاً للدفاع عن هذا الطرف أو ذاك، مبرراً كل حركة وموقف لأحد الطرفين. وجرت الإشارة أكثر من مرة إلى وزير الداخلية الحموي عبد الحميد السراج، الذي قيل إنه هو من ساهم في تأسيس الاستبداد الناصري في سوريا.

كنت قد بدأتُ أحب حماة، فقد أصبحت قادراً، وأنا في الصف الرابع، على كسب بعض القروش من عملي الصيفي في بيع البوظة. كانت رغبتي في توفيرالمال

لشراء هدية صغيرة إلى أخي الصغير عبد الحكيم قد دفعتني لحمل براد البوظة الصغير والتجول في كل الأماكن التي يتواجد فيها الحمويون، وخاصة في أيام الحر الشديد. أما نصيبي من هذا العمل فكان دائماً أكل ما أستطيع أكله من البوظة، بالإضافة إلى قروش الهدية التي كنت أجمعها بحرص. ما إن انتهى عام ٥٩ حتى صدر قرار جديد بنقل والدي مرة جديدة إلى دمشق، لنشهد هناك قيام الانفصال، الذي سيمهد الطريق لوصول العسكر البعثي إلى الحكم عام ٦٣، مؤسساً أسوأ أنواع الاستبداد الذي عرفته العصور الحديثة، حيث اختلطت الايديولوجيا القومية بالطبقية بالطائفية منتجة حافظ الأسد الذي حملت المدن السورية سيارته على الأكتاف، كما تم حمل سيارة عبد الناصر، وذبحت تحت قدميه مئات الخراف معلنة ولادة إله جديد سيحكم السوريين بالنار والحديد، إلى أن يقوم بوجه نظامه أطفال درعا، هاتفين: «الشعب يريد إسقاط النظام».

* * *

معلم و»شيخ»

في أيلول ١٩٦٩ التحقت بسلك التعليم كمعلم ابتدائي، وذلك بعد شهرين من تخرجي في دار المعلمين بحمص، قبل أن أبلغ العشرين من عمري بثلاثة أشهر. كنت أظن، وأنا الذي قرأ مئات الروايات والكتب الوجودية، أنني أملك الكون بيميني؛ لأنني أملك المعرفة بيساري، كما كنت أتوهم. قرأت في الجريدة أن الوزارة «فرزتني» إلى مديرية تربية حلب، وعليّ الالتحاق فوراً بعملي الذي ستحدد مكانه مديرية التربية، ولما كنت قومياً واشتراكياً وشاباً، فقد نفذت الأمر بدون تردد، وذهبت إلى تربية حلب فقابلت الموجه التربوي الذي قال لي: نصيبك أن تكون المعلم الأساسي والوحيد في قرية «مكحلة»، وهي في «مطخ حلب»، ودلني الرجل مشكوراً على «الكراج».

كنت قد سمعت عن حلب، وكشاب لم يبلغ العشرين من عمره، كان محل «بحسيتا» العمومي هو حلمه، ذلك الاسم الذي اقترن باسم المدينة في أذهان الباحثين عن الحب، لذلك قبل الذهاب إلى «مكحلة» قمت بزيارة «باب الفرج» الذي قادني إلى الشارع المؤدي إلى «بحسيتا»، وكان هناك على الباب، وقبل الدخول، منظر أرعبني وغيّر خططي بالدخول، فقد رأيت امرأة سمينة، خمسينية كاشفة عن فخذين مترهلين، مع طلاء أحمر يتجاوز كثيرا الشفتين، كي يصرف النظر عن أسنان مفقودة، سقطت مع الزمن من كثرة أكل الحلو وتنال مشروب الحب المعتق، محطمة بحقيقة حضورها القوي الصورة التي كونتها أحلامي عن المرأة التي سأمارس الحب معها، على الأقل في المرة الأولى. فقررت فوراً الحفاظ على عذريتي والذهاب إلى القرية.

أولى المفاجآت كانت عدم وجود سيارة للقرية، لأنه لا يوجد طريق إليها أصلاً، فكان علي السير بحدود الساعة مع حقيبتي التي تحتوي ثيابي وكتاب تاريخ الأدب الجاهلي لشوقي ضيف، كي أتباهى على سكان القرية، فإضافة إلى كوني معلم قريتهم، فأنا طالب جامعي أيضاً (اكتشفت فيما بعد أن كل شهاداتي

«بتسوى فرنك» عند الفلاحين).

المفاجأة الثانية التي كانت تنتظر معلم القرية الجديد، هي شلة من كلاب الحراسة التي خرجت من بيت متطرف عن القرية، ويقع على الطريق الترابي، فهاجمتني بعد أن وضعت الخطط اللازمة لذلك، أحاطوا بي مثل «الأسوارة»، ورغم رعبي منهم ومن نباحهم، فقد لاحظت كيف أنهم يتغامزون قبل شنّ الهجوم، وفسرت ذلك بأنهم ربما التقطوا في ذلك الغريب الأجنبي الذي قاده قدره لتكون قدماه وساقاه مضغة سهلة لا يحاسبهم الله عليها، ومع كل هجوم كنت أدور حول نفسي رافعاً محفظتي بيدي كدريئة تحميني من أنياب الكلاب. من حسن الحظ لم يطل الوقت، فقد خرجت صاحبة البيت لتعرف ما هو الخبر الذي يحمل كلابها على النباح، فوجدتني على حافة الانهيار بعد هجومين كاسحين من الكلاب الأربعة.

المفاجأة الثالثة التي كانت بانتظاري، والتي كشفت جهلي بعادات مجتمعي، وأنا الذي كنت أظن أنني خبير بها نتيجة خروجي من قوقعة الأديان والطوائف والمناطق، حصلت عندما وصلت «منقذتي» من الكلاب إلى قربي، فمن شدة حماسي لها، وعرفاناً مني بجميلها، كدت أن أعانقها رغم أنها امرأة ستينية تشبه جدتي، يملأ الوشم وجهها، ولكنني تمالكت نفسي مكتفياً بمد يدي إليها لمصافحتها، كانت الابتسامة العذبة لا تغادر الشفتين الرقيقتين والعينين السوداوين، دون أن تمد يدها، مر وقت طويل لا أعرف مدته، قبل أن أتذكر أن المرأة المسلمة لا تصافح الرجل الغريب، فأعدت ذراعي إلى مكانها، ولما عرفت أنني المعلم الجديد في القرية، علمتني شيئاً جديداً قائلة: عندما تهاجمك الكلاب مرة جديدة، لا تبق واقفاً، حاول أن تطوي ركبتيك لتكون قريباً من الأرض، عندها ستتوقف الكلاب عن مهاجمتك، لأنها تعتقد بذلك أنها انتصرت عليك واستسلمت أنت لها. شكرتها على «الدرس المهم» وأكملت سيري إلى القرية.

لم يكن في القرية بناء مدرسة، وكنت المعلم الوحيد لحوالي أربعين طالباً موزعين على الصفوف الستة. وكان مكان نومي في مضافة القرية. كانت القرية ورجالها ونساؤها وأطفالها مشغولين بموسم قطف القطن، فهو مصدر القرية الوحيد

للعيش، لذلك تكثر فيه الحركة والزيارات من كل نوع، فمن زيارات «النور» ومشعوذيهم إلى زيارات رجال الشرطة ودورياتهم غير المفيدة، إلى حلقات «ضرب الشيش»، إلى البائعين المتجولين، إلى لصوص القطن والمال، وهم الأخطر.

في أحد الأيام، جاء «خَلَف»، وهو «آذن» المدرسة وخادم المضافة، والعازب الأربعيني الذي لم يستطع الزواج لفقره وعدم قدرته على تأمين المهر، والذي كان وحيد أهله، فلا أخت عنده ليبادلها على زوجة محتملة.. جاء ليقول لي إن المختار يدعوني إلى «بيت الشَّعْر» للغداء مع وجهاء القرية وضيفهم الحلبي الكبير الشيخ حمدان، واستفاض «خلف» في الحديث عن الشيخ المزعوم. كانت تلك المرة الأولى التي يدعوني فيها المختار بهذه الطريقة، بعد مضي شهر على وجودي في القرية. عندما دخلت «بيت الشعر» قام الرجال جميعاً للسلام علي وللترحيب بي، وكان تلكؤ الشيخ حمدان في النهوض واضحاً للجميع. لم اهتم بهذا التفصيل الصغير في بداية الجلسة، ولكن عرفت فيما بعد أنه كانت مقصوداً، ليقول لأهل القرية بطريقة غير مباشرة إنه أهم من معلم قريتهم و»أفهم» منه. فهذا الرجل الخمسيني، الضخم الجسد، الجهوري الصوت، الأزرق العينين، ذو اللحية الشقراء القصيرة، لا يتوقف عن الكلام، يحفظ عشرات القصص والأمثال الشعبية وقصص الأمراء والأبيات الشعرية والآيات القرآنية وقصص الأنبياء، وكل ما يسحر الفلاحين.

كان من الواضح أنه يريد أن ينزع عني أي «شرعية» في إمكانية «تمثيل» الناس أو بعضهم، قبل أن يقول لي: تفضل أستاذ، هل تستطيع أن تحكي لنا عن الأدب العربي الذي تدرسه؟ كان سؤالاً استفزازياً الهدفُ منه النيل مني. قلت له وللآخرين بصوت مضطرب: أنا طالب جديد في كلية الآداب، ليس عندي الكثير لأقوله، ولا أعرف الكثير، ولكن لفت انتباهي وأنا أدرس الشعر الجاهلي، أن بعض المفردات العربية التي يتكلمها الناس الآن، في هذه القرية، عمرها ١٤٠٠ عام على الأقل، وهذا يدل على أن نمط حياة الناس مستمر منذ ذلك الوقت

وحتى الآن. فقال ساخراً: ولكن في ذلك الوقت لم يكن عندهم قطن ليهتموا بقطافه وبيعه. ضحك الناس، وشعرت بحجم الطعنة التي أصابتني بلهجته الساخرة، وصمتُّ.

تشعبت الأحاديث بعد وجبة «الثريد»، وعرفت أن الشيخ حمدان جاء إلى القرية لاسترداد ديونه التي ترتبت على الفلاحين، من خلال نهب أقطانهم، فمثلاً من استدان منه ١٠٠ ليرة خلال العام عليه أن يعطيه من قطنه ما قيمته ٣٠٠ ليرة أو أكثر، وأثناء الحوار مع الفلاحين كان اسم «الله» حاضراً على لسانه كسيف من سيوف «داعش» هذه الأيام، يقطع به رأس أي فلاح يحتج على السرقة العلنية التي يقوم بها.

حسبتُ حساباتي، وعرفت أنني في معركة خاسرة: فهو شيخ وأنا معلم، وهو صاحب خبرات كثيرة وأنا فقيرها، وهو يستخدم الدين سلاحاً لمصلحته، لا يستطيع الناس رده، وأنا لا أعرف ذلك، وهو «شيخ» مسلم وأنا معلم مسيحي، وهو غني وأنا فقير، وهو يفتي لهم بتحويل أطفالهم إلى عمال مؤقتين لقطاف القطن، وأنا أريدهم أن يتعلموا في المدرسة، وهو «مصرفهم» الذي يستدينون منه طوال العام، وأنا «مصرفهم التعليمي» الذي يعلم أولادهم الحروف مجاناً. لكل ما سبق قررت الانسحاب من «بيت الشعر»، ولكن قبل ذلك قلت وأنا أقف، موجها كلامي للشيخ حمدان:

صحيح أن الله حلل التجارة والربح الحلال، ولكن أعتقد يا شيخ حمدان أن الله لعن الربا والمرابين منذ ١٤٠٠ عام، مهما كان لون الثياب التي يرتديها المرابي، ومهما حفظ من آيات قرآنية وأبيات شعر، حتى قبل وجود القطن بين يدي العرب في الجزيرة العربية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

إلى جنيف أم إلى حلب؟

استيقظت في الثانية صباحاً، وهذا أمر عادي لرجل في عمري، فأنا أذهب أكثر من مرة في الليلة الواحدة إلى الحمام، ولكن ما لم يكن عادياً هو عدم قدرتي على النوم من جديد. بالتأكيد لم يكن قلقي سببه ذهاب الائتلاف إلى جنيف أو تراجعه عن الذهاب ثم تراجعه عن التراجع، فولدنات المعارضة بكل تشكيلاتها، كنت قد ألفتها مع الكثير من السوريين، ورغم أنها مصدر قلق جزئي، إلا أنها لا تستطيع أن تمنع النوم من الزحف نحو عيوني، فهي لم تستطع، طوال ثلاث سنوات من عمر الثورة، منع أي نوع من الزحف الضار باتجاه السوريين، فماذا حدث؟

حاولت البحث عن أسباب عدم قدرتي على النوم من جديد، استرجعت بذاكرتي المواد التي التهمتها مساء، ونطلق عليها تجاوزاً اسم عشاء، بينما هي في الحقيقة أقرب إلى العلف، فلم أجد بينها ما ينبه الأعصاب أو ينشط الأحلام الممنوعة. تركت السرير وتفحصت وضع الشرشف وأعدت تمسيده وتسويته، فأنا، وكما تقول زوجتي، لا أتوقف عن «البحث» والتقلب وإطلاق المفرقعات في السرير منذ زواجنا. وإذا كان من مبرر لذلك في سنوات زواجنا الأولى فلم يعد له أي معنى الآن، في هذا العمر، إلا ما كانت تطلقه علي من صفة «كتير الحركة بس بلا بركة»، فأنا سوري ومعارض، ومن شابه معارضته ما ظلم. عدت إلى مكاني، ممنياً النفس بالنوم، فما استطعت إليه سبيلا.

قطعت سلسلة تأملاتي وتداعياتها الخرافية، ومددت يدي إلى كتاب ينام بقربي منذ سنوات، أستنجد به كلما اشتد بي الحنين إلى الشرق، فأغرق فيه، رغم أنني قرأته مرات عديدة، إنه رواية سمرقند، لأمين معلوف، وقرأت فيه: «وفي ساحة تجار الزبل اقتربت من الخيام امرأة حامل. وإذ كانت قد رفعت نقابها فقد بدا أنها تكاد تكون في الخامسة عشرة من العمر. ومن غير أن تنبس بكلمة ولا أن ترتسم ابتسامة على شفتيها البريئتين اختلست من يديه بضع حبات من اللوز،

فهناك اعتقاد قديم في سمرقند: حين تصادف المرأة التي ستغدو أُمّاً إنساناً غريباً يروقها شكله، فإنه ينبغي عليها أن تتجرأ على مشاطرته طعامه، وبذلك يغدو الولد في مثل جماله وقامته الممشوقة وقسماته المليحة التامة».

وتذكرت معارضتنا في اسطنبول. في ذلك الزمن، عندما كان عمر الخيام في سمرقند، كانت المدينة من أجمل مدن الدنيا، وكان المتنافسون على حكمها هم من الأمراء الأتراك الذين يتبعون اسمياً إلى بغداد، عاصمة العالم في وقتها، وتذكرت عاصمة العثمانيين، التي زرتها قبل أشهر، وقد أصبحت عاصمة السوريين المعارضين لنظام الأسد والمهجرين والهاربين من بطشه، بحثت في ذكرياتي عن امرأة سورية في اسطنبول تشبه المرأة السمرقندية التي مدت يدها لتأكل من يد عمر الخيام فلم أعثر إلا على صور النساء السوريات والأطفال السوريين وهم يمدون أيديهم للشحاذة في شوارع اسطنبول، أو صورهم وهم عراة وجوعى في مخيمات اللجوء على حدود الدول المجاورة، بينما رجال معارضتنا البواسل الذي يقاومون الذهاب إلى جنيف أو أولئك الذين يؤيدونه يحتلون الفنادق والشقق الفاخرة في اسطنبول والقاهرة وباريس ونيويورك وعمان والرياض ومدن الخليج.

وذكرني خلاف المعارضة السورية حول جنيف بحكام القسطنطينية، الذين كانوا منهمكين في البحث عن جواب لسؤال: هل البيضة كانت قبل الدجاجة أو العكس، في الوقت الذي كان فيه القائد التركي محمد الفاتح يحاصر مدينتهم ويفتحها لتكون فيما بعد عاصمة الدولة العثمانية، بل عاصمة العالم بعد القضاء على بغداد والقاهرة وتحويلهما مع دمشق إلى مدن هامشية في الامبراطورية العثمانية.

في الخامسة صباحاً، كان التعب قد نال مني قبل أن أجد جواباً يقنعني: هل نذهب إلى جنيف أم نجعل جنيف تأتي إلى حلب؟

ونمت على أمل أن يقول ثوار سوريا كلمتهم النهائية في مستقبل ثورتهم.

* * *

إدلب بين نظامين قاتلين: الأسدي والداعشي

ليس اكتشافاً أن نقول إن داعش يساعد نظام الأسد، وإن مخابرات الأسد ساهمت في خلق داعش، لأسباب أصبحت معروفة للقريب والبعيد، أهمها دفع الناس العاديين للكفر بالثورة وتفضيل نظام الأسد القاتل عليها، وإعطاء الأسد ورقة للتجارة مع الغرب بقوله إنه يقاوم الإرهاب ويحمي الأقليات من التطرف الإسلامي، وهذا ما بدا واضحاً في كلام وفد النظام إلى جنيف ومتاجرته بورقة المسيحيين، هذه الأيام.

ولكن رغم كل ما هو معروف عن هذا الأمر، تبقى الشهادة الحية قوية ومؤثرة في الوجدان والعقل أكثر من الكلام النظري، وهذا ما أحاوله هنا. فقد زارني أحد الأصدقاء الأدالبة وروى لي قصتين حدثتا مع أفراد من عائلته في إدلب واللاذقية، وقد رأيت فيهما تعبيراً واضحاً عن تكامل أدوار الفساد والتسلط والنهب والقتل في نظام الأسد بوجهيه، التشبيح الطائفي والتشبيح الداعشي.

منذ ما يقارب العام ونصف العام، تركت إحدى أخوات صديقي هذا مدينة إدلب مع زوجها وأولادها واستقروا في مدينة اللاذقية، وهناك تم اعتقال أخ الزوج مع آلاف السوريين الذين كان يتم اعتقالهم، ورغم المحاولات المستمرة لمعرفة مكان اعتقال الشاب فإن العائلة لم تستطع الحصول على أي خبر مطمئن عنه، وبقيت العائلة معلقة بحبال الأمل. منذ ما يقارب الشهرين زارتهم امرأة وقالت لهم إنها تعرف أين هو ابنهم المعتقل، وتستطيع إخراجه من السجن مقابل مليون ليرة سورية ستتقاسمها مع الضباط المسؤولين عنه. وعلى الرغم من سماع العائلة عن بعض حالات النصب والخطف بهدف تحصيل فدية مالية، فإن عائلة السجين تجاهلت تلك المعلومات، آملةً أن يكون نصيبها أحسن من نصيب غيرها، وهكذا قامت النساء والرجال ببيع مصاغهم وممتلكات أخرى، وتم جمع نصف مليون ليرة، على أن يتم دفع بقية المبلغ بعد خروج الشاب من

أخذت المرأة المعروفة في اللاذقية بعلاقتها وقرابتها لبيت الأسد المال واختفت، وعندما استطاع أحدهم الوصول إليها وسؤالها عن الشاب السجين قالت: لقد تم إطلاق سراحه فعلاً، ولكن وهو في طريق العودة تم خطفه من قبل الجيش الحر، هذه الرواية التي تم استخدامها عشرات المرات، وكان من أشهرها قصة اختطاف الدكتور عبد العزيز الخير على طريق المطار، وإعلان النظام الأسدي أن الجيش الحر هو من خطفه.

في الوقت نفسه تقريباً، يعني قبل شهر ونصف، هاجمت مجموعة كبيرة من رجال داعش بيتاً على أطراف مدينة إدلب واعتقلت من كان فيه وهم شابان في العشرينات من العمر وسيدة خمسينية هي أم أحد الشابين وعمة الآخر. واقتادت الجميع إلى مقر الدولة في «الدانا»، في اليوم التالي تم إطلاق سراح الشابين عاريين إلا من سروالهما الداخليين، وتم التحفظ على المرأة الخمسينية التي هي أخت صديقي، التي اختفى أثرها منذ ذلك الوقت وحتى اليوم.

سألت صديقي تفسيراً لذلك، ولماذا أطلق تنظيم داعش سراح الشابين واحتفظ بأخته، فقال: هناك أسباب متعددة، منها أن أختي كانت تساعد الجيش الحر في المشافي الميدانية، فتعمل كممرضة متطوعة، وكانت تهاجم داعش منذ ظهورها، لأنها كانت تستهجن طريقتهم في تطبيق الإسلام وفي فهمه الغريب عن مجتمعنا، ولكن السبب الحقيقي هو أنها حددت مسؤولاً من داعش بعينه، قائلة أمام جمع من أهل إدلب: متى أصبح هذا الحشاش أميراً في داعش، جميع أهل إدلب يعرفون أن هذا الرجل سيء الخلق والسمعة، ومعروف عنه أنه يتعاطى المخدرات ويسرق ويعتدي على أملاك الناس وكان عميلاً عند مخابرات النظام قبل قيام الثورة، فهل من المعقول أن يكون أميراً علينا، وأميناً على إسلامنا؟

على كل حال، هذا الرجل بحد ذاته شهادة كافية عن نوعية الأشخاص الذين يعملون مع داعش، بالرغم من وجود بعض الناس الطيبين بينهم، الذين يحتاجون إلى لقمة الخبز.

وتابع صديقي كلامه، وقال: بعد انحسار داعش وخروجها من كامل المحافظة، بحث الجميع عن أختي ولم يجدوا لها أثراً حتى في المقابر الجماعية لداعش التي تم الكشف عنها في «الدانا»، ولا يزال البحث مستمراً.

هل انتهت المأساة وعرف الناس من هي دولة العراق والشام الإسلامية «داعش»؟ أشك في ذلك. إن ما حصل لهذه العائلة الإدلبية في إدلب واللاذقية حصل ويحصل لملايين السوريين. فالساحة السورية ساحة مفتوحة على جميع الاحتمالات، وتعمل فيها كل أجهزة المخابرات في العالم باسم الدين والوطنية والتقدم والطائفية وكل الشعارات ما مات منها وما سيولد، وما على السوريين إلا الصبر والوعي لمتابعة ما بدأه الشهداء والمعتقلون منذ سنوات ثلاث مضت لإنجاح ثورة الحرية والكرامة.

* * *

مؤتمر جنيف وتنشيف البيضات

حدث أنني قررت الهجرة من جديد بعد مضي عشرة أعوام على هجرتي الأولى إلى كندا. فقد بررت فشلي في القدرة على كسب عيش محترم، بأن شروط كندا لكسب المال والعمل صعبة، ولم أناقش نفسي أبداً، أو أطرح التساؤل، أن من الممكن أن يكون العيب بي وحدي، ولا علاقة لكندا في فشلي، لذلك سرعان ما اقتنعت بالسفر إلى جزيرة «غوادلوب» الفرنسية في الكاريبي، حيث أخي وابن عمي هناك، وهما أصلاً من شجعاني على فكرة الهجرة إلى هناك، فكسب المال سهل، ولا يحتاج إلا للتنقل بين القرى حاملاً بضاعتي في سيارة أو محفظة ثياب كبيرة، على مبدأ بياع «الكشي»، الذي كان يُطلق عليه «الكشيش»، وكان سائداً في سوريا ولبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث البائع كان يجول القرى مع حماره المحمل بكل ما تحتاجه تلك القرى المنعزلة عن بعضها، وعن المدن من حاجات بسيطة كالخيطان والإبر والأقمشة وغير ذلك. وكان أسلوب التجارة هذا، هو ما اقتبسه وطبقه السوريون واللبنانيون في الأمريكيتين مع وصولهم إلى هناك، وبقي ذاته مع أحفادهم ومع القادمين الجدد. كل ما في الأمر أن وسيلة التنقل تغيرت، فحلت السيارة الخاصة مكان الحمار، وباص النقل العام مكان القدمين، أما العقل وطرق عمله فقد بقيت نفسها تقريباً. وهذا ما كنا نلاحظه في نظرة «الكشيش» العنصرية والدونية إلى الرجل الأسود، ففي الوقت الذي كان يسرقه نقوده ويبيعه أشياء ليس بحاجة إليها بأضعاف سعرها الحقيقي كان يعامله وكأنه السيد الأبيض، والأسود عبد من عبيده.

كان أغلب السوريين الموجودين في الجزيرة من أصول ريفية، ومن قرى حمص وطرطوس وحماة، وهم استمرار لهجرات بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فقد كان من النادر أن تجد مهاجراً جديداً ليس له قريب من العائلة أو صديق من نفس القرية، ولم يكن القادم الجديد بحاجة إلى المال كي يصبح «كشيشاً»، لأن أغلب تجار الجملة هم من المهاجرين القدماء، ويكفي الذهاب إلى أحدهم لطلب البضاعة اللازمة للعمل، ديناً، حتى يجد طلبه.

يبدأ نهار العمل عند «الكشيشة» ما بين التاسعة صباحاً والحادية عشر قبل الظهر، وينتهي في أغلب الأحيان ما بين الواحدة والثالثة بعد الظهر، وتكون حصيلة اليوم المالية كافية، في أغلب الأحيان، لشراء الطعام وثمن القهوة والكحول، أما مساء فتجد الجميع؛ الكشيش وبائع الجملة في البيوت التي تم تحويلها إلى أماكن للعب القمار، حيث يتنازع الجميع على ما تبقى في جيوبهم من مال جمعوه من السكان الأصليين، ولولا قوانين البلد التي تمنع استخدام المسدسات والسواطير لكنا شاهدنا البعض يستخدمها في سهرات القمار تلك، من أجل حفنة من الفرنكات، لا يردعه ضمير أو أخلاق.

كنت في فترة الأشهر الثلاثة التي أمضيتها هناك، قبل العودة إلى كندا، أرافق أخي الصغير في حله وترحاله، فقد اكتشفت أنني «كشيش» فاشل، ومن الصعب عليّ تعلم هذه المهنة، لأن جزءاً من أصولها يجب أن يتعلمه الإنسان في بيت أهله، لذلك اكتفيت بمرافقة أخي في عمله ببيع أكياس البلاستيك في أسواق الخضرة، وزيارة بعض السوريين من وقت لآخر في بيوتهم. وقد لفت انتباهي بشدة، أن السوريين هناك لا علاقة لهم بمحيطهم، إلا في لحظات البيع والشراء، أما ما تبقى من وقتهم وعقلهم فإنهم يمضونه فيما بينهم، مستحضرين من قراهم أسوأ عاداتها وأخلاقها.

قرر أخي أن يخفف من عزلتي، فاصطحبني في أحد الأيام إلى بيت أحد السوريين ليعرفني عليه، مفترضاً أننا قد نتفق في الأفكار؛ فهو من عمري تقريباً، وكان مدرساً للرياضيات في بلدته قبل الهجرة. استقبلنا أخوه على الباب مرحباً وقائلاً إن أخاه في الحمام يأخذ دوشاً، فحرارة الطقس عالية وكذلك نسبة الرطوبة في الهواء. خرج الرجل من حمامه بعد دقائق لابساً «برنس» التنشيف ومرحباً، ثم قام يحضّر القهوة، فهو عازب مؤقت، زوجته وأولاده في سوريا كأغلب المهاجرين الباحثين عن الثورة المفقودة في وطنهم الأصلي. قام الرجل بكل واجبات الضيافة للسوري القادم من كندا، شارحاً في الوقت نفسه أهمية الفكر الرياضي العلمي، ومتحدثاً عن دور المعلمين والمدرسين في نهضة أي

شعب من الشعوب في العالم، وعن أهمية وضرورة الأخذ بالمناهج العلمية في التحليل والتركيب، ثم انتقل في حديثه إلى المناخ والحرارة والرطوبة، مقدماً مثالاً عملياً حياً عن العلم، فقال: انظروا لي، مشيراً إلى ما بين ساقيه، فأنا بعد كل حمام أو دوش لا أرتدي ملابسي الداخلية فوراً، وإنما أنتظر ساعة على الأقل كي تتبخر كل الرطوبة عن «بيضاتي»، وقد أستخدم هذه المفردة لأن الجميع ذكور.

كان الغيظ من كلامه قد وصل في صدري إلى البلعوم، فسألته: أستاذ، على افتراض أنك ارتديت فوراً ثيابك الداخلية، ماذا سيحدث؟

قال بكل جدية: يا أستاذ، أنتم أهل الأدب والصحافة لا تقدرون قيمة العلم، لو حدث ولبست كلسوني فوراً، فإن العفن سيصيب بيضاتي نتيجة انقطاع التهوية وبالتالي بقاء الرطوبة عليهما.

قلت له: تقصد أن العفن يصيب البيضات على طريقة صنع «الشنكليش» عندكم في القرية، حيث يتم وضع «القريشة» في جِرار من الفخار ثم يتم إحكام إغلاقها كي يمنع الهواء تماماً من الدخول وملامسة أقراص القريشة التي ستتحول نتيجة التعفن إلى «شنكليش». قال الرجل مدهوشاً: نعم هي هكذا. قلت له: أستاذ، بقي عندي سؤال واحد فقط: هل أنت من محبي سيادة الرئيس حافظ الأسد؟ (وكنا في صيف عام ١٩٩٩). قال: طبعاً، وهل عندك شك في ذلك؟

كتبت كل ما سبق، ليس للتشهير بالمهاجرين السوريين أو غيرهم، ولا بأصولهم الفلاحية أو المدينية، وإنما لأقول كلمة صغيرة، إننا جميعاً تقريباً بعيدون عن استخدام عقولنا عندما تتعارض معطيات الحياة اليومية مع موروثنا المعرفي القديم، ونميل فوراً إلى تبني ما ورثناه من معارف أهلنا ومحيطنا، ولهذا نرى ولاء الطبيب والمحامي والمدرس والقاضي والضابط وغيرهم إلى طوائفهم وقبائلهم ومناطقهم أكثر من ولائهم لوطنهم ولشعبهم، أكان ذلك في المعارضة السياسية أم في الموالاة، ولقد رأيت ذلك في اسطنبول وسمعت عنه في القاهرة والأردن ولبنان

وأوروبا، وفي كل مكان يوجد فيه سوريون.

إن قراءة البعض لمجريات ونتائج مؤتمر جنيف ما هو إلا نوع من تنشيف «بيضات» رجال السياسة السوريين المعارضين والمؤدين، بما في ذلك «بيضات» بعض النساء اللواتي كن في الوفود.

إنه العفن العقلي أيها السادة، قبل أي شيء آخر.

* * *

من راقب زبالة الناس مات هماً

رغم أن الأربعاء هو يوم حمصي بامتياز، فإنّ بعض سكان مونتريال الكندية، ورغم بعد المسافة والثقافة، أصروا على مشاركة أهل حمص يومهم، فخصصوه لرمي كل الأشياء التي ليسوا بحاجة لها، والتي يمكن إعادة «تدويرها»؛ أي إعادة الاستفادة من المواد التي صنعت منها، كالزجاج والورق والبلاستيك وغيرها.

ومع تراجع البرد وذوبان الثلوج في المنطقة التي أعيش فيها الأسبوع الماضي، بدأت عضلات جسدي بالتمدد بعد أن كان الجليد قد قلصها، وعاد لي حنيني الحمصي إلى اكتشاف مخلفات البشر، وخاصة المرمية على أرصفة المدينة التي كان يغطيها الثلج، وقررت خوض مغامرة التعرف على الناس من خلال زبالتهم.

ولأعطي انطباعاً سليماً عن منهجي في النقد بدأت بنفسي، فأنا وجاري السريلانكي أكسل من أن نقوم بفرز الزبالة المنزلية إلى نوعين، ورغم أن بلدية المدينة قد أعطت كل بيت صندوقاً بلاستيكياً أنيقاً، كي نخصصه للمواد التي يمكن إعادة تدويرها، فقد وجدنا في هذا الأمر مضيعة للوقت وقلة فائدة. وبدلاً من رمي زبالتنا على ثلاثة أيام في الأسبوع اكتفينا بيومين، يعني أننا ألغينا يوم رمي الزبالة القابلة للتدوير، ووضعنا كل مخلفاتنا المنزلية في أكياس سوداء، الصالح منها والطالح، مرتكبين بذلك مخالفات قانونية وثقافية وبيئية قانونية؛ لأن البلدية طلبت من السكان فرز زبالاتهم إلى ما يمكن الاستفادة منه وإلى ما لا يمكن، ومن لا يقم بذلك يُعتبر من المخالفين للقانون، وتترتب عليه غرامات مالية محددة.

أما المخالفة الثقافية فهي الخروج على العادات الثقافية للسكان، الذين يرون في تنفيذ أوامر البلدية، تحقيقاً لرغباتهم، التي صاغتها البلدية على شكل قوانين تخدم مصلحة السكان جميعاً، والمخالفة الأخطر هي المخالفة البيئية، ففي رمي الزبالة التي يمكن إعادة تدويرها مع الأخرى زيادة في استهلاك موارد الطبيعة، ورفع لنسبة تلوث البيئة، قد يؤدي إلى توسع ثقب الأوزون وتهديد حياة البشر مستقبلاً.

وخلاصة الأمر، أن أي قارئ أو متابع للزبالة يمكنه أن يقول عني وعن جاري، أننا لسنا متأقلمين مع الحياة الكندية، وأننا من المهاجرين القادمين حديثاً إلى المدينة، وأن مستوانا التعليمي ضعيف، علماً أننا في مونتريال منذ ربع قرن، وأن كلاً منا يحمل شهادة جامعية، ولكننا في الواقع غير متأقلمين مع الحياة الكندية لأسباب ثقافية.

تابعت مسيري على الرصيف، بعد أن «هريت نعمتكم» من نقدي لذاتي ولجاري، وقفت أمام صندوق بلاستيكي آخر مليء بالزجاجات الفارغة، ولا شيء آخر. تعرفت على بعض زجاجات الخمر التي مرت على موائد شبابي، وعرفت منها ما هو مخصص للويسكي وما هو مخصص للنبيذ وأنواع زجاجات البيرة المحلي منها والمستورد. بحثت بيدي في الصندوق علها تصطدم بزجاجة عرق فارغة، فلم أعثر على مبتغاي، وقررت أن صاحب هذا البيت كافر زنديق لم يترك نوعاً من أنواع الخمور إلا وتعاطاه، وأن وضعه المادي المريح يتيح له شراء و»كركعة» الخمور غالية الثمن، والتي قد يصل سعر الزجاجة الواحدة إلى أكثر من مئة دولار. وعدم وجود زجاجة عرق يدل بما لا يدع مجالاً للشك أن أصله ليس شرق أوسطي، وأنه لا يعرف معنى تذوق الكحول «والسلطنة».

قبل نهاية الشارع لفت انتباهي صندوق بلاستيكي آخر عليه اسم بلدية مونتريال فاقتربت متلصصاً على محتوياته، فوجدت، يا للهول، كمية كبيرة من الجرائد اليومية، وعلب كرتون فارغة لنوع معين من الدخان، وتذكرت فوراً أيام العمل بالسياسة في سوريا، واقتران عادات القراءة بالتدخين، يضاف إليهما «الصفن» السياسي والأحلام الخرافية في التحرر، مما أدى في النهاية إلى استمرار الأسد في السلطة إلى وقتنا الحالي. وقررت أن صاحب هذا البيت مصاب بمرض متابعة أخبار المدينة، وأنه ينفق ثلث دخله اليومي على الدخان الذي قد يكون سبباً مباشراً في قتله في أحد الأيام.

كدت أنصرف عن متابعة مهمتي، ولكن وجود كمية كبيرة من الزجاجات البلاستكية الشفافة والفارغة أمام أحد البيوت استوقفني، أخذت عبوة بين يدي

لأقرأ ما هو مكتوب عليها، كي أفهم من يستخدمها، ولماذا، فوجدت أن من يسكن هذا البيت رجل كبير في السن، عليه أن يشرب هذا السائل الذي يشبه الماء، وأنه مريض بمرض لا أعرف اسمه، وأنه ممنوع من شرب الماء العادي، رغم أن مياه مونتريال معروفة ومشهورة بطيب طعمها ونظافتها وخلوها من البكتيريات والجراثيم، وأن البلدية تراقبها مراقبة دقيقة حرصاً على صحة السكان، وتقدم تقارير علنية عن مكوناتها في الأخبار ووسائل الإعلام المتنوعة.

قبل أن أنعطف يمينا، قررت التوقف عن متابعة قراءة زبالة الناس، على مبدأ «من راقب الناس مات هما»، وأنا لست بصدد الموت الآن.

* * *

داء المخابرات

وكأن قدر السوريين أن تحصي المخابرات أنفاسهم أينما كانوا. فبعد أن كانوا متهمين من قبل نظام الأسد، أصبح العالم كله ينظر إليهم كإرهابيين، أو في أحسن الأحوال، كإرهابيين محتملين، يهددون أمن العالم، هذا العالم الذي لم يستطع أن يرى في ملايينهم المشردة ضحايا عنف نظام الأسد، وإنما ضحايا حرب أهلية كي يسقطوا عن أنفسهم تهمة الاستهتار والصمت عن أكبر فضيحة أخلاقية في العصر الحديث، وكان لا بد لهذا العالم أن يحتاط من تداعيات الحرب السورية، فيأخذ في مراقبة السوريين في كل مكان في العالم، وما حصل معي، أنا البعيد عن سوريا منذ ما يقارب ربع قرن، هو جزء مما يحصل مع الكثير من السوريين في بلدان الغرب الأخرى.

قبل حوالي الأسبوع، زارني في محلي شخصان، ما إن دخلا حتى سلما علي كما يجب، ثم طلب أحدهم معرفة ما إذا كنت ميخائيل سعد، فقلت نعم، أخرج عندها من جيبه «البلاك» المعدني الذي يشير إلى الجهة الأمنية التي يعمل لها، وقدم اسمه، وسأل إذا كان وقتي يسمح لي بالتحدث معهما لعدة دقائق، فوافقت. حاول أحدهما أن يشرح لي أن واجب الدولة الكندية هو حماية مواطنيها من كل ما يمكن أن يصيبهم من أضرار، وخاصة من أعمال إرهابية محتملة. قلت له: يمكنك اختصار هذه المقدمة، فأنت هنا لأنني سوري، وبسبب الإبادة التي يتعرض لها الشعب السوري، والتي تتغاضى عنها حكومتنا الكندية كغيرها من دول الغرب، فماذا تريد أن تعرف؟

سألني عن أحد أقرب الأصدقاء، والذي أفتخر بصداقتنا الممتدة على مساحة زمن وجودي في كندا، وعن إمكانية علاقته بالإسلاميين المتطرفين أو الجهاديين، فسخرت من هذا الاحتمال ونصحته أن ينقل رأيي إلى المسؤولين بضرورة إقفال هذا التحقيق، وأن لا ترتكب أجهزة المخابرات الكندية خطأ آخر كالخطأ الذي ارتكبته بحق السوري «ماهر عرار»، لمجرد أنه مسلم مؤمن، وكلف الخزينة

الفيدرالية عشرات الملايين من الدولارات، فوعد خيراً وأنه سيوصل شهادتي وشهادة غير من السوريين، إلى المسؤولين، وقبل أن يغادر الرجلان، قال أحدهما إن أجهزة المخابرات الكندية تخضع للقانون، وهي ليست فوق المحاسبة إذا أخطأت.

بعد أن غادر رجال المخابرات محلي، عدت في ذاكرتي إلى لحظات اعتقالي، في المرتين: المرة الأولى جاءت دورية الأمن إلى المدرسة التي كنت معلماً فيها واقتادوني من حمص إلى سجن المزة، مغمض العينين ومكبل اليدين، وبعد إدخالي في الدولاب بدأ عمل الكابل الرباعي، وبعد ذلك بدأ التحقيق معي، وتم تسريحي من وظيفتي والبقاء، في السجن ثلاثة عشر شهراً من دون محاكمة.

في المرة الثانية، وبعد اثني عشر عاماً، جاءت دورية الأمن إلى مكتبتي بحمص واعتقلوني فيها، وبدأ الرفس والركل قبل أي سؤال، ثم تم نقلي إلى فرع فلسطين، ثم إلى فرع عنجر ومنه إلى فرع طرابلس وبعده إلى فرع بيروت، كل ذلك بناء على تقرير من مخبر يقول فيه إنني أتعاطف مع حزب الكتائب اللبناني، لمجرد أن اسمي مسيحي الدلالة.

تذكرت ذلك الزمن، وما يحدث الآن من إماتة فروع التحقيق السورية لخيرة صبايا وشباب سوريا، بحجة محاربة الإرهاب وحماية الأقليات، يساعد نظام الأسد في ذلك أنظمة العالم التي تدّعي الحرية والديمقراطية.

ثلاث سنوات مرت من عمر الثورة السورية، وما تزال أجهزة المخابرات تقصف أرواح السوريين، فمتى الخلاص؟

* * *

رسالة غير عاطفية إلى أستاذ الفلسفة

بفرح كبير، وسعادة غمرت قلبي، قرأت رسالتك، المنشورة في إحدى الجرائد العربية في مونتريال فأزاحت الغشاوة عن عيني، وأنارت أمامي طريق التوبة والعودة إلى الأب القائد، كعودة الابن الضال، عبر سبل العمل الديمقراطي، التي أنتم خير من يعرفها ويطبقها. كما أقنعتني كلماتها العميقة والمحكمة «بالتعددية» التي تغني المجتمعات البشرية، وتفجر طاقاتها الخلاقة. وكان أن غاب عن ذهني، المصاب «بالبارانويا»، وذلك، كما تفضلت وكتبت، نتيجة عدم نضج فكري العشائري وانحسار منسوب الأخلاق «الطائفية» السورية الفاضلة عن ساحة حياتي اليومية منذ نعومة أظافري. في هذا الوقت جاء ردك على كتاباتي عن الثورة السورية، فأعادني إلى جادة الصواب، وعرفت أن في الجالية السورية أفراداً قضوا حياتهم في سبيل خلق كيان للسوريين، وهو شيء، أعترف بتواضع، أنني كنت أجهله إلى أن قرأت كلماتك التي ترشح «أخلاقاً» و«ثقافة» تعبران عن تماسك منهجي محكم، ومنطق لا يخرقه «الباطل» من أي جهة من جهاته، وكأنه منطق أستاذ للفلسفة قدير. واغفر لي خطابي إذا كان قد أشعرك «بالدونية» أو أساء إليك، فأنا لم أقصد ذلك، وإذا كان فيه شيء مما ذكرتَ فقد يكون مرده إلى عدم «تمرسي» الكافي بالحياة الديمقراطية مقارنة مع تجربتك.

وهنا أجد من واجبي، أن أحييك وأسجل لك تثميني البالغ لبعض النقاط الهامة جداً التي وردت في رسالتك، فالحوار الشريف الديمقراطي يقضي أن يعترف كل محاور بفضائل محاوره وتفوقه في بعض الجوانب، حتى لو كانت غير مطابقة لسلوكه وممارساته اليومية.

لقد أدهشني، وأنا لا أُدهش بسهولة، اكتشافك المبتكر، وعرضك الجذاب، وتسلسل أفكارك القوي، وانقياد الكلمات وطواعيتها لك، منطلقاً من «الأجزاء» إلى «الكل»، لتعود فتقرأ «الكل» في الأجزاء، أثناء تفنيدك ما جاء في كلامي، ومن خلال دفاعك عن أصلك السوري، الذي تخشى ضياعه في زحمة «الأصول»،

وتبريرك تعدد تجمعات السوريين بتعدد وجهات نظرهم، وكأنك ترى القتل وجهة نظر أيضاً، هذه التعددية التي إن دلت على شيء فإنما تدل على امتلاكهم حرية القرار، وصولاً إلى اعتبارك العرب والسوريين «إخوة»، وهي نقطة ما تزال غائبة عن ذهن الكثيرين، لذلك فإن إشارتك إليها، وتثبيتها في أكثر من مكان، تعتبر بحق اكتشافاً باهراً وجريئاً في حقل علم الاجتماع العربي، أرجو أن لا يؤثر سلباً في طموحك للانضمام إلى «نادي الوجهاء والحكماء».

النقطة الإيجابية الثانية، البادية في مقالك، هي هذا الحس الثقافي العميق الذي تتمتع به، عند اكتشافك خطورة كلامي، وقدرتك على الغوص في مضامينه، ومعرفتك أنه مجرد «وصف كاريكاتوري مبتذل» لواقع الجالية السورية. وأحب أن أهمس لك بصوت عال، معترفاً بتفوقك في اكتشاف الأبعاد الحقيقة لما يرمي إليه كلامي، والتي غابت عن الكثيرين، وتنديدها بالانقسامات الدينية والطائفية والعشائرية والمناطقية، التي تعاني منها الجالية السورية، بمباركة ورعاية بعض «الوجهاء». وبالتالي فالاستنتاج المنطقي «الأرسطي» يقود إلى أن واقعاً مبتذلاً إلى هذا الحد، يعكس ذاته، بالضرورة، في كاريكاتور مبتذل، كما أشرت في رسالتك. أما تنديدك بالمواقع والجرائد التي تنشر لي، فأعزوه، من باب حسن النية، إلى حبك الكبير للجالية السورية بمختلف طوائفها، التي تقف صفاً موحداً وراء سيادة «القائد الرمز»، في صموده وتصديه للمؤامرة الغربية -الصهيونية - الرجعية، حتى لو كان هدف «سيادته» من صموده هذا، هو قتل كل السوريين، وبقاؤه وحيداً في الوطن على كرسي الحكم!

أما النقطة الثالثة في رسالتك، واعذرني إذا وصفتها بالسلبية، فهي اتهامك لي بأنني «حشاش»، فأنت تعرف أكثر من غيرك، «ديمقراطياً» أن كلامك هذا خرق فاضح «لحقوق الإنسان» ولحرية الأفراد في حياتهم الخاصة، ومع ذلك فأنا أقبل هذه التهمة منك، لأنك «مؤمن» ولأنها أطلعتني على صفات المثقف المؤمن الذي يتعاطى المخدرات، ولم يكن لي خبرة سابقة في ذلك، فشكراً لك خبراتك المنشورة، في هذا المجال، لأنها خير وسيلة لتوعية أفراد الجالية،

والمراهقين منهم بشكل خاص. أما عن رغبتك في نشر رسالتك كي تكون «شاهدة» على الجالية السورية وأفرادها، فأنا أطمئنك أن هذه الرسالة وكل من وقف مع قاتل السوريين قولاً وعملاً سيحفظها السوريون في كل بقاع الأرض، وسيأتي الوقت المناسب لإعادة تذكيركم بما فعلتم.

أخيراً، أشكرك على ثقتك «الغالية» بي، وتأكدك من أنني مدفوع من جهات «خارجية» للطعن في «أصلك السوري»، مفترضاً أن «نا» في «أصلنا» التي استخدمتها في رسالتك، جاءت من باب التفخيم لحضرة «الوجيه» الجديد.

وإلى اللقاء في حوار ديمقراطي قادم بعد سقوط ابن الأسد.

*　　*　　*

سؤال الأنا

لاحظت أن ابني الصغير رامي بدأ بالابتعاد عني منذ فترة، فقررت البحث عن طريقة تلغي أو تخفف من فارق الأجيال بيننا، فهو يهرول كالأرنب نحو العشرين من العمر وأنا أزحف مثل السلحفاة نحو الخامسة والستين، فما هو الشيء المشترك الذي يمكن أن يجمعنا بعد أن فرّقتنا الأعمار؟

بحثت طويلاً عن الجواب وحدي، رغم معرفتي وصداقتي لعدد من المختصين بشؤون الشباب، فأنا بطبعي كتوم، ولا أحب أن يتدخل الغرباء في خصوصيات أسرتي، رغم أنني أنشرها كلها، ولكن لي من وراء نشرها هدف هو إغاظة الناس. المهم أنني أخيراً اهتديت إلى قاسم مشترك بيننا ألا وهو عشقنا للصبايا، وهكذا دعوت ابني إلى مشوار مسائي في أحد شوارع مونتريال الذي يعج عادة بالجميلات و»المظلطات» والمستورات، والقادمات من كل بقاع الأرض، وأثناء تعليقنا على كل فتاة تمر قربنا مدحاً أو ذماً، قلت له: هل تفضل الشقراوات أم السمراوات أم السوداوات، العربيات منهن أم الكيبيكيات؟ قال أنا أفضّل الجميلات من كل الألوان، وشخصياً أفضّل العربيات، رغم أنني لا أعرف أي بلد عربي حتى الآن، بما في ذلك سوريا، كما تعرف، وأنا هنا أحسدك لأنك تملك وطناً آخر، فأنت كندي وسوري بينما أنا كندي فقط.

قلت لابني: هل تحسدني لأنني مشتت الولاءات؟ قال سأروي لك القصة التالية كي تعرف بعض العذاب الذي يعانيه إنسان مثلي: لقد ولدت في كندا، ولم أزر أي بلد عربي، ومع ذلك فأبناء البلد ينظرون لي ويتعاملون معي كعربي منذ اللحظة الأولى، قد يكون السبب هو لوني الأسمر، إن عيونهم تقول لي بوقاحة أنت لست منا، فعد إلى وطنك، المشكلة يا أبي أن لا وطن آخر لي، لذلك قلت لك أحسدك، فأنت تملك وطنين.

الحديث السابق جرى بيني وبين ابني البارحة مساء، وتذكرت رغم ضعف ذاكرتي، أنني قرأت في زمن ما شيئاً مشابهاً له. بحثت ووجدت أن المرحوم

أنطون مقدسي قد قال ذلك في إحدى مقابلاته: «حين سافرت إلى فرنسا للدراسة كان لدي مزاج كوزموبوليتي متفتح، ولكن الفرنسي أيقظني بفظاظته. قال لي أنت لست من هنا... أنت لست فرنسياً ولا أوروبياً. أنت آخر.»

وفهمت ابني وأنطون مقدسي أكثر عندما جرى منذ فترة حديث مع أحد زبائني الفرنسيين، حيث أصر على حق الغربيين بالخوف من «الإرهاب الإسلامي» المتنامي في سوريا. وعلمت أثناء الحديث، أن الخوف الغربي في العمق ليس من الإرهاب الإسلامي وإنما هو من الإسلام بحد ذاته، وذلك عندما برر لي الخوف الفرنسي من انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، فهي بلد إسلامي كبير ويمكن لسكانها الشباب أن يغيروا في التركيبة السكانية لأوروبا، ويفرضوا «علينا» فيما بعد عاداتهم ومعتقداتهم ونمط سلوكهم، وربما «إرهابهم». وعندما حاولت أن أقنعه أن استيعاب الأتراك المسلمين وضمهم إلى الاتحاد الأوروبي، وإتاحة الفرصة أمامهم للتعرف عن قرب على العالم المسيحي وقيمه الحضارية في الديمقراطية وحقوق الإنسان وكافة العلوم سيجعل منهم جيراناً مقبولين وبعيدين عن التطرف، لأن التطرف يأتي عادة من التعصب والظلم والجهل بالآخر، فما دمتم خائفين من الإرهاب الإسلامي، فلماذا لا تعطون أنفسكم فرصة تفكيكه من خلال استيعاب المسلمين بدل طردهم ومحاصرتهم؟

وكان جوابه الأخير لي مدهشاً عندما قال: نحن لا يمكن أن ننسى أن العثمانيين حاصروا «فيينا» عدة سنوات، وأنهم احتلوا أجزاء هامة أخرى من القارة الأوروبية، حتى إنهم هددوا الفاتيكان أكثر من مرة، فكيف ننسى ذلك، وتريدنا الآن أن ندخلهم إلى الاتحاد الأوروبي؟

بعد هذا الحديث المؤلم، ازداد غضبي على بيت الأسد وعلى كل الديكتاتوريين العرب والمسلمين، فلولا قتلُهم لشعوبهم وتدمير بيوتهم ونهبهم لأملاكهم لما كنا مضطرين أن نهاجر إلى بلدان لا ترى فينا إلا إرهابيين أو إرهابيين محتملين، لا فرق في ذلك بين المسيحي السوري أو المسلم السوري، فكل عربي هو مسلم وكل مسلم هو إرهابي، والحل الوحيد أمامنا هو الاستمرار في الثورة السورية

والانتصار على الاستبداد، فذلك طريقنا للحرية والديمقراطية.

في الخاتمة قلت لابني: علينا جميعاً أن نطرح على أنفسنا السؤال نفسه الذي كان المرحوم أنطون مقدسي قد طرحه على نفسه وهو طالب في فرنسا: من أنا؟

* * *

عن العثمانيين والعروبة

في ذاكرتي، منذ أن بدأت تحفظ الأفكار والمواقف السياسية وكلام الناس، يعني منذ الطفولة المدرسية، وأنا أرى في الأتراك أو العثمانيين، أعداء لنا؛ فهم أعداء في القومية، وهم مستعمرون، وهم من اغتصب لواء اسكندرون السوري، وهم من استعمر بلادنا العربية أكثر من أربعمائة عام، وفي أيامهم جرى تخريب البلاد وانتشار الفساد، وهم من قتل أولادنا في «السفر برلك» وقطع الغابات لتكون وقودا للقطارات التي تنقل الجنود إلى ساحات المعارك، وهم الذين ذبحوا الأرمن، وقبلهم الآشوريين والسريان (المسيحيين)، وقبل قبلهم (العلويين) وكل الأقليات التي أفتى «بقتلها» شيخ الإسلام ابن تيمية، وأخيراً إعدامهم للأحرار في ساحات دمشق وبيروت، كل ذلك كان يتم تكراره على مسامعنا وآذاننا التي تحولت مع ألسنتنا إلى مصادر بث واستقبال للفكر «القومي» الذي تجسد أخيراً في حزب البعث، «فبعث» فينا الميت من روحنا التي حاول العثمانيون قتلها على مدى أربعمائة عام وما استطاعوا.

هذه هي صورة العثمانيين التي رسمها في عقولنا الفكر القومي العربي بدون ذكر أي إيجابية لهؤلاء البشر، الذين كانوا في إحدى اللحظات التاريخية سادة العالم، وكانت دولتهم تمتد على ثلاث قارات، وكان يسكنها كل أنواع البشر وكل الديانات. هذه الصورة تركت فجوة كبيرة عند بعض الناس بين ثقافتهم الحالية وتراثهم وخاصة الديني منهم، لذلك لم أكن أفهم، في مراهقتي وشبابي، تعاطف أبناء الأغلبية الدينية في سوريا (السنة) مع الخلافة العثمانية، ورفضهم لكل أنواع الذم والقدح التي كانت توجه لها، لقناعتهم ربما بأنها تمثل ثقافتهم وحلمهم في الدولة الإسلامية التي تعيد لهم حقوقهم وتحميهم من الأجنبي. كما أنهم، وللأسباب نفسها، كانوا ضد الفكر القومي والفكر الاشتراكي والعلمانية، بل إنهم اعتبروا أي فكر مصدره الغرب، حتى لو كان مفيداً، هو فكر دخيل يريد شراً بالإسلام والمسلمين، يجب رفضه والتنديد به.

إن إعادة قراءة لخريطة القوى السياسية وأمأكن انتشارها والأفكار التي رافقتها تجعلنا نرى بوضوح أن الفكر القومي متمثلاً في حزب البعث، والفكر الاشتراكي متمثلاً في الحزب الشيوعي ثم في حزب العمل الشيوعي والفكر العلماني المتمثل في الحزب السوري القومي الاجتماعي، إن هذه الأحزاب وأفكارها الإيديولوجية منتشرة بشكل أساسي في أوساط الأقليات الدينية والقومية، ويكاد يكون وجودها في أوساط السنة السوريين قليلة جداً، لذلك نلاحظ أنه عندما قامت الثورة السورية، فإن القوى المسماة «تقدمية» شككت فيها، في البداية، ثم وقفت في غالبيتها ضد الثورة واختارت نظام الأسد، وفي الطرف الآخر، لاحظنا أن الكتلة المنخرطة في الثورة هي الكتلة الجماهيرية «السنية»، مع استثناءات قليلة. ولعل من المفيد الإشارة هنا إلى أن أعضاء «اليسار» السني قد اختار أغلبهم الوقوف مع الثورة، بينما وقف أعضاء «اليسار» نفسه من أبناء الأقليات مع السلطة الأسدية.

لست بصدد إطلاق أحكام نهائية على أحد، ولست مؤهلاً أصلاً لذلك، وما أوردته سابقاً ما هو إلا مشاهدات شخصية لاحظتها عبر سنوات، وجاءت الثورة كي تفضح ما كان مستوراً أو مغلفاً بشعارات، سرعان ما تمزقت مع أول رياح الثورة، ودفعت الجميع لإعادة النظر بالمسلمات التي كانت نائمة في تلافيف الأدمغة، ومنها دماغي. مع سفري إلى اسطنبول نهاية العام الماضي للمرة الأولى، وزيارتي لبعض المواقع الأثرية العثمانية وإعجابي الكبير بما رأيته، كل ذلك في مناخات الثورة السورية داخلياً ودولياً، وخاصة تركياً، عادت لي ذاكرتي النائمة، واكتشفت حجم الهوة التي كانت تفصلني، أنا السوري العروبي المسيحي العلماني اليساري، ابن الأقليات السورية بكل أنواعها، عن تراثي الإسلامي، الذي رأيت بعض جماله في الآثار العثمانية في اسطنبول، ووقعت في حبها، وكأنني وجدت روحي التي كانت هائمة وقد استقرت في فضاءات الجوامع والتكيات والأسواق والحمامات والكنائس القديمة التي ما تزال قائمة في اسطنبول، بعضها فوق المعابد الرومانية والبيزنطية، وبعضها الآخر وحيد ولكنه مشبع بروح الفنون الإسلامية.

من هنا كان قراري الذهاب إلى تركيا والكتابة عن الآثار العثمانية، والعيش في مناخاتها قدر ما يسمح لي عمري ودخلي المالي المتواضع، فأنا لا أريد الرحيل عن هذا العالم إلا بعد أن أسهم، قدر طاقتي، بواسطة الكتابة، في ردم تلك الهوة الثقافية، التي أشرت إليها، بيني وبين ثقافتي الإسلامية، وبين وبين مجتمعي، وبيني وبين ثورتي، وبين وبين سوريتي الحرة.

* * *

الأخلاق والثورة

عندما وصل حافظ الأسد إلى السلطة عام ١٩٧٠، وضع أمامه هدفاً واضحاً وهو تحويل سوريا إلى مملكة أسدية، وهذا ليس استنتاجاً جديداً، أو اجتهاداً، وإنما هو حقيقة كان يعرفها رفاق حافظ الأسد من العسكريين والمدينيين الذين وقفوا ضد مشروعه هذا، ودفع بعضهم حياته لقاء هذا الموقف. ولكي يحقق ذلك الهدف، وهو الذي يعرف تركيبة الشعب السوري، قرر عن وعي وتخطيط إفساد كل شيء في سوريا، وقد بدأ بالجيش، فرفع شعار «التوازن الاستراتيجي» مع العدو غطاء مارس تحته تفريغ الجيش من كل العناصر غير المؤيدة له، وصولاً إلى حرب ٧٣ حيث انتقل بعدها لتصفية الجيش على أساس طائفي واضح، فضمن عدم الانقلاب عليه محققاً الخطوة الأولى في تثبيت عرشه الأسدي.

أما في المجال السياسي، فقد استثمر النقد الذي كان موجهاً للقيادة البعثية التي كان وزير الدفاع فيها، بأنها غير ديمقراطية، فأعلن عن «ديمقراطيته» عبر إجراء انتخابات لما أصبح يُعرف فيما بعد بـ «مجلس الشعب»، وشكل «الجبهة الوطنية التقدمية»، حيث وضع كل الأحزاب المعارضة تحت جناحيه، فأفسد منها ما أفسد، وشق الأحزاب التي حاولت التمرد على الطاعة، وقدم رشوة إلى كل رئيس حزب وعضو مجلس شعب عبارة عن حقه باستيراد سيارة، أما من رفض الإذعان بعد كل ذلك، فكان مصيره السجن، كما حصل مع الإسلاميين والمكتب السياسي، وهو جناح رياض الترك في الحزب الشيوعي السوري.

وكانت مجزرة حماة عام ٨٢ تتويجاً لسياسته في تكميم فم المجتمع السوري بكامله، وإلغاء السياسة منه نهائياً حتى قيام الثورة.

في مجال التعليم، أصدر مرسوم إلزامية التعليم الابتدائي في سوريا دون أي تخطيط أو تأمين المدارس اللازمة والمعلمين والوسائل التعليمة، مما حول الطلاب في النهاية إلى أميين حقيقيين، وفي الوقت نفسه حرمهم من اكتساب المهن التقليدية. وتحولت الجامعات السورية إلى معامل لإنتاج العاطلين عن العمل

والفاشلين دراسياً وخاصة الذين كانوا يحصلون على علامات إضافية لأنهم قفزوا بالمظلات البعثية.

في الاقتصاد لم يكن الأمر بعيداً عما جرى في بقية قطاعات الحياة، فقد تم ربط كامل الأنشطة الاقتصادية بالدولة، وتم تعيين مدراء عليها من اللصوص. أما في التجارة فقد تم إجبار التجار على اقتسام أرباحهم مع المخابرات وموظفي التموين، أو إجبارهم على مشاركة المتنفذين في الدولة والمخابرات.

ونتج عن كل ذلك، وحسب الخطط الموضوعة مسبقاً، أن الأخلاق العامة بدأت بالتراجع إلى أن اختفت تقريباً، وحلت محلها أخلاق «أسدية» بامتياز، منها على سبيل المثال، أن الشريف أصبح اسمه «حمار»، وأن اللص أصبح يطلق عليه الناس اسم «الفهلوي» أو «الشاطر»، وأن الموظف الذي يقوم بواجبه أصبح يشكل وجوده تهديداً للأمن القومي، وأن الضابط الذي لا يرسل عساكر وحدته العسكرية إلى بيته للقيام بالأعمال المنزلية أو الزراعية أو أعمال البناء هو ضابط فاشل في الدفاع عن وطنه. وأصبحت العاهرة مثالاً حياً عن التحرر. أما الكارثة الكبرى فهو ذلك الإنسان الذي قاوم كل الإغراءات السابقة وقرر أن يبقى نظيف اليد وللسان، ولأنه أصبح ضعيفاً ودون سند فقد قرر الاعتماد على الله والاتكال عليه، فوقع عليه غضب نظام الأسد، فحوله إلى مجرم ورجعي ومتخلف وإرهابي وطحنه طحناً، وكانت مذبحة حماة عام ٨٢ هي الحجة على المجتمع السوري، فأصبح كل سني «إخوان مسلمين» يجب إعدامه، وكل مسيحي انعزالي من جماعة الكتائب اللبنانية، وكل درزي هو عميل لإسرائيل، ولم يبق أحد دون تهمة جاهزة مسلطة على رقبته، طائفية أو اقتصادية أو اجتماعية، والحل الوحيد أمام الجميع هو التواصل المباشر مع هذه السلطة القاتلة كعملاء لها ضد كل الآخرين، ولتكون هي الحكم الوحيد بين الجميع في النهاية.

كان قيام الثورة تعبيراً عن حاجة المجتمع السوري للتغيير، ورغبته في الخروج من تحت عباءة المستبد الظالم، ولكن من الشروط الأساسية لنجاح الثورة هي في إعادة بناء المنظومة الأخلاقية التي دمرها آل الأسد، نحن بحاجة الآن إلى

نحن بحاجة الآن إلى أن نسمي الأمور بأسمائها الحقيقية، فنقول عن اللص إنه لص، وعن القاتل إنه قاتل، وعن الخائن إنه خائن، وعن العميل إنه عميل، وعن الوطني إنه وطني، مهما كان لون الثوب الذي يرتديه، ومهما كان الشعار الذي يرفعه، لأن السلاح والمال دون أخلاق سيكونان كارثة على الأفراد وعلى الوطن.

نحن بحاجة الآن إلى ثورة أخلاقية تبدأ من وسط الثوار قبل أن تعم جميع أطراف المجتمع السوري ليكونوا قدوة للآخرين، وهذا لا يعني أبداً التخلي عن أساليب الثورة الآخرى، فالنصر لا يتحقق من خلال أسلوب واحد، وإنما بالتعاون بين كل الأسباب، ولكن تبقى الأخلاق هي البداية.

* * *

السلاح والتسلح

عادة لا أتقن الحديث عن النظريات ولا أعرف كيفية التعامل مع الخطط الاستراتيجية، ولكن أعرف رواية الأحداث التي شاهدتها وعشت بعض تفاصيلها، ففي تلك الوقائع، كما أعتقد، بعض المعطيات الضرورية لمن يريد أن يحلل ويستنتج، لذلك أقدم شهادتي هذه:

الحادثة التالية التي سأرويها جرت في صيف ١٩٨١ والصراع على أشده بين نظام حافظ الأسد والطليعة المقاتلة، وكان من نتائج ذلك الصراع أن استطاع حافظ الأسد تدمير حماة وقتل أكثر من مئة ألف سوري، وإلغاء الحياة السياسية بالكامل في سوريا، وأخيراً توريث الحكم لابنه وهو في القبر.

في ذلك الصيف، عدت من بيروت، حيث أعمل، إلى حمص لرؤية الأهل والأصدقاء، فدعاني أحد الأصدقاء العلويين لحضور حفل خطبته من فتاة من قرية «خربة الحمام»، وهي قرية قريبة من الحدود اللبنانية، وتقع على طريق حمص طرطوس. كان بيت أهل الفتاة يطل على الشارع الرئيسي المار في وسط القرية والذي يصل طريق حمص - طرطوس بقرى وعر حمص.

وتشاء الصدف أن يكون مقعدي على طرف المصطبة التي يجلس عليها المدعوون والتي تطل مباشرة على الشارع الرئيسي. حوالي الظهر رأيت رتلاً مكوناً من خمس سيارات مرسيدس لبنانية بلوحات خصوصية يعبر الطريق باتجاه قرى الوعر، وقد كانت الأسلحة واضحة للعين على مقاعد السيارات، وللتذكير فقط، كان يكفي في ذلك الوقت أن يجد الأمن طلقة مسدس مع أحد السوريين كي تؤدي إلى موته، فكيف بسيارات مليئة بالسلاح؟ ناديت صديقي، وهو الخطيب المنتظر فجاء مسرعاً، وقد لاحظ الرعب في ندائي بدون أن يعرف سببه، وقال: خير أخي ميخائيل؟ قلت له: ألم تشاهد السيارات المحملة بالسلاح التي مرت الآن؟ ضحك وقال: لقد اعتاد الناس عليها، فهذه نقلة يومية تأتي من الحدود اللبنانية برفقة المخابرات إلى أن تصل إلى آخر قرية في وعر حمص، ثم يكون في

انتظارها في أول قرية من محافظة حماة، مخابرات حماة وتجار السلاح الحمويون حيث يجري الاستلام والتسليم، ثم ينقل السلاح إلى حماة ليتم بيعه إلى الناس هناك.

أردت القول إن حدثاً كهذا لا يمكن أن يمر إلا بقرار من هرم السلطة السياسية في سوريا، والهدف منه معروف وهو إغراق البلد بالسلاح الفردي كي يكون عند الأسد المبرر الكافي لقتل أي تحرك سياسي في البلد بحجة مكافحة الإرهاب، ولو أدى الأمر إلى تدمير سوريا، المهم المحافظة على نظامه، وللأسف فقد نجحت خطة الأسد الأب تلك، وخسر المجتمع السوري كل المنجزات التي كان قد حققها منذ الاستقلال وحتى لحظة وصول البعث إلى السلطة عام ١٩٦٣.

ما حدث في سوريا منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، يتكرر الآن، ورغم اتساع رقعة المشاركين في الثورة، ورغم عمقها الاجتماعي، ورغم وضوح أساليب سلطة الأسد الابن منذ البداية، والتي تشبه ما فعله الأب، فإن المعارضة، للأسف، يبدو أن ذاكرتها ضعيفة، ولم تتعلم من التاريخ، بعكس النظام الأسدي تماماً الذي برهنت السنوات الثلاث أنه ما زال الأذكى، وصاحب الإمكانات الكبيرة في اللعب داخلياً ودولياً.

يذكر الجميع كيف أن النظام الأسدي قد خطط منذ الأيام الأولى للثورة في درعا كي يجبر الناس على حمل السلاح، وكيف أن رأس النظام قال في خطابه الأول إنه يواجه التطرف والإرهاب، وكيف أن الناطقة باسمه بثينة شعبان اتهمت الثوار بالطائفية، تلك العناوين الرئيسية التي عمل عليها النظام بكل وضوح، ونحن كنا ننفذ ما يريده منا بسذاجة أو بجهل، محققين له ما يحلم به، إلى أن وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

لقد حملنا السلاح الذي تم تمريره إلينا، وتحولنا إلى طائفيين كما خطط الأسد ونظامه، وحولتنا كاميرات الناشطين إلى إرهابيين، وتراجعت نظرة تعاطف العالم مع ثورة الشعب السوري لتحل محلها نظرة ذلك العالم إلى شعب يخوض

حرباً أهلية داخلية.

كل ذلك حدث من دون أن نستطيع الوقوف في وجهه نقداً وممارسة.

لا يكفي أن نكون على حق كي يقف العالم معنا، يجب أن نختار الوسائل التي تظهر حقنا وعدالة قضيتنا، وأعتقد أنه ما زال أمامنا متسع من الوقت لفعل ذلك وتحقيق النصر وإسقاط النظام.

* * *

الثورة السورية بين الإعلام والواقع

أثناء الحرب الأهلية اللبنانية كنت أعيش في بيروت، وفيها ومنها تعلمت الفرق بين ما يُقال في وسائل الإعلام عن القتال وبين ما هو حقيقي ويجري على الأرض، وشتان ما بين الحالتين.

من خبرات تلك المرحلة، ورغم أنني في مونتريال منذ ٢٤ سنة، عندما كنت أسمع عن القتال الجاري على الأرض في سوريا، وعن شهادات الناس وكلام الإعلاميين، كنت أحاول أن أرمم الفراغات في الصورة التي ينقلها الآخرون، لذلك كنت أسقط بعض الأجزاء التي لا تتناسب مع بقية أجزاء الصورة، محاولاً، قدر إمكاناتي ومعارفي المتواضعة، أن أكوِّن صورة قريبة للحقيقة عن مجريات الأمور في سوريا الثورة والنظام القاتل. نتيجةً لكل ما سبق، لم أصدق كلام النظام الأسدي عن الإصلاح والحوار، كما لم أصدق كلامه عن الجماعات الإرهابية وحمايته للأقليات، وفي الوقت نفسه لم أصدق الفبركات الإعلامية من فيديوهات وشهادات عن الذبح الطائفي، لأنني كنت وما أزال مقتنعاً أن أغلبية ما رأيناه أو سمعنا عنه هو من إنتاج النظام الأسدي، لسبب بسيط لأنه يخدمه.

وجاءت الفرصة المناسبة لأتأكد مما يجري على الأرض، عندما جاء، قادماً من حلب المحررة الصديق والناشط المدني د. محمد محمود، الذي كان قد هجر نعيم مونتريال وعاد إلى حلب للعيش هناك ومساعدة الناس على الاستمرار في ثورتهم المهددة بالسرقة، فكان لي شرف الاستماع إليه في أكثر من مناسبة متحدثاً عن الأوضاع في سوريا، وخاصة في حلب، وسأحاول أن أختصر، عارضاً أهم النقاط غير الواضحة في عقل السوري الذي يعيش خارج سوريا.

أكد الناشط الحلبي أن الثورة قد خلخلت البنية الاجتماعية التقليدية في حلب، وكسرت الكثير من القيم المتوارثة في المجتمع السوري، وخاصة المجتمع المحافظ كالمجتمع الحلبي، ويمكن ملاحظة ذلك في انتقال شباب وصبايا من الأحياء الثرية كالمحافظة والسريان للعيش في الأحياء الأكثر فقراً في حلب كالشعار والميسر

وبستان القصر، للمشاركة في الثورة وأنشطتها، بعلم أهلهم ومباركتهم، ومن يعرف حلب ومجتمعها يعرف معنى وأهمية وجذرية حدوث أمور كهذه...

من ناحية أخرى، فإن الناظر بتفحص إلى المناطق والمدن السورية الثائرة يكتشف فوراً الخلخلة التي تكلمت عنها في انتقال مراكز الفعل الثوري من الأماكن التقليدية له في قلب المدن إلى أماكن جديدة؛ فمركز حماة انتقل إلى الريف الشمالي، ومركز إدلب انتقل إلى جبل الزاوية، ودمشق إلى الغوطتين، وتميزت حلب المحررة في هذا الجانب، فصار مركز القرار في المدينة لكنه في أيد ريفية. هذه الخلخلة الاجتماعية قادت إلى تمايز واقعي آخر في الأوساط الإسلامية والجهادية، فانتقال مراكز القيادة من المدن التي كانت حاملة الإسلام السني المرتبط بالمصالح التجارية لطبقة البرجوازية وابتعاده عنها بسبب القمع الأمني والعسكري جعل الأوساط الريفية تلعب دوراً مركزياً، كونها حملت إسلاماً أكثر تأثراً بالأفكار الجهادية التي يحملها أبناء الريف (تريف الدين، حسب ياسين الحاج صالح) الذين ذهبوا للقتال في العراق وأفغانستان أو المتأثرين بالفكر الأصولي الوهابي.

هذا الواقع الجديد سهّل دخول الحركات الجهادية إلى المعمعة السورية ممثلة بجبهة النصرة لبلاد الشام، تلتها حركة أحرار الفجر، ثم حركة أحرار الشام الإسلامية، ومؤخراً حركة صقور الشام... ورغم عمل هذه الحركات انطلاقاً من الواقع السوري بحكم تركيبتها الديموغرافية - كون معظم المقاتلين فيها من السوريين - فإن الضربة الكبرى جاءت من تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الذي ظهر فجأة على الساحة السورية حاملاً مشروع دولة بادئاً بتنفيذه بدءاً بالراية والمصطلحات الإدارية والفقهية انتهاء بتفصيلات وتطبيقات صعب على السوريين - والسوريات خصوصاً - تطبيقها كونها تخرج عن الفهم السوري للإسلام ووسطيته نحو فهم غريب مبتسر قائم على تكفير كل من يخالف. ضمن المعمعة اعتقد كثير من السوريين أن التنظيم الذي استطاع فرض سيطرته على الشمال بدموية قل مثيلها هو تنظيم عميل للسلطة قلباً وقالباً، لكن الواقع هو أن

التنظيم - أو «داعش» كما شاعت التسمية - منظومة فكرية بنيت على منهج فكري أعاد تفسير الإسلام الأول اعتماداً على تفسير الجماعات المصرية في السبعينيات - جماعة التكفير والهجرة مثلاً - مثلها مثل الجماعة الإسلامية المقاتلة في الجزائر أو حركة الشباب في الصومال. استلهام تجربة الإسلام الأول بدا واضحاً في سوريا انطلاقاً من التسميات، إذ أطلق المقاتلون الأجانب على أنفسهم اسم «المهاجرون» وعلى السوريين اسم الأنصار، كما بدا التأثير العراقي واضحاً في المصطلحات الإدارية والرتب العسكرية في هيكلية الدولة الإسلامية كما خطط لها مفكرو التنظيم.

التحاق الشباب السوريين بالتنظيم جاء بعد اكتساب التنظيم لهيبة فرضها الدم السوري المسفوح والوقوف بوجه تجاوزات كتائب الجيش الحر في الرقة وحلب وإدلب... ورغم أن من التحقوا بالتنظيم بعد ظهوره لم يحصلوا سوى على وظائف دونية، فإن الانتماء للتنظيم أو بيعة داعش - سواء أكانت بيعة قتال أو بيعة إمارة - كانت طريقاً ركبه الشباب السوري للتقرب من الدولة الناشئة.

مع انكفاء التنظيم عن حلب وريفها الشمالي والغربي وعن إدلب وجبل الزاوية وانسحاب مقاتليه من هذه المناطق أو انضوائهم تحت مسميات أخرى، ظهر الوجه الحقيقي للتنظيم، حيث شكلت الإعدامات الميدانية في حلب ومدن ريفها الشمالي والسيارات المفخخة والانتحاريات والمقابر الجماعية التي اكتشفت بعد انسحاب الجهاديين صدمة أعادت عدداً لا بأس به للواقع الذي حاولوا تكذيبه. بدا حينها جلياً واضحاً بعد المشاهدات الميدانية وحسب الشهادات التي أدلى بها إعلاميون ومقاتلون من الجيش الحر كانوا معتقلين عند داعش حجم اختراق أجهزة النظام القمعي للمنظومة الأمنية للدولة الإسلامية في العراق والشام.

وهنا فقط يمكن فهم الخلط الذي كان واضحاً في خطاب النشطاء في حلب والريف الشمالي وجبل الزاوية وإدلب عن طبيعة التنظيم ودوره في قمع الثورة في مناطق تواجده التي امتدت حتى حدود جبهة الساحل.

النقطة الآخرى التي أثارها الناشط السوري د. محمد محمود هي العمل الميداني في حلب وريفها - تحت القصف اليومي - وإدلب وحماة. هناك مجموعة من المجالس المحلية التي شكلت من سنة أو أقل تقدم نموذجاً في العمل المدني والثوري في آن واحد. عدا عن كونها مجالس خدمية تضم اختصاصين أو تقنيين في مجالهم، تمثل هذه المجالس بداية حقيقية لممارسة الديمقراطية الانتخابية في المناطق التي تم تحريرها أو انسحب النظام منها. هذه المجالس هي التي قدمت منظومة الدفاع المدني التي استطاعت سد نقص كبير في حاجيات حلب وريفها تحت قصف النظام وسعيه لتدمير البنية التحتية والإنسان القادر على صيانتها وتحسينها.

تتجلى أهمية هذا العمل الميداني في صدقية من بقي على الأرض وصمد في وجه داعش وهجمات النظام وقصفه وتدميره، بينما انسحب أو هرب من كان يحسب على المعارضة التقليدية. ضمن هذا العمل الميداني هناك أيضاً المجالس الثورية ومنظمات المجتمع المدني (الإسلامية منها والمدنية) التي وقفت وتشبثت بالأرض وساعدت الصامدين من أبناء المدن والقرى الذين فضلوا التمسك بالأرض والصمود على الهرب. هكذا جاءت حملات محلية شاملة لتساعد على الصمود (حملة صامدون وحملة مدرستي) واحتفاليات الذكرى الثالثة لانطلاقة الثورة في حلب وريفها وإدلب وجبل الزاوية.

ضمن التوجه نفسه هناك نشاطات أخرى في الأشهر القادمة ستخصص لتأهيل الكادر التعليمي ورفع سويته العلمية والعملية بالإضافة إلى مشروع يعيد طلاب الجامعات الذين انقطعوا عن تحصيلهم العلمي لربطهم بالمعرفة - كل في مجال اختصاصه ودراسته. سوف يكون المشروع لبنة أولى في محاولة تأسيس جامعة وطنية في العلوم الإنسانية والتقنية.

هذه هي الخطوط العريضة لما طرحة د.محمد محمود، فشكراً له ولتضحياته الكبيرة في خدمة الثورة السورية واستمراريتها.

* * *

المسيح ينضم للجيش الحر

العام الدراسي ٦٩-١٩٧٠ كان عامي التعليمي الأول في ريف حلب. كان يحلو لي أحياناً أن أبقى يومي الخميس والجمعة في حلب المدينة، أتسكع في شوارعها، أحلم بصباياها، أزور مقاهيها وباراتها. في أحد الأيام اكتشفت نادي الشبيبة الكاثوليكية في العزيزية. تشجعت واقتربت من الباب لأسأل عن هذا النادي، فقال لي أحدهم: يمكنك الصعود إلى الطابق الأول والتعرف على نشاطات النادي.

للوهلة الأولى، شعرت أن هذا النادي يخصني، أليس هو للشبيبة الكاثوليكية؟ صحيح أنني أرثوذكسي، ولكن لم أكن أعرف ما هو الفرق بين الطائفتين، فبنظري كلنا مسيحيون، وبالتالي فالنادي لي كما هو للشاب الكاثوليكي.

في الزيارة الأولى، أمضيت بعض الوقت مكتشفاً صالات النادي، وقارئاً لبعض المنشورات والنشاطات التي كان قد قام بها سابقاً. وسألت أحدهم عن كيفية الانتساب للنادي كي أصبح عضواً فيه فقال: يجب أن ترى الأب «س» فهو المسؤول عن تنسيب الأعضاء الجدد.

في الأسابيع التي تلت، وخاصة عندما كنت لا أذهب إلى حمص، كنت أحاول الذهاب إلى النادي، واكتشفت، بعد زوال الانبهار الأول، أن مسيحيتي غير كافية كي أكون مرحباً به هنا، فهناك شروط أهم غير متوفرة عندي، وأصبح بعض الأعضاء، وخاصة الأكبر عمراً، ينظرون إليّ بفوقية، أو يتجاهلون وجودي، إلى أن بدأ ذلك السلوك يثير حساسيتي، حتى إن بعضهم، كما قال لي الشاب الوحيد الذي كان يكلمني، كانوا يعتقدون أن شكلي الخارجي أقرب إلى شكل المسلمين منه إلى المسيحيين.

ثم حدث اللقاء الذي كنت أنتظره، والذي بنيت عليه الآمال في أن يزيل بعض الحواجز التي بدأت تتراكم بيني وبين أعضاء النادي، كان اللقاء مع الخوري، أو الأب المسؤول عن تنسيب الأعضاء الجدد.

كانت أسئلة الخوري تتمحور حول وضعي المالي، ووضع أهلي وماذا يمكن أن أقدم للنادي من خدمات. وعندما اكتشف أنني مجرد معلم ابتدائي فقير، وأن والدي هو شرطي، وأن أصولي فلاحية رغم إقامتنا في حمص، وأننا في المحصلة عائلة فقراء، اعتذر عن قبولي كعضو، لأسباب لا علاقة لها حقيقة بسبب الرفض.

وعندما ذكرته أن السيد المسيح إنما جاء برسالته أولاً من أجل الفقراء، ابتسم بحنان مسيحي «ساخر»، قائلاً، فيما معناه: بلغّ مسيحك الفقير تحياتي.

بعد ٤٣ سنة أرسلت سلام الخوري الساخر إلى المسيح الذي يتظاهر الآن في الشوارع السورية وحيداً أو مع عدد قليل جداً من المسيحيين، وقد قيل لي إنه شوهد أكثر من مرة في صفوف الجيش السوري الحر نتيجة قهره من هكذا نظام وهكذا رجال دين.

* * *

حكاية عمرو ميخائيل سعد الحمصي

كنت مصمماً أن أسمي ابني الأول عمر، ليس من باب الجكارة بالمسيحيين أو العلويين، ولا من باب استرضاء السنة، فقد كانوا يريدون سلتهم بلا عنب في ذلك الوقت، وإنما نوع من الوفاء لذاكرة سياسية كنت قد تخليت عنها طوعاً. ففي أثناء العمل السياسي السري ضد حافظ الأسد، وقبل زواجي، كان اسمي الحركي عمر، لذلك قررت أن أسمي ابني بهذا الاسم. وصدف أن كان في زياتي للتهنئة، بعد ولادة الطفل، صديق ورفيق علوي الولادة، فسألني ماذا تريد تسمية ابنك؟ ولما كان هو أحد أعضاء التنظيم الذي كنا فيه، قلت له: كما تعرف، عمر. قال: أنصحك يا صديقي ألا تحمّل ابنك إرثاً ثقيلاً لا علاقة له به، فهو بهذا الاسم سيواجه صعوبات في كل مرة يقدم اسمه لمسؤول، وقد يستمر هذا النظام خمسين عاماً أو أكثر. قلت له: ما الحل؟ قال ليكن عمرو، فوقع الاسم هكذا سيكون أخف على مسامع العلويين. وهكذا أصبح ابني الأول يحمل اسم عمرو.

كان لا بد، حسب الطقوس العائلية الشرقية، من أخذ موافقة الوالد ومباركته للطفل والاسم المقترح. وكعادتي الصباحية، كنت أتناول القهوة مع والدي قبل الذهاب إلى المكتبة، أخبرته أنني وجدت اسماً للطفل وهو عمرو. قال والدي، وقد بدا الحزن في صوته: ألم تجد اسماً مسيحياً لابنك حتى اخترت هذا الاسم الإسلامي؟ قلت له: ولكنه اسم عربي أصيل. لم يرد والدي، وعرفت أن صمته هو احتجاج وعدم موافقة. انشغلت طوال اليوم بالبحث عن طريقة أنتزع فيها موافقة والدي، إلى أن اهتديت إليها. في صباح اليوم التالي، وكعادتي في تناول القهوة الصباحية مع أبو محفوض (والدي) قلت له: لقد وجدت اسماً جميلاً للطفل سيعجبك. قال خير، شو هو الاسم؟ قلت له: الغضنفر. قال شو هالاسم الغريب، شو يعني الغضنفر؟ قلت له: ولو يا أبي هي إحدى صفات الأسد. لم يتردد، ولم يفكر، قال بصوت واضح جداً: ناقصنا !!، اسمع يا مخاييل، اسم عمرو كتير حلو، وبيلبق للصغير، فألف مبروك. خرجت مسرعاً وسعيداً لتسجيل الطفل في دائرة النفوس، ولم يخطر ببالي أنني سأقع في ورطة خالد.

ففي صيف ٨٧ قررت زوجتي تعميد ولدنا البكر عمرو، ولم يكن وقتها إجراء العماد والاحتفال به بحاجة للحصول على موافقة أمنية. وكعادة السوريين في الأفراح، دعوت أصدقائي، وكانوا من جميع الطوائف والأديان. كانت دار أهلي عبارة عن حوش عربي، باحته تتسع لحوالي مائة شخص جالسين على كراسيهم. الضيافة هي صحون المازة المعتادة، مع نبيذ أو عرق.

بدأت طقوس العمادة من قبل الخوري في وسط الحوش، إلى أن وصلت إلى نقطة لم أكن أعرفها، وهي أنه يجب إطلاق اسم قديس مسيحي على الطفل غير اسمه الحقيقي، فسألني الخوري: ما هو اسم الطفل؟ قلت: اسمه عمرو. ابتسم الخوري وقال لي: اسمه في المعمودية. يجب أن تختار اسماً ثانياً للعمادة. قلت له: حسناً، بما أننا حماصنة، نسميه خالد. وانفجر الحضور في ضحكة عارمة تردد صداها في الحارة الصغيرة مع صيحات تصحيح: سميه علي، أضمن لمستقبله.

كان الخوري سريع البديهة فرد قائلاً: ولمَ لا فخالد في اليونانية يعني استناثيوس، يصح الاسم.

تدخلت حماتي حاسمة الأمر وقائلة للخوري بوجه عابس: اسمه الياس، وهكذا أصبح ابني يحمل اسماً مركباً هو: عمرو الياس.

* * *

لايكا الروسية

وتشاء الأقدار، والتنافس بين طلاب الصف الثالث في دار المعلمين، أن أنال الشهادة الثانوية العامة - القسم الأدبي، دراسة خاصة عام ٦٨، وأن أتوجه إلى دمشق للتسجيل في كلية الآداب، قسم اللغة العربية. وكانت زيارة دمشق تعني، ببساطة، زيارة أصدقاء المرحلة الإعدادية: نبيه وأيمن. أما نبيه فقد قُبل في كلية العلوم، وأما أيمن فقد كانت علاماته لا تسمح له بدخول الجامعة فقرّر، بعد استشارة والده المحامي، الذهاب إلى تركيا للدراسة في إحدى جامعاتها الخاصة. أثناء تواجدي في دمشق، في ذلك الوقت، نمت أكثر من مرة عند أيمن في الملحق المكون من غرفة ومنافعها على سطح بنايتهم، وقد كان عليّ أن أكسب ودّ الكلبة "لايكا" التي يقتنيها صديقي، كي تسمح لي بالحركة ليلاً، لأن صديقي كان ينام أثناء وجودي عنده، في شقتهم مع أهله. قبل عودتي إلى حمص طلب مني أيمن، إذا رغبت، قبول هدية منه، هي الكلبة السوداء، طويلة الشعر "لايكا"، لأن أهله، ككل المسلمين، لا يحبّذون وجود الكلاب في بيوتهم، وعليه تصريفها وإيجاد مأوى لها قبل سفره إلى تركيا. ولما كنت مثل أغلب أولاد الفقراء الذين يودّون تقليد نمط حياة الأغنياء، فقد قبلت الهدية دون أن آخذ إذناً من أهلي، الذين يجدون صعوبة في تأمين أكلهم الشخصي، فكيف سيكون الأمر، وقد بات عليهم الآن تأمين طعام لكلبة إفرنجية لا تعرف كيف تكسب طعامها وحيدة من الشوارع، كما هي حال الكلاب الجعارية المنتشرة في الأرياف والأحياء الفقيرة في المدينة، والتي تكيفت مع فقر الناس!

وهو في وداعي في الكراج، قال أيمن: لقد اشتريت هذه الكلبة من خبير عسكري روسي كان قد حضر إلى سوريا بعد حرب خمسة حزيران، وقال لي إن تسميتها "لايكا" إنما هو نوع من التكريم لأول كلبة روسية خرجت إلى الفضاء عام ١٩٥٧، وقد أعطاني مع الكلبة صحنها الخاص بالأكل، وآخر للشرب، ومشطها ومنشفتها وبعض الألعاب التي تشبه العظام. وفي طريقي إلى حمص، كنت مشغول البال بالطريقة التي سأقنع بها أهلي بقبول الكلبة في البيت، خاصة أنها لا تأكل اللحوم

أو العظام إلا وهي مقلية، والأنواع الأخرى من الأكل الآخر يجب أن تكون مخلوطة دائماً بمقدار من اللحمة الوطنية التي اعتادت عليها، فهي حسب تربيتها الاشتراكية مع الخبير الروسي، والقومية مع صديقي الناصري، لا تأكل اللحمة الإمبريالية المعلبة مسبقة الصنع! ويجب أن تنام في الغرفة. وقد رأيت أن أمر الأكل يمكننا حلّه، ولكن كيف يمكن حل مسألة الصحن الخاص والمنشفة والمشط، وكل أفراد العائلة ليس عندهم هذا الامتياز!

في حمص القديمة، دخلت الدار وتركت الكلبة حرّة بعد أن نزعت المقود الجلدي عن رقبتها، فوقفت في مكانها ترفض الحركة، وكأن أرض الدار المفروشة بالبلاط الحجري الأسود لم تعجبها وهي التي اعتادت البلاط الشامي الجميل، فكان لا بد من دفعها بنعومة إلى الأمام بقدمي قليلاً كي لا أهين مشاعرها وتتقدم، وهذا ما حصل. المهم أنني استطعت الهيمنة على الوضع المتفجر في البيت بالاعتماد على إخوتي الأطفال، الذين وعدونا بالعناية بالكلبة والاهتمام بأكلها نظافتها ونومها، ولكن كانت وعودهم ككل وعود الأطفال، فسرعان ما تخلوا عنها بعد أن شبعوا من اللعب مع الحيوان.

في البداية، رفضت الكلبة الاقتراب من الأكل الذي كان يُرمى لها خارج صحنها، ولكن الجوع أجبرها في النهاية على ذلك، ثم حاولت أن ترفض اللحم النيئ، ولما لم تجد بديلاً له أقدمت على التهامه، كانت في البداية تهاجم كل من يدخل إلى الدار وتنبح عليه، ولكن الركل والرفس جعلها تتخلى عن هذه العادة التي لا يحبها الفقراء، واقتصرت في استخدام نباحها على الذين يمرون في الزاروب فقط. وشيئاً فشيئاً توسّعت دائرة معارف كلبتنا في الزاروب الصغير وأصبحت صديقة لكل أطفال الجيران، ومع الوقت نسيت شيئاً اسمه صحن ومشط ومنشفة وطعام مطبوخ، وازداد التهامها للخضار والفواكه. وخلال أقل من ثلاثة أشهر تحوّلت الكلبة المدلّلة البرجوازية إلى كلبة شعبية أقرب ما تكون إلى الكلاب الجعارية في العادات، وإن بقي شكلها الخارجي وحجمها مختلفاً، واستطاعت بقدرتها على التكيف مع الوسط السوري الجديد، ومع فقره، أن تكسب احترام ومحبة جميع

أفراد العائلة وكل الجيران كباراً وصغاراً، وأصبحت تتجوّل وحيدة في الزاروب وتلعب مع من تجده من الأطفال، ثم تعود إلى البيت الذي كان باب داره مفتوحاً دائماً للبشر والحيوانات.

بعد انتصار الحركة التصحيحية عام ٧٠، ووصول الرفيق الفريق حافظ الأسد إلى قمة السلطة السياسية، كنت معلّماً في ريف حلب وقتها، وعندما حضرت في زيارة إلى حمص لم أجد الكلبة "لايكا" في الدار، وانتظرت بعض الوقت قبل أن أسأل عنها، فصمت الجميع، وأخيراً قال أخي الصغير: لقد رأى أولاد الحارة ضابطاً يمر من هنا، وكان يداعب الكلبة ثم اختفى هو وإياها، ونحن نعتقد أنه سرقها، وتابع أخي قائلاً: لقد رأيت ولداً آخر من الحي، أثناء التفتيش عنها، وقال لي إنه رأى عسكرياً يحملها بين يديه، وبجانبه ضابط يقول له: لقد استرجعنا ما كان ملكنا. وهكذا انتهت قصة لايكا السورية الشعبية بعد أن سرقها العسكر.

* * *

لاجئ برتبة مخبر أمني

في نهار عربي مشمس شديد الحرارة، عالي الرطوبة، وصل أحد السوريين إلى مطار مونتريال، وتقدم فور مثوله أمام مكتب موظف الجمارك بطلب لجوء ضد حكومة بلده، متهماً إياها بالعسف والجور وكبت الحريات العامة، والاعتداء على أعراض الناس وممتلكاتهم. وقد سجل لدى الموظف المختص قائمة طويلة بأنواع الاضطهادات التي لحقته شخصياً من الناحيتين المادية والمعنوية، ناسباً أسباب اضطهاده الشخصي لمحاولته التعبير عن رأيه بواسطة قلمه ولسانه، وهو حق أقرته كل الشرائع وكل البلدان «المتحضرة»، باستثناء حكومة بلده "سوريا".

وللأسباب سالفة الذكر طلب من الحكومة الكندية حمايته من حكومة بلده التي تلاحقه ليل نهار، وذلك بمنحه حق اللجوء السياسي، كي يستطيع ممارسة إنسانيته، وذلك عبر ممارسته أهم حقوقه الإنسانية ألا وهو حق التعبير عن أفكاره ومعتقداته باللسان والقلم... فقط.

في المحكمة، سأله القاضي، الذي كان خبيراً بالثقافة العربية ويحبّها، عما إذا كان سيستخدم، في كندا، وسائل أخرى للتعبير عن معتقداته، في حال نال حق اللجوء السياسي، كالخيل والسيف والرمح؟ فأجاب صاحبنا: بالنفي، مقسماً «بشرفه الذي سلم من الأذى» أن لا يستخدم إلا الوسائل المشروعة في القانون الكندي (كالقرطاس والقلم). وكان أعضاء المحكمة قد أخذتهم الرأفة بهذا المضطهد المظلوم، فمنحوه حق اللجوء السياسي، على أن يسوي وضعه لاحقاً، كي يكون مواطناً كندياً حسب الأنظمة المرعية. وقد أثبتت سيرة هذا الشخص، غير المدونة، أنه وفّى بكافة التزاماته التي قطعها على نفسه في المحكمة، معتمداً تأويلاً معاصراً وحضارياً لبيت المتنبي الشهير، والذي كان يردده كلما جمعتنا المصادفات به:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقد استطاع صاحبنا اللاجئ، عبر غزواته لعلب مونتريال الليلية، أن يحظى

بقسط وافر من الشهرة، ندر أن حظي بها عربي من قبل في بلاد الهجرة! أما عن سيفه ورمحه فلا تسل، فقد شَكَت من غدرهما - وما تزال - ظهور وأكتاف الكثير من السوريين المهاجرين. أما عن تعهده أمام قوس المحكمة باستخدام القرطاس والقلم، فلكم أن تتخيلوا نشاطه ولا حرج في ذلك. فقد استهلك صاحبنا كميات لا تحصى من الأقلام والورق، مسجلاً بواسطتها وعليها كل الكلمات التي وصلت إلى أذنيه، والتي نطق بها، سراً أو علناً، أبناء الجالية السورية، عن الاستبداد في سوريا الأسد، وعن ضرورة الانتقال الديمقراطي السلمي للمجتمع، وعن ضرورة احترام الحقوق الأساسية للسوريين وعلى رأسها حق التعبير عن الرأي.

ولم تفت قلمه فضائح السوريين الشخصية، حتى ضاقت بمراسلاته السرية مراكز المخابرات السورية، التي طالبته بالتقليل منها واقتصارها على الضروري فقط، والمتعلقة بإمكانية ابتزاز المهاجرين السوريين مالياً والوسائل الفعالة في ذلك، فالوطن، حسب رأي المساعدين والضباط العاملين في المخابرات، بحاجة للمال، ليس لجيوبهم، وإنما للمساهمة في بناء الوطن الحلم الذي سيعودون إليه في أحد الأيام!

* * *

قصة حموية وخرافة مقاومة

في العام الدراسي ١٩٥٨- ١٩٥٩، كنت في الصف الثالث الابتدائي، في مدرسة طارق بن زياد، في حي المدينة في حماة. كان والدي شرطياً، براتب قدره، على ما أذكر، ١٤٠ ل س. وكان قد استأجر غرفة لسكن العائلة عند عائلة مسيحية اسم رب العائلة أبو نسيم، وكان حجاراً. ولأن الغرفة كانت كبيرة وتتسع لنا جميعاً (٧ أشخاص)، كانت أجرتها غالية، فقد كان أبي يدفع ٢٥ ليرة شهرياً، يتضمن الإيجار الكهرباء والبق، وهو، أي البق، من تراث الغرف الطينية - الخشبية.

كانت جارتنا أم نسيم ترتدي ملايتها الحموية السوداء، وتضع غطاء الرأس والوجه كلما غادرت البيت، وكان هذا يحدث أكثر من مرة في اليوم. في أحد الأيام سألها أخي الكبير، وكان في البكالوريا: خالتي أم نسيم ليش بتحطي الملاية كل مابدك تطلعي؟ قالت: يا ابني، منذ طفولتي وأنا أضع الملاية، مثلي مثل كل نساء حماة عندما يردن الخروج من المنزل، وعندما جاء الوقت الذي بدأت النساء أو بعضهن بالخروج سافرات، كنت قد تعودت على الملاية، وقد حاولت أكثر من مرة الخروج دونها ولكنني كنت أشعر وكأنني أمشي عارية، لذا كنت أعود سريعاً لوضع الملاية، كنت أشعر معها أنني أكثر حرية، ولا أحد ينظر إليّ بشكل خاص.

سألها أخي متحمساً: ولكن هل أجبركم المسلمون على ذلك؟ نظرت أم نسيم إلى أخي، والدهشة تعلو وجهها، وقالت: لماذا تفكر هكذا، هذه هي المرة الأولى التي أسمع أحداً يقول هذا الكلام؟ لا أحد ألزمنا أو تدخل في لباسنا أو مأكلنا أو تربية أولادنا، ولكن الإنسان، يا ابني، وأنت المتعلم، يجب أن ينسجم مع محيطه، أن يكون مثله حتى لا يكون متل العين العورة، كل الناس تشير عليه. صمت أخي.

في ذلك الوقت كان المطران حريكه، للروم الارثوذكس، رجلاً قوي الشخصية، ليس في وسط طائفته فقط، وإنما في أوساط المسلمين الحمويين. فقد كان أقوى

من محافظ حماة، في بعض الأحيان، وقوته كانت كما يقال، آتية من علاقاته الممتازة مع طبقة السياسيين ورجال الدين الإسلامي الحمويين، ولذا كان يقال: ما يقوله مطران حماة، في الشأن السياسي، يسري على المسحيين والمسلمين، سواء بسواء.

وما قاله المطران حريكه في مفتي حماة عام ١٩٥٧،هذه الكلمات: تحدث السيد أغناطيوس حريكه مطران حماة في مطلع كلمته الرائعة عن الفضيلة المجردة والذكاء المحض في ظرف طغت فيه المادة على الروح... وتحدث عن روح التفاهم السائدة بين المسلمين والمسيحيين بالرغم من رغبات الانتداب التي كثيراً ما كانت تغري بالتفرقة والخصام ... وما قاله المطران حريكه: أحسن الله إلى أولئك الذين فكروا بهذه الحفلة التكريمية لسماحة العلامة المفضال الشيخ سعيد النعسان مفتي حماة المحترم إذ أتاحوا لنا أن نتحدث عن الفضيلة والأخلاق السامية... وإني لأشهد والله عليّ شاهدٌ، وقد رافقته وعاشرته مدى ثلث قرن تقريباً أنني ما لمست فيه نقصاً، ولا رأيت فيه عيباً، ولا سمعت منه كلمة نابية، وكلما كنت أزداد به معرفة وخبرة كنت أقع على جديد فضائله وتتفتح أمام عيني مناقب نادرة.

أنقل ذلك وأسجله كي يعرف رجال الدين المسيحي أين هم الآن من مجتمعهم وهمومه وثورة السوريين ضد الاستبداد المتمثل بآل الأسد، فلعلَّ وعسى.!!!!!!

* * *

صناعة الطوائف

فيما مضى، كان الناس يختارون من بينهم الأكثر ورعاً ومعرفة ليدير شؤونهم الدينية في الكنسية أو الجامع إلى أن استولى حافظ الأسد على السلطة فغيّر قواعد اللعبة لتخدم استمراريته في السلطة. وأصبح رجل الدين يعين من قبل الأمن أو بموافقته، وأعاد إحياء المكونات ما قبل المدنية كالعشائرية والقبلية والطائفية والمناطقية وخلق لها زعامات من المغمورين ليكونوا تابعين أمناء وآمنيين لسلطته، وكرّس المحسوبية التي يحب أن تمر عبر هؤلاء الذين تم ربطهم بالأجهزة الأمنية. لذلك نلاحظ الدور المتضخم لرجل الدين وامتداده خارج نطاق الخدمة الروحية للمواطنين وصولاً إلى قطاعات السياسة والتجارة والصناعة ولكن المرتبط دائماً بالأجهزة الأمنية. ما سبق يفسر انحياز أغلبية رجال الدين المسيحيين والمسلمين إلى جانب السلطة القاتلة ووقوفهم ضد أبناء الشعب السوري في ثورته البطولية.

خربشات مهاجر عتيق عن الهجرة واللغة والتأقلم

* * *

تختلف آراء المهاجرين العرب حول كثير من الأمور، حتى تكاد تصل، عند بعضهم، إلى درجة اعتبار أنفسهم غير مهاجرين، ومن ذلك اختلافهم على طرق ووسائل تعليم الأولاد لغتهم الأم؛ ويبقى المدخل إلى كل ذلك، بنظر أكثر المهاجرين، اللغة في حدودها الدنيا (لغة البيت ومفرداتها)، أو في حدودها العليا (لغة الثقافة) المكتوبة والمقروءة، فهل استطاع المهاجر إنجاز حلمه هذا؟

ما بين رغبات المهاجرين وطموحاتهم وعواطفهم والواقع اليومي الذي ينشأ فيه أولادهم، غالباً ما يكون الحصاد هزيلاً، واستكمالاً لنقاش لا ينتهي، منذ أن يصل المهاجر إلى وطنه الجديد، فطفله لا يجد أمامه إلا مجالاً واحداً للتأقلم، هو كسب رضا المجتمع الجديد عبر اكتساب لغته وعاداته وقيمه بأقصر وقت ممكن. وبما إن اللغة الحقيقية تنمو وتغتني داخل "موضوع اجتماعي" معين، ونتيجة التفاعل المتبادل مع البيئة الحية (المهجر)، لا مع البيئة المتخيلة (الوطن الأم)، فإن الطفل يلجأ بشكل عفوي، إلى تعديل فرضياته ونمط عمل عقله لتطابق نموذج محيطه اللغوي، وهو في ترعرعه يطور قاموسه اللغوي، ويقترب تدريجياً من لغة الكبار في مجتمعه الجديد، بينما يبقى لغوياً وعاطفياً، عند حدود طفولته الأولى، في تعاطيه مع لغته الأم.

ولتفسير ذلك سأورد، فيما يلي، تفاصيل يوم كامل من حياة طفل عربي في مونتريال: يمضي الطفل ٨ ساعات في المدرسة، بالإضافة إلى ساعة دراسة في البيت وساعتين أمام التلفزيون يتخللهما بعض اللعب، مما يجعل عدد الساعات التي يمضيها الطفل وهو يستخدم اللغة الفرنسية أو الإنكليزية ١١ ساعة يومياً؛ ولا يبقى للطفل سوى أربع ساعات يمضيها مع أسرته، منها ساعات الطعام وتغيير الثياب والحمام، وهي بمجملها ساعات يغلب عليها إصدار الأوامر والنواهي من قبل الأهل. بقي في حساباتنا عطلة نهاية الأسبوع كعطلة للراحة والاستجمام وممارسة النشاطات؛ فأين هو الوقت المتبقي لتعليم الطفل لغة أهله وأجداده، خارج سياق الحياة اليومية، او لتطوير لغته العربية.....؟؟!!

قال أحد المهتمين: إن مدرسة نهاية الأسبوع هي الحل المناسب لتعليم الطفل اللغة العربي، ويفضل أن تكون ضمن تجمعات الجالية (كنيسة، جامع، جمعية)، لأن ذلك يتيح للطفل فرصة تمضية بعض الوقت في مناخ عربي، فرد عليه أحد الأصدقاء، قائلاً: لكن يجب أن لا ننسى أن في ذلك قسراً للطفل الذي يحب أن يتماهى مع مجتمعه الكبير، ويمضي فيه غالبية وقته ومع أصدقائه أيضاً، أو يجد الطفل العربي في حالتك هذه نفسه منبوذاً خارج إطار الجماعة واهتماماتها، ما سيترك آثاره السلبية عليه مستقبلاً.

وقال أحد الأصدقاء "المتنورين": إن الحكومة الكيبيكية وجدت حلاً جيداً، في اطار تعدد الثقافات، وسمحت لأطفال كل "أقلية عرقية" أن يتلقوا لغتهم الأم في مدارسها، وذلك قبل أو بعد الدوام المدرسي.

قال أحدنا، وكان بفطرته شكاكاً: وهذا يعزلهم عن جماعة الطلاب وإلباسهم ثياباً ملونة تسهّل عملية فرزهم، ورؤيتهم عن بعد، وتصنيفهم ضمن "الآخرين" ، وكأن لون البشرة ، وأحياناً الدين، لا يكفيان لعملية الفرز والعزل، فتأتي اللغة، تحت شعار براق هو تعدد الثقافات، والنتيجة هي وجودهم في "غيتو"، وهذا ليس في مصلحتهم ولا مصلحة أولادهم على المدى البعيد. وتابع صاحبنا قائلاً: إن الحل الطبيعي هو في العمل على جعل الثقافة العربية جزءاً من ثقافة المجتمع الكندي، عبر قنواته الرسمية والإعلامية.

إن الطفل العربي الذي يرى حجم الهجوم والسخرية من كل ما هو عربي، وعليه، في وسائل الإعلام الكندية وفي أفلام السينما الغربية بشكل عام والأمريكية بشكل خاص، يدفعه إلى الخجل من كونه من أصول عربية وبالتالي قد يكره العرب ولغتهم، أو يذهب إلى التعصب الأعمى والرغبة في الانتقام من هذا الغرب. أما عندما تحترم ثقافته في مهجره فإنه سيشعر بالاعتزاز لانتماء أهله إلى تلك المنطقة من العالم، ويسارع للاطلاع على تاريخهم وثقافتهم، أنا أعرف أن تحقيق ما سبق ذكره لن يتم بأن يهدي الله الغربيين إلى السراط المستقيم،

وإنما يتم بعملنا اليومي، وبالمثابرة على الانفتاح على الآخر، وقبل كل شيء في تغيير الشروط التي دفعت المواطن العربي دفعاً للهجرة وترك وطنه للأوغاد من المستبدين.

- تم-

* * *

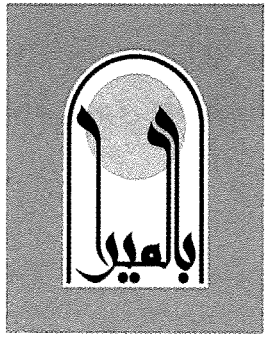

جمعية بالميرا

ريع هذا الكتاب يعود لجمعية بالميرا، التي تهتم بالاطفال السوريين الذين فقدوا طرفا أو أكثر من اطرافهم، نتيجة الحرب السورية الدائرة منذ أكثر من خمس سنوات، وكان من ضحاياها الاكثر تضررا الاطفال والنساء.

لكل المعلومات اللازمة تجدونها في العناوين المرفقة.

WEBSITE: HTTP://WWW.PALMYRARELIEF.ORG

FACEBOOK: HTTP://WWW.FACEBOOK.COM/PALMYRARELIEF

TWITTER: HTTP://WWW.TWITTER.COM/PALMYRARELIEF

EMAI: PALMYRARELIEF@GMAIL.COM

سرديات بوحية

هل يصح أمام مشاهد الموت والخراب والعنف غير المسبوق أن تسخر؟..

تقدم نصوص الكتاب إجابة قاطعة على هذا السؤال: نعم، وبكل تأكيد. ثم تمضي أبعد من ذلك فتشدّد على أن السخرية قد تكون الخيار الأمثل للكشف عن التناقضات الحادة التي لا يمكن التقاطها بأي أسلوب آخر.

مشاهد تكوّن في مجملها ما يشبه السيرة الذاتية لكل من الكاتبين، لكنها سيرة الخيبة والخذلان التي تتسع لتتجاوز شخصهما، وتشمل وطناً كاملاً نخره الفساد والقهر عقوداً طويلة، فلم يعد يجدي معه ترميم أو ترقيع، فكان لا بد من ثورة تكشف عن الأسس المطمورة لتبني فوقها من جديد..

ISBN 978-993391606-0